الجمهـورية الجـزائرية الديمقـراطيـة الشعبيـة
وزارة التعليـم العالي و البحث العلمي
جامعـة وهـران – السـانيـا-

كليـة الآداب اللغـات و الفنـون
قسـم اللغة العربيـة و آدابهـا

رسـالة مقـدمـة لنيل شهـادة دكتـوراه في اللغـة موسومـة بـ:

الجـوانب اللسـانيـة في تفسيـر البحـر المحيـط

*** دراسة وصفية في ضوء اللسانيات الحديثة ***

من إعداد الطالبة:
زهرة سعد الله

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:
بكـري عبد الكريم

السنـة الجامعيـة

2010/2009

كلمة شكر

نحمد الله و نشكره قبل كل شيء، الذي وفقنا في هذا البحث و الذي أفاض علينا من نعمائه و فضله، فالحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما ينبغي لجلاله و عظيم سلطانه، و الحمد له الذي تتم بنعمته الصالحات.

و أتقدم بالشكر و الامتنان إلى كل من مد إلي يد المساعدة و أخص بالذكر أستاذي المشرف الدكتور بكري عبد الكريم الذي غمرني برعاية الأب لابنته و عايش معي صعوبات هذا البحث و تحمل مشقة الإشراف و المتابعة فلم يبخل علي بنصحه و توجيهه.

كما أشكر الدكتور درار مكي الذي أمدني بمجموعة كبيرة من المصادر و اهتم بمراجعة هذا العمل خطوة خطوة.

و أشكر أيضا زملائي الأساتذة من قسم اللغة العربية و آدابها خاصة الدكتور بوزبوجة عبد القادر و الدكتور بن عيسى عبد الحليم و الدكتور عبد الخالق رشيد و غيرهم جزاهم الله عني كل خير.

إهـــداء

إلـــى روح والـــدي الكريميـــن

إلـــى كل عـــزيز فقـــدتـــه: أختـــي عليـــاء

و ابنـــة أخي وردة

كمـــا أهدي هذه الرســـالة

إلى تـــوأم الروح زوجي الحبيب بوحميـــدة قـــادة

و فلـــذتي كبـــدي إبنـــي محمد محي الديـــن

و إبنتي وردة الكاميليـــا

دون أن أنســـى إخوتي الأعـــزاء

خاصة أختي سعـــاد.

مقدمة:

الحمد لله الذي أنار قلوبنا بنور الإسلام، و أخرجنا من الضلال الفكري و الاجتماعي؛ فألّف بين قلوبنا و جمعنا على عبادته و توحيده، و وضع بين أيدينا قبسًا من نوره، هو كتاب الله المعجز، الذي يعدّ منهجاً و توجيهاً قرآنيا، يتبعه المسلمون في حياتهم الدينية و الفكرية و الاجتماعية و السياسية يقول تعالى ﴿**إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم و يُبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً**﴾ الإسراء/09، و قوله أيضاً ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتب و يعفو عن كثير قد جاءكم** الله **نورٌ و كتابٌ مبين** (15) **يهدي به** الله **من** اتبّع رضوانه **سُبُلَ** السّلام **و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، و يهديهم إلى صراط مستقيم**(16)﴾ المائدة/ 15-16.

هذا الكتاب الذي يعدّ مصدراً للحضارة الإسلامية و التشريع الإسلامي، و مصدراً للبحوث العربية التي ساهم في إنجازها مفكرون و علماء بمختلف مشاربهم و توجهاتهم و تخصصاتهم و مذاهبهم، أقبلوا بكثافة على تدارس كتاب الله المعجز بألفاظه و تركيبه و أساليبه، المتعالي عن الزمان و المكان المرتكز على مجموعة من الدعائم التي تضمن وجوده و سيرورته و خلوده؛ فالخطاب الإلهي يعد بحق قاعدة تأسيسية للمعارف الإنسانية في كل زمان و مكان.

لذلك فإن إقبال العلماء على استخراج الأحكام من القرآن الكريم و تدبر معاني كل صوت و لفظة و تركيب احتوتها الآيات الكريمة، كان

الشغـــل الشاغل للمسلمين ليقفـــوا على مواطن إعجـــازه، و على سر انسجـــامه و تناســـق معانيـــه، و تسلسل المواضيع التي تطرق إليهـــا بطريقة لم يعهـــد لها العرب مثيـــلا في أساليبهـــم النثريـــة أو في نظمهـــم لأشعـــارهم، على الرغم من أنهم أهل بيـــان و فصاحة لســـان.

و عليـــه كان لابد على العلمـــاء أن يستثمـــروا علوم اللغـــة، و يتزودوا بمختلـــف العلوم الأخـــرى؛ حتى تكون دراستهـــم بحجم القيمة العلميـــة التي احتلهـــا الخطاب القرآنـــي، و قد عرف تاريخنـــا الإسلامي تأليف مصنفـــات عديدة في الفقـــه و أصول الدين و الشريعـــة و التفسيـــر.

و كتب تناولـــت غريب القرآن و إعجازه و اعرابـــه أو بعض أساليه البلاغيـــة؛ ممّا دفع بالمتـــأخرين إلى الإلتفات نحو هذه المؤلفـــات يتدارسونهـــا وفق آليات منهجيـــة حديثة.

و تعد كتب التفاسيـــر من أهم تلك المؤلفـــات لعلاقتها الوطيـــدة بلغة القرآن الكريم، لذلك انكب الباحثـــون المحدثون على تدارسهـــا؛ فألفوا كتبـــاً في طبقات المفسريـــن و مدارس التفسير، و شروط المفسر، و لجـــأت الدراسات الحديثة إلى تناول الخطاب التفسيري عموماً لاستثمار قضايا اللغـــة و قواعدها، بأسلوب فيه من التفـــنن في التفسيـــر و الاجتهاد في توظيف المنهج التـــأويلي المناسب الذي يخدم معتقـــدات المفسرين و مذاهبهم دينيـــة كانت أو لغويـــة ما يدفع الباحث إلى الاهتمـــام بالخطاب التفسيري، الذي تكمن أهميتـــه و خطورته في النسيج الأسلوبي الذي يلجـــأ إليه المفسر لتفهم آي الذكر الحكيـــم؛ مبيناً

حلاله و حرامـــه و الناسخ و المنسوخ و أسباب النزول و معاني ما أشكل فهمه من ألفاظ الذكر الحكيم، فاختلفت مذاهبهـــم و مناهجهم، بحيث قسم المحدثـــون مصنفاتهـــم إلى: كتب التفسير بالمـــأثور، و التفسير بالرأي المعقـــول، و التفسير الصوفي و الشيعي و المعتـــزلي.

و على الرغم من الاختـــلاف الكبير في المنهـــج الذي يسعـــى المفسر إلى تطبيقـــه لتغذيـــة نزعاتـــه الدينيـــة، لا يمكننـــا أن نتجاهـــل وجه الدقة في تفسيـــر آي الذكر الحكيم و المعتمدة أساساً على الاستغـــلال السليـــم و الذكي لفنـــون العربية و علومها، و كان لابد من الإلتفات إلى هذه الأساليـــب كما فعل الدكتـــور الهادي الجطـــلاوي في كتابه قضايا اللغـــة في كتب التفسيـــر (المنهج- التـــأويل- الإعجاز) و فيه تعرض إلى الآليات المنهجيـــة التي اعتمدهـــا المفسرون باختلاف مشاربهم في تفسيـــر و تأويل آي الذكر الحكيم و في التعامل مع الخطاب القرآني. و أهم ما تناولـــه في كتابه علوم اللغـــة التي وظفهـــا المفسرون من بلاغـــة و نحو وصرف لبيـــان إعجاز القرآن الكريـــم و ترسيخ العقيـــدة الإسلاميـــة.

من هذا المنطـــلق كان اهتمامنـــا بالتفسير اللغـــوي لكتاب الله، و هو تفسير لا يخوض فيـــه إلاّ المتبحر في علوم اللغة صوتاً و إفراداً و معجمـــاً و تركيباً و بلاغـــة، و العارف بأساليبهـــا العربية و تلويناتهـــا الخطابية، حتى يرقـــى إلى درجة تؤهلـــه إلى فهم و تـــأويل الخطاب القرآنـــي.

و اهتدينا بعد طول تأمل إلى تفسير البحر المحيط لأثير الدين أبي حيان الغرناطي الأندلسي. لنستشف المنهج الذي اعتمده في تفسيره للأفعال التامة في سورة البقرة، و هذه الدراسة كانت الرسالة التي قدمناها لنيل شهادة ماجستير في اللغة.

على الرغم من ذلك، فقد كان يخالجنا دائماً شعور بالتقصير تجاه هذا العالم، إذ لم نفه حقه و لم نظهر في تلك الدراسة المتواضعة القيمة العلمية لتفسيره، مثلنا مثل الكثير ممن ذكره باعتباره أحد أعلام النحو من هذه المصنفات نجد: دراسة لعلي بن يوسف الأنباري المتوفي سنة 814هـ بعنوان (الرد على أبي حيان في تعصباته على ابن مالك)[1]، و أخرى للشيخ يحي الشاوي المغربي بعنوان (بين أبي حيان و الزمخشري و ابن عطية) تحقيق عبد القادر مغدير. أمّا الدراسات الحديثة فكثير منها التفت إلى جهود هذا العالم الجليل منها دراسة الدكتورة خديجة الحديثي (أبو حيان النحوي) و أخرى للدكتور محمد خان عنوانها (اللهجات العربية و القراءات القرآنية –دراسة في البحر المحيط–)، بالإضافة إلى الأستاذة ربيعة بقيلاني في بحثها المقدم لنيل دبلوم الدراسات العليا تحت عنوان (أبو حيان الأندلسي، موقفه من القراءات القرآنية، و منهجه في تخريجها و توظيفها من خلال تفسيره البحر المحيط)، و الدكتور عبد العزيز فارس في بحثه المقدم لنيل دكتوراه دولة في الآداب عنوانه (التناسب القرآني و آليات اشتغاله من خلال الخطاب التفسيري –البحر المحيط نموذجاً–)، و الدكتور محمد المحمودي و دراسته الموسومة بـ(القراءات القرآنية و قواعد العربية من خلال تفسير أبي حيان

[1] أبو حيان الأندلسي، موقفه من القراءات القرآنية، أ. ربيعة بقيلاني، ص3.

النحوي لسورة البقـــرة). و دراســـة الدكتور عبد الله غـــزات المعنونـــة بـــ(المنهـــج اللغوي عند أبي حيان الأندلســـي من خلال تفسيـــر البحر المحيط)، و لقد كانت لنا دراســـة متواضعة في بحثنـــا المقدم لنيـــل شهادة ماجستير بعنوان (الفعل و دلالته في تفسير البحر المحيط –سورة البقـــرة نموذجاً)، و غيرها من الدراسات التي لم نتمكـــن من حصرها و التي أشادت بجهود أبي حيـــان في علوم اللغة و التفسير و القراءات، و شهـــدت بالقيمة العلميـــة التي يحتلهـــاتفسيره.

فكـــان لابد لنا في المقابل أن نتعـــامل مع الرجل بصفتـــه عالماً متبحـــراً في علوم اللغـــة، قارئاً جامعاً للقراءات المتواتـــرة و الشادة، فقيهـــاً في علوم الشريعة و الدين.

و قادنـــا تصفحنا لتفسيره المسمـــى البحر المحيط إلى الكشف عن ثقافـــة أبي حيـــان الواسعة التي شملت علوماً مختلفة في اللغة و الدين و الشريعة و التاريخ، خولت له تفسيـــر آي الذكر الحكيم بذكـــاء اللغوي و حكمة رجل الدين، ليصل إلى الخطاب القرآني، كل ذلك بأسلوب و آليات مؤسســـة للدرس اللساني العربي. و هو ما حاولنا البرهنة عليه خـــلال دراستنا للجوانب اللسانية في تفسير البحر المحيط. و قد دفعنا إلى ذلك عدم إهتمام الباحثين بتراثنا اللساني العربي فالمؤلفـــات الكثيرة و البحوث الأكاديمية العديدة التي تصفحنـــاها، وجدنا أصحابها يجتهدون في تطويع النظريات اللسانيـــة الغربية لخدمة اللغة العربيـــة، أو يكتفون بمجرد الترجمة. و في الغالب يلجـــأون إلى استحداث المصطلحـــات اللسانية و هذا ما جعلنا نتساءل:

- لماذا لا نجد أعمـــال علمائنا بارزة في مؤلفـــات المحدثيـــن؟
- لماذا لا تستغل دراساتهم للغة العربيـــة في التنظير للدراسة اللغويـــة الحديثة؟
- لماذا لا يبعـــث التـــراث اللساني العربي من جديد؟
- و كيف يمكننا القـــول بأن لدينا مدارس لسانيـــة عربية و هي مجرد تقليـــد للمدارس الغربيـــة؟

لأن انشغال الباحث اللساني العربي ينحصر فقط في اجتـــرار كل مستجدات الدرس الساني الغربي، محاولا أن يوهم نفسه بأنّ هذه النظريات لا محالة تخدم اللغـــة العربية، فليس من داع من البحث عن البديل.

و للإجابـــة عن هذه الأسئلـــة التي راودتنـــا طويلاً اهتدينـــا إلى دراسة الخطاب التفسيري عند أبي حيـــان الجياني الغرناطي الأندلسي (654-754 م) الذي اعتمد على بنـــية اللغة باعتبارهـــا المنطلق الرئيسي لكل لغـــوي لوضع نظرياتـــه اللسانية في تحليل الظاهرة اللغوية، فعكف على دراسة و تحليل كل عنصر من عناصر الخطاب القرآني (الصوت، المفردة، الجملة) ليخلص في النهايـــة إلى استكشاف العلاقة الإنسانيـــة بين عناصر الجملة المكونة لهذا النص المعجز، و كان عنوان بحثنـــا:

الجوانب اللسانيـــة في تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي

- دراسة وصفيـــة في ضوء اللسانيات الحديثة -

و هكذا كان لزاما علينـــا اتباع منهج معين تقتضيه طبيعـــة الموضوع يجمع بين الوصفي و التاريخي و التحليلي و المقارن؛ نستهلـــه بمدخل تمهيدي، نتحدث فيه عن المســـار التاريخي لعلم التفسير و علاقتـــه بعلم التـــأويل و أفضنا الحديث عن التفسير اللغوي لنخصص القسم الثاني من هذا المدخل لترجمة أبي حيـــان. حيث تحدثنا عن حياتـــه و ثقافتـــه و رحلاته و مؤلفاته في مختلف العلوم و مذهبه الفقهي و توجهه النحـــوي، و أفردنا الحديث عن تفسير البحر المحيط و عن قيمتـــه العلميـــة.

و انتقلنا إلى الباب الأول للحديث عن منهج أبي حيـــان في فصليـــن:

فصل أول كان الاهتمام فيه بمصـــادر أبي حيان التي تنحصر في شيوخـــه الذين أخذ عنهم بالروايـــة و السماع، و المصادر العديـــدة في الدراسات اللغوية و التاريخيـــة و الفقهيـــة، بالإضافة إلى كتب التفاسير و السيـــر و المعاجم. نتوقف عند أهمها.

و خصصنا الفصـــل الثاني من الباب الأول في الحديث عن الآليات و الطرق التي اعتمدها أبو حيـــان في تفسيـــره و عنونا الفصل بِـــ: رؤى منهجيـــة في تفسير البحر المحيط.

و تناولنـــا في الباب الثاني المقاربة المنهجيـــة بين أبي حيـــان و الألسنيين. قدمنا له بتوطئـــة نجمل فيها المسار التاريخي للدراسات اللسانيـــة للننتقـــل إلى الفصل الأول الذي خصصنـــاه لآراء أبي حيـــان اللغوية و عنونـــاه بمستويات الدرس اللساني في البحر المحيط، مبتدئيـــن بالمستوى الصوتي الذي تحدثنا فيه عن

المســـار التاريخي للدراسة الصوتيـــة عند الغرب و عند العـــرب لنصل إلى استخـــلاص هذه الدراسة من البحر المحيـــط. بعدها ننتقـــل إلى المستوى الإفرادي متتبعـــين ذات الخطوات التي اتبعنـــاها في الدراسة الصوتيـــة و في الأخير نتعرض للمستوى التركيبي معتـــمدين على بعض النماذج في البحر المحيط.

و أما الفصـــل الثاني و الأخير فقد أفردنا فيه الحديث عن مظـــاهر الإنسجام و الإتساق في الخطاب القرآني، و فيه تعرضنا إلى مفهوم النص و الخطاب عند القدماء و المحدثيـــن، لنقف عند موقـــف أبي حيان من التأويل محاوليـــن في الأخير أن نستشـــف المنهج التـــأويلي من تعامل أبي حيان مع الخطاب القرآنـــي. و من خـــلال بعض النماذج المبثوتـــة في تفسيره ختمنـــا البحث بذكر أهم النتائج التي توصلنا إليهـــا من خـــلال الخطاب التفسيري الذي يقدمـــه لنا أبو حيـــان النحوي.

و حتى نحقق غايتنـــا من هذا البحث المتمثلـــة في الكشف عن الآليات الإجرائيـــة التي اعتمدهـــا أبو حيان في تعاملـــه مع النص إرتأينـــا الاعتمـــاد على مجموعـــة من المصادر و المراجع و المقالات و البحوث الأكاديميـــة من ماجيستيـــر و دكتـــوراه. نذكر أهمهـــا:

المصـــادر:

1- كتب التفسير: البحـــر المحيط بطبعتيـــه، طبعة بيـــروت غير المحققـــة، و الطبعة المحققـــة أيضاً. تفسير الكشاف للزمخشـــري، تفسير المحرر الوجيـــز لابن عطيـــة، و غيرهـــا.

2- بالإضافة إلى كتب اللغة: مثل كتاب سيبويه، البرهان في علوم القرآن للزركشي، و الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، دلائل الإعجاز للجرجاني، إعجاز القرآن الكريم للباقلاني، و مشكل القرآن لابن قتيبة.

المراجع:

أهمها كتاب الهادي الجطلاوي قضايا اللغة في كتاب التفسير، التفسير و المفسرون للذهبي، أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن الكريم لد. محمود السيد شيخون، تلوين الخطاب في القرآن الكريم دراسة في علم الأسلوب و علم النص لطه رضوان طه رضوان، علم لغة النص لد. سعيد حسين بحيري، بلاغة الخطاب و علم النص لصلاح فضل، التلقي و التأويل لمحمد عزام و إلى غيرها من المراجع، بالإضافة للمعاجم العربية أمثال لسان العرب لابن منظور و تاج العروس للزبيدي، و المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لعبد الخالق عظيمة.

البحوث الأكاديمية:

لسانيات الخطاب القرآني، مظاهر الاتساق و الانسجام لخديجة ايكر، أبو حيان الأندلسي موقفه من القراءات القرآنية و منهجه في تخريجها و توظيفها من خلال تفسير البحر المحيط لربيعة بقيلاني، التناسب القرآني و آليات إشتغاله من خلال البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني –مقاربة أسلوبية لد. عبد الخالق رشيد إلى غيرها من الرسائل الأكاديمية و المقالات التي ساعدتنا على تجاوز الصعوبات.

و قد واجهتني في بداية العمل بعض الصعوبات تكمن في العثـــور على دراسات تعاملت مع الخطاب التفسيري خاصة التفسير اللغـــوي. و أبي حيان بوجه خاص، و لكن سرعان ما اختفـــت هذه الصعوبات بعون الله تعالى، و لم تقف أبداً حجر عثـــرة أمام إنجـــاز هذا البحث.

لا يفوتنـــي في الأخير، أن أتـــوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتـــور بكري عبد الكريم، على رعايتـــه لهذا العمل و تحمله معي مشقـــة تتبع خطوات البحث خطـــوة خطـــوة، و كذا آرائـــه النيـــرة و توجيهاتـــه السديدة التي قدمهـــا لي فجزاه الله عني كل خير، كما أشكر الدكتـــور إدريس الناقـــوري من جامعة الدار البيضاء بالمغـــرب، الذي أمدني بالدراسات الأكاديميـــة التي تناولت أبا حيـــان و الخطاب القرآني، و لم يبخل علي بتوجيهاتـــه و آرائه.

مـــدخـــل

التفسيـــر لغة و اصطلاحا

التأويل لغة و اصطلاحا

علاقة التفسير بالتأويل

أنواع التفسير

- مدرسة التفسير بالمأثور
- مدرسة التفسير بالرأي

حياة أبي حيان النحوي

عقيـــدته

وجهتـــه النحوية

مصنفـــاتـــه

- مؤلفاتـــه في التفسير
- مؤلفاتـــه في القراءات
- مؤلفاتـــه في الفقـــه
- مؤلفاتـــه في اللغـــة.
- مؤلفاتـــه في النحـــو

مـدخـل:

لم تكن درجـة فهم آيـات الذكر الحكيـم واحـدة عند جميع المسلمين بل كانت قراءتهم، و تعاملهم مع النص القرآني متباينة بتبـاين ثقافاتهم و معتقداتهم فاختلفـوا في تفسيـر و تـأويل آياتـه، مـما سمح بظهـور مـدارس في التفسيـر في كل أصقـاع الأرض العـربية الإسـلامية و أشهـرها: "مدرسة التفـسير بمكـة، و أخـرى بالمدينـة و ثـالثة بالعـراق، ثم تفـرعت عن هـذه المدارس مـدارس أخـرى للتفسير تتفـاوت في الرأي و في المنـهج، وظهـرت بذلـك فرق كثيـرة ألفت كتبا عـديدة في عـلوم القـرآن و علم التفسيـر بأنـواعه، ذلك لأن كتـاب الله يعـدُّ وعـاءً فكريـاً و معرفيـاً لا ينضب استطـاع أن يفهمـه عـرب الجاهليـة الذين لم يكـن لهم إلاّ الفطرة، و فهمـه كذلك من جاء بعـدهم من الفلاسفة و أهـل العلوم و فهمه زعماء الفـرق المختلفـة على ضروب من التـأويل، و القرآن أيضاً يداور المعاني و يزيغ الأساليب و يخـاطب الروح بمنطقهـا من ألوان الكـلام لا من حروفـه"[1].

ممـا دفـع ببعض العلمـاء إلى التكلّف في تفسيـر آي الذكـر الحكيم من ذلك تفسيـر المعـتزّلة و المتصوفة و الفلاسفـة و الإشـاريين و غيرهـم، غير أن البعض تحـرج من تفسير كتـاب الله برأيـه و اكتفى بالمـأثور عن الرسول صلى الله عليه و سلم قولاً و عملاً، و كذلك عن الصحابة و التابعـين لهم و الموثوق بهم. و لجأ بعضهم إلى تسخـير عـلوم اللغـة في تفسير القـرآن الكريم و فتح أبواب التـأويل في التعـامل مع النص القـرآني و منهم **محمـد**

[1] إعـجاز القرآن و البلاغـة النبـوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتـاب العربي، بيـروت، د.ت، دط، ص 206، ص207.

بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني النفزي أثير الدين أبو حيان، فَريد عصره في التعامل مع الخطاب القرآني، عالم سخر سنوات طوال (أكثر من خمسين سنة) خدمة لكتاب الله حتى أنّه يمكننا القول بأنّه وصل إلى درجة كبيرة من الإعتدال في تحليله للنص القرآني لم يصل إليها أحد ممّن عاصره أو سبقه إذ لا نجده يتحيّز لأي مذهب أو مدرسة.

مفسر سخّر كل المعطيات اللغوية و غير اللغوية ليصل إلى الانسجام و الاتساق الحاصل بين الآيات و السور في القرآن الكريم " فتفسيره يتجاوز إطار التفسير اللغوي المغلق، أو التفسير الفقهي أو الكلامي ... إنّه يؤسس عملية تفسيرية أعم و أشمل، فهو يهتم بما يوجهّ اللساني و القارئ و الكلامي و الفقيه... لتأسيس خطاب منسجم يعبّر عن تناسب سور القرآن و آياته"[1].

و إذ نخصص حديثنا عن المنهج اللغوي في تفسير القرآن الكريم بالتحديد البحر المحيط لأبي حيان النحوي، يجدر بنا أن نقسم هذا المدخل إلى قسمين هامين: قسم نتتبع فيه مصطلح التفسير و علاقته بمصطلح التأويل مع التطرق إلى أهم مناهجه و اتجاهاته؛ و قسم ثان نتحدث فيه عن حياة أبي حيان و رحلاته العلمية و مذهبه الفقهي و اللغوي، و نتعرض إلى مؤلفاته

[1] التناسب القرآني و آليات اشتغاله من خلال البحر المحيط للدكتور عبد العزيز فارس، ص270 رسالة لنيل دكتوراة دولة في الآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2002-2003. مخطوط.

في مختلف العلوم التي نبغ فيها لنحط الرحال عند أهم تلك المؤلفات و هو تفسيره لكتاب الله الموسوم بالبحر المحيط.

التفسير لغة و اصطلاحا:

جاءت لفظة تفسير على وزن تفعيل من الفسْر بفتح الفاء و سكون السين بمعنى الإبانة و الإظهار و الكشف، فنقول فسّر الشيء أبانه و كشف عنه و أظهره، يعرفه ابن منظور بقوله: "الفسر كشف المغطى، و التفسير كشف المراد من اللفظ المشكل. يقول تعالى: ﴿و لا يَأتُونَكَ بِمثلٍ إلاّ جِئنَاك بالحقّ و أحسنَ تفسيراً﴾ الفرقان/33 أي بياناً و تفصيلاً"[1]. يقول ابن القيم في تفسير الآية "التفسير الحسن الوارد في الآية هو الألفاظ الدّالة على الحق، و الحق هو المعنى و المضمون الذي تضمنه الكتاب و التفسير أصله من البيان و الظهور، و يلاقيه في الاشتقاق الأكبر: الإسفار و منه أسفر الفجر، إذا أضاء و وضح، و منه السّفر لبروز المسافر من البيوت، و منه السّفر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم، فلا بد أن يكون التفسير مطابقا للمفسر مفهماً له"[2].

و يطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، و هو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري[3].

---

[1] معجم لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت، لبنان، ج6، ص 361، مادة فسر.

[2] منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم، الدكتور صبري متولي، ص 50.

[3] تفسير البحر المحيط، أبي حيان النحوي الأندلسي ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1978، ط2، ج1، ص13.

و عـــليه اتفـــق العلمـــاء في وضع تعريف شـــامل و محدد لعلم التفسيـــر الذي يختـــلف كل الاخـــتلاف عن باقي العـــلوم العقليـــة لارتبـــاطه بالقرآن الكريم يقول الزركشـــي: " عـــلم يفهم به كتاب الله المنـــزّل على نبيّه محمد صلى الله عليه و سلم، و بيـــان معانيه و استخـــراج أحكـــامه و حكمه"[1].

و لقد تعـــرض أبو حـــيان في مقـــدمته إلى تعريف علم التفسير تعريفـــاً شاملاً يقول: " علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن و مدلولاتها و أحكامها الإفرادية و التركيبيـــة، و معانيها التي تحـــمل عليها حـــالة التركيـــب، و تتمات لذلك..."[2].

ثم خـــرّج التعـــريف فقـــال[3]:

1- فقولنـــا علم هو جـــنس يشمل سائر العـــلوم.

2- و قولنـــا يبحث فيه عن كيفية النطق بألفـــاظ القرآن هذا هو علم القراءات.

3- و قولنـــا و مدلولاتهـــا أي مدلولات تلك الألفـــاظ، و هذا هو عـــلم اللغة الذي يحتاج إليه في هـــذا العلم.

4- و قولنا و أحكامها الإفرادية و التركيبية، هذا يشمل علم التصريف و علم الإعراب، و علم البيان و علم البديع.

5- و قولنـــا و معانيها التي تحمل عليهـــا حالة التركيب، يشمـــل ما دلالتـــه عليه بالحقيقـــة و ما دلالته عليه بالمجاز، فإنّ التركيب قد يقتضـــي بظاهـــره شيئا

---

[1] البرهـــان في عـــلوم القرآن للإمـــام بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيـــم، ط1957، دار إحيـــاء الكتب العربيـــة عيسى البابي الحلبي و شركـــاؤه، ج2، ص147.

[2] البحر المحيـــط، ج1، ص13-14.

[3] المصدر نفســـه.

و يصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر و هو المجاز.

6- و قولنا و تتمات لذلك هو معرفة النسخ و سبب النزول و قصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، و نحو ذلك.

و اختصر الزرقاني تعريفه بقوله "هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[1]. و هو إدراك العلم المتعلق بالقرآن من حيث الكشف عن أسباب نزول آياته و عن محكمه و متشابهه، و ناسخه و منسوخه، و خاصه و عامه، و مطلقه و مقيده، و مجمله و مفسره، و عن حلاله و حرامه، و قصصه و أخباره و روائعه و أمثاله[2].

يتضح للمتدبر في هذه التعريفات كلّها أنّ علم التفسير مختلف عن علم التأويل، و إن كان يربطهما رباط وثيق لا ينفصم هو كتاب الله – جلّ شأنه- إذ كلاّ منهما يقتضي وجود الآخر، فلا يكمّل التفسير إلاّ بعلم التأويل، و لا يكون التأويل دقيقا مَا لَم يكن مستخلصاً من أصول علمية يوفرها له علم التفسير، فلا مفهوم، إذن، للآية بمعزل عن مفهوم كل لفظة تؤلفها، و لا يمكن الوقوف على تفسير اللفظة بمعزل عن تأويل السياق، فما المقصود إذن بعلم التأويل؟ و ما الفرق بينه و بين علم التفسير؟

[1] مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، الجامعة الأزهرية، كلية أصول الدين، ط3، دار إحياء الكتب العربية، ج2، ص471.

[2] دراسات في علوم القرآن للدكتور أمير عبد العزيز، دار الشهاب للطباعة و النشر، الجزائر، ط2، 1988، ص141.

التـــأويـــــل لغـــة و اصـــطـــلاحـــا

التـــأويل تفعـــيل من الأوْل بسكون الواو بمعـــنى الرجوع، و هو من آل يؤول أي رجـــع يرجع و المـــآل و الإيـــال و كـــلاهمـــا اسمـــان بمعنى المرجـــع أو العاقبة أو المصير يقول الفيـــروز بـــادي في القامـــوس: "آل إليه أولاً و مآلاً رجع و عنه ارتد... ثم قال: و أوّل الكـــلاَم تأويلاً و تأوّله دبّـــره و قدّره و فسّـــره، و التأويل عبـــارة الرؤيـــا"[1].

و في اللســـان "الأول: الرجـــوع، آل الشيء يؤول أولا و مـــآلاً رجـــع، و أوّل الشيء رجعـــه، و أَلـــت عن الشـــيء ارتـــددت، و في الحـــديث: من صـــام الدهـــر فلا صام و لاَ آل أي و لا رجـــع إلى خيـــر... ثم قـــال: و أوّل الكـــلام و تأوَلـــه: دبّـــره و قـــدّره و أوّله و تـــأوّله فســـره..."[2]. و منه تـــأويل الكـــلام و هو عـــاقبته و ما يؤول إليـــه فأصلهـــا في اللغـــة من الأول، و معنى قولهـــم: مـــا تأويل هذا الكلام؟ أي إلام تـــؤول العاقبة في المراد به؟ ... و يقال آل الأمر إلى كذا أي صار إليه...و أصله من المآل: و هو العاقبة و المصير[3].

نقول اخـــتصاراً أنّ التأويـــل جـــاء بمعنى القراءة الباطنيـــة التي تتجـــاوز إدراك الوهلة الأولـــى أو بمعـــنى العمق و التـــوسيع، و لقد ذكرت لفظـــة التأويـــل في القرآن الكريم سبع عـــشرة مرة بمعـــانٍ عـــدّة بينما لفظـــة التفسير ذكرت مرّة واحدة في سورة الفرقـــان الآية 33 السالفـــة الذكر، و لقد لخص

[1] القـــاموس المحـــيط للفيـــروز أبادي، دار الفكـــر، بيروت 1983، ج3، ص 331.
[2] لســـان العرب لابن منظـــور، ج11، ص33-34، مـــادة (أول).
[3] البرهـــان للزركشـــي، ج2، ص148.

الذهبي[1] معنى التأويل في القرآن بمعنى التفسير و التعيين كما جاء في سورة آل عمران/07 قوله تعالى﴿ **فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلاّ الله و الرّاسخون في العلم يقولون آمنا به**﴾ كما جاء بمعنى العاقبة و المصير في قوله في سورة النساء/09 ﴿ **فإن تنازَعْتُم في شيء فردوه إلى الله و الرسول، و إن كُنْتُم تُؤْمِنُون بالله و اليوم الآخر ذلك خيرٌ و أحسنُ تأويلاً**﴾ و جاء بمعنى وقوع المخبر به في سورة الأعراف/53 ﴿**هل ينظرون إلى تأويله، يوم يأتي تأويله**﴾ و في سورة يونس/39 ﴿**بل كذّبُوا بما لَمْ يُحِيطُوا بعلمه و لما يأتِهِم تأويله**﴾.

و أكثر السور التي ذكرت فيها لفظة التأويل هي سورة يوسف و جاءت في ثماني آيات هي (6-21-63-37-44-45-100-101). و المراد بها في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا، أما في قوله تعالى في سورة الكهف/78 ﴿**سأنبئك بتأويل ما لَمْ تستطِعْ عَليه صبراً**﴾ و قوله أيضا في الآية 82 ﴿**ذلك تأويل ما لَمْ تستطِعْ عَليه صبراً**﴾ فمعنى التأويل ههنا تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من خرق السفينة، و قتل الغلام، و إقامة الجدار و بيان السبب الحامل عليها، و ليس المراد منه تأويل الأقوال.

[1] التفسير و المفسرون لمحمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة 1988، ج1، ص18-19.

و أمـــا في الاصطلاح فقد أخـــذت لفظة التـــأويل عند العلماء وجهـــين:

1- أولاهمـــا: تفسيـــر الكلام و بيـــان معنـــاه و كشف خفـــاياه، و هـــو بذلك مطابق للتفسير، و هو ما عنـــاه مجـــاهد بقوله: "إن العـــلمـــاء يعـــلمون تـــأويلـــه" يعـــني القرآن، و هو كذلك ما عـــناه ابن جـــرير الطبري بقولـــه في تفسيره "القول في تـــأويل قوله تعـــالى كذا و كذا" و بقولـــه "اخـــتلف أهـــل التأويل في هـــذه الآيـــة" و نحو ذلك فـــإن مـــراده التفسير[1].

2- ثـــانيهمـــا: تـــأويل الكلام بمعـــنى ما أولّه إليه المتكـــلم أو ما يؤول إليـــه الكـــلام و يرجع، و الكـــلام إنّمـــا يرجع و يؤول إلى حقيقتـــه التي هـــي غير المقصود[2] و هو نوعـــان إنشـــاء و إخـــبار و من الإنشـــاء الأمر[3].

* تـــأويل الأمـــر: من ذلك ما روي عن عـــائشة رضي الله عنهـــا أنّها قالت (**كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في ركوعه و سجـــوده سبحانك اللهـــم و بحمدك اللهم اغـــفر لي يتأوّل القرآن**)[4] يعني قوله تعـــالى ﴿**فـــسبّح بحمـــد ربِّك و استغـــفِرْهُ إنَّـــهُ كان تَـــوَّاباً**﴾ النصر/04.

* تـــأويل الإخـــبار: هـــو عين المخـــبر به إذا وقـــع كقولـــه تعـــالى: ﴿**و لَقَـــدْ جئـــنَاهُم بكتـــابٍ فَصَّـــلنَاهُ على علمٍ، هُـــدًى و رحْـــمةً لقـــومٍ يؤمنـــون، هـــل ينظرُون إلاَّ تَـــأويلَـــه، يوم يأتـــي تأويلـــهُ،**

---

[1] التفسير و المفـــسرون للذهـــبي، ج1، ص19.

[2] الإتقان في عـــلوم القرآن، لجـــلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيـــروت، لبنـــان، ج2، ص229.

[3] محـــاضرات في علم التفسير و مناهج المفسرين، د.محمد دراجي، دار غريـــني للطباعـــة و النشـــر، الجزائر، ط1، 2005، ص16.

[4] متفـــق عـــليـــه.

يقول الذين نَسَوْهُ من قبْل قدْ جَاءَتْ رُسُلُ ربِّنَا بالحق فهل لَنَا من شفعاء، فيَشْفَعُوا لنا، أو نُرَدَّ فَنَعْمَلَ غَيرَ الذي كُنَّا نعمَلُ قد خَسِرُوا أنْفُسَهُم و ضَلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون﴾ الأعراف/52-53. يقول القرطبي في تفسير هذه الآية "هل ينظرون إلى تأويله بالهمز من آل ... و قال مجاهد تأويله جزاءه أي جزاء تكذيبهم بالكِتاب و قال قتادة -عاقبته-، و المعنى متقارب و معنى الآية هل ينظرون تحقق ما وعدوا به من العذاب و النكال و الجنة و النّار ليؤمنوا"[1].

أما في عرف المتأخرين من العلماء أي بعد القرن الرابع هجري فقد أصبح التأويل عندهم هو "صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به"[2]، يقول ابن حزم "التأويل نقل اللفظ عمّا اقتضاه ظاهره و عمّا وضع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صح ببرهان و كان ناقله واجب الطاعة فهو حقّ، و إن كان بخلاف ذلك طرح، و لم يلتفت إليه، و حكم لذلك النقل بأنّه باطل"[3] و عرفه الفخر الرازي بقوله التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوع مع قيام الدليل القاطع بأنّ ظاهره محال"[4].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، 1985، ج4، ص15.

[2] تفسير التحرير و التنوير للإمام الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، ص12.

[3] محاضرات في علم التفسير و مناهج المفسرين، للدكتور محمد دراجي، ص14، نقلا عن الأحكام في أصول الإحكام لابن حزم، ج3، ص43.

[4] المرجع نفسه، نقلا عن المحصول للفخر الرازي، ج1، ص229.

معنـــى ذلك أن صحّة التأويل مقيدّة بشرط وجود دليل قاطـــع جـــامع بين اللفظ و المعنـــى المرجـــوع؛ يقتضـــي بالضرورة استحالة تبيـــان المعنى من ظـــاهـــر اللفظ، إلاّ أن بعض المتأخريـــن من المتكلّمـــة و المحـــدثة و المتصوفـــة و نحـــوهم حملوا التأويل على كل صرف للفظ من معـــناه الحقيقي إلى معنى خـــفيّ. نأخذ على سبيل المثـــال قول أبي سهـــل التستري (ت273) تأويـــلا لقـــوله تعـــالى: ﴿**و اتخـــذ قـــومُ موسى من بعده من حَـــليّهـــم عجـــلاً جسداً له خُـــوار**﴾ الأعراف/148. يقول "عـــجل كل إنسان ما أقبـــل عليه فأعرض به من الله من أهـــل و ولد... و لا يتخـــلص من ذلك من عبادته إلاّ بعـــد قتل النفـــوس"[1] و في التأويل توســـع مجـــازي في مدلول العبارة، و هو أيضاً تأويل يمكن الجمع بينـــه و بيـــن ظاهر الآية، و منـــه ما لا يمكـــن الجمع بينـــه و بين ظاهر الآية كقول محمد روزبهـــان الشيـــرازي (ت223) تأويلا لقوله تعـــالى: ﴿ **ليـــس على الضعـــفَاء و لا على المرضـــى و لا عـــلى الذين لا يجدون ما ينفـــقون حَـــرَجٌ إذا نصحـــوا لله و رســـوله ما عـــلى المحـــسنين من سبيل و الله غـــفورٌ رحيم**﴾ التوبـــة/91. " -ليس على الضعـــفاء- يعني الذين أضعفهم حمـــل أوقار المحبـــة لله، -ولا على المرضى- الذين أَمرضتهم مرارة الصبابـــات، -و لا على الذين لا يجدون ما ينفقـــون- الذين يتجردون عن الألـــوان بتجريـــد التوحـــيد و حـــقائق التفـــريد -حـــرج- عـــتاب من جهـــة العـــبودية و المجـــاهدة لأنهـــم

[1] مجلة كلية الشريعة، المملكة المغربية، جامعة القرويين، العدد22، 1997-1998، المقال للدكتور محمد يعقوبي خبيـــزة "تأويل الصوفيـــة للآيات القرآنية في ميزان علمـــاء الشريعة الإسلامية"، ص49 نقلا عن تفسير القرآن العظيم الذي جمعه أبو بكر محمد بن أحمد البلدي ونسبه إلى سهـــل التستـــري، ص 60.

مقتولون بسيف المحبة مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق و مرضهم من الحب، و فقرهم من حسن الرضا"[1].

و هناك من تأويل الصوفية ما هو مناف للإسلام، من ذلك ما ينسب لابن عربي أنه قال في تأويل قوله تعالى: ﴿**ربّنا ما خلقت هذا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عذاب النار**﴾ آل عمران/191.

"ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلاً أي شيئا غيرك فإن غير الحق هو الباطل بل جعلته أسماءك و مظاهر صفاتك -سبحانك- ننزهك أن يوجد غيرك، أن يقارن شيء فردانيتك أو يثني وحدانيتك"[2].

أمّا الألسنيون المحدثون فالتأويل عندهم بمعنى التقدير و التدبير و تجاوز ظاهرة العبارة الذي رسخه المفسرون، الذين كثيراً ما طابقوا بين التأويل و التفسير ...[3] و ساوى بعضهم بينه و بين الهرمينوطيقا (Herméneutique) و هو مصطلح ذو أصل يوناني

---

[1] مجلة كلية الشريعة، المملكة المغربية، جامعة القرويين، العدد22، 1997-1998، المقال للدكتور محمد يعقوبي خبيزة "تأويل الصوفية للآيات القرآنية في ميزان علماء الشريعة الإسلامية"، ص49 نقلا عن عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد الشيرازي، ج1، ص339.

[2] المرجع نفسه ص52، نقلا عن إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن المنسوب لابن عربي، ج1، ص141.

[3] مجلة المترجم، العدد 1 جوان 2001، المقال لبريهمات عيسى، ص 96، مجلة تصدرها جامعة وهران، قسم الترجمة، كلية الآداب، اللغات و الفنون.

و يعني فن التأويل أي تفسير النصوص بتبيان بنيتها الداخلية و الوصفية و وظيفتها المعيارية و المعرفية، و البحث عن حقائق مضمرة في النصوص[1].

و يعرف دالتاي (Dilthey) بأنه "ذلك المسار الذي بواسطته تعرف شيئا ذا طابع روحي بمساعدة العلامات المحسوسة التي تشكل تجلّيه"[2]، أي ذلك المسار أو تلك المعطيات التي تمكن القارئ أو المتلقي من فهم المتكلم بشكل أفضل. و على الرغم من أنّ مفهوم الهرمينوطيقا قد اتسع في القرن الثامن عشر و القرن العشرين ليشمل مناهج فهم النصوص الدينية و الدنيوية على حد سواء، فإن اللفظة قد بقيت توحي بمعنى التفسير الذي يضطلع بكشف شيء ما خبيء و مستور و سريّ، شيء مضمر باطن في قلب النص ينِدُّ عن الفهم العادي و القراءة المعهودة[3].

و حتى لا نطيل الحديث عن الهرمينوطيقا أو فن التأويل عند الألسنيين العرب و غيرهم، و أخص بالذكر دالتاي و هسرل و هيدجر و جادامير (H.G.Gadamer) و ريكور (P.Ricoeur) و شلاير ماخر و غيرهم كثير. اكتفينا فقط بالإشارة إلى أهم ما قيل في معنى التأويل سواء عند القدماء أم المحدثين باختلاف مشاربهم، و نترك الغوص في

---

[1] مجلة المترجم، العدد 4 جوان 2002، المقال لحفناوي بعلي.

[2] النص الإشهاري دراسة لسانية تطبيقية، ماجستير خاين محمد، وهران السانية، 2004-2005، ص37، نقلا عن بول ريكور النص و التأويل.

[3] "فهم الفهم" مدخل إلى الهرمينوطيقا، نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير، د. عادل مصطفى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص18.

مسألة التأويل إلى الفصل الثاني من الباب الثاني، و فيه نحاول أن نستشعر المواضع التي لجأ فيها أبو حيان إلى التأويل حتى يظهر مدى تناسق النص و انسجام آياته مع بعضها البعض.

علاقة التفسير بالتأويل

اختلف العلماء في تحديد الفرق بين التفسير و التأويل حتى بالغ النيسبوري فقال: "نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير و التأويل ما اهتدوا إليه"[1] و يعود أساس هذا الاختلاف – كما قلنا سلفا– إلى كونهما متصلين ببعضهما البعض اتصالاً وثيقاً بل إنّ كل واحد منهما يقتضي وجود الآخر، لذلك تباينت الأقوال، فأبو عبيدة مثلاً يجعل التفسير و التأويل مترادفين، بينما الراغب الأصفهاني لا يرى ذلك يقول: "التفسير أعمّ من التأويل، و أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ و التأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، أو التأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية و التفسير يستعمل فيها و في غيرها. و التفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، و التأويل أكثره يستعمل في الجمل، فالتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة و السائبة و الوصيلة، أو في تبيين المراد و شرحه لقوله تعالى في سورة البقرة/43: ﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة﴾ ... و إمّا في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلاّ بمعرفتها نحو قوله تعالى في الآية 37 من سورة التوبة: ﴿إنمّا النسيء زيادة في الكفر﴾

[1] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج2، ص173

و قوله تعالى في سورة البقرة الآية 189: ﴿**و ليس البّر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾ و أمّا التأويل فإنّه يستعمل مرّة عاماً و مرّة خاصاً نحو الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق و تارة جحود الباري خاصة"[1].

و يقول الماتوريدي: "التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا و الشهادة على الله أنّه عني باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، و إلاّ فتفسير بالرأي و هو المنهي عنه، و التأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع و الشهادة على الله"[2].

و قال بعضهم "التفسير ما يتعلق بالرواية، و التأويل ما يتعلق بالدراية"[3] و على هذا فالنسبة بينهما أيضاً التباين، و التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، و التأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة، و هذا هو المشهور عند المتأخرين[4].

نستنتج من ذلك كلّه أن أغلب العلماء يميلون إلى التفرقة بين التفسير و التأويل، و هو عندنا الرأي الصائب؛ فالتأويل و إن كان يرجع إلى الدراية فهو يعتمد على الاجتهاد في معرفة دلالة الألفاظ في اللغة العربية و استعمالاتها المختلفة في السياق القرآني، و معرفة

---

[1] التفسير و المفسرون للذهبي، نقلا عن التفسير للراغب، ص402-403، بآخر كتاب تنزيله القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

[2] الإتقان، ج2، ص173.

[3] المصدر نفسه.

[4] التفسير و المفسرون للذهبي، ص22، أنظر دراسات في علوم القرآن للدكتور أمير عبد العزيز، ص142-143.

الأساليب العربية و حسن استنباط المعاني يقول الزركشي "و كان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير و التأويل التمييز بين المنقول و المستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، و على النظر في المستنبط"[1].

أنواع التفسير

يعد تفسير الرسول صلى الله عليه و سلم، و تفسير الصحابة رضوان الله عليهم من بعده و كذلك تفسير التابعين مصادر أساسية يجب على المشتغل في التفسير أن يعود إليها حتى يكون تفسيره للآية مؤسساً بدليل، بالإضافة إلى اجتهاده في معرفة لغات العرب يقول مجاهد "لا يحِلُ لأحَدٍ يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يتكَلّم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[2] و قال الإمام مالك: "لا أوتى برجُل غَيْرَ عَالِمٍ بلغات العرب يفسِّرُ كتابَ الله إلاّ جعلته نِكالاً"[3]، فإن استعصى على المفسر فهم لفظة من ألفاظ القرآن الكريم يعود إلى الثروة الأدبية التي خلفها لنا السّلف، و المتمثلة في الشعر الذي يصفه ابن عباس بقوله "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"[4].

---

[1] الإتقان، ج2، ص173.

[2] التفسير و المفسرون للذهبي، ج1، ص255.

[3] نقله البيهقي في شعب الإيمان و نقله عنه صاحب البرهان، ج1، ص160.

[4] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج2، ص119.

و يرى أبو حيان و غيره ممن اتبع منهجه أن المفسر بحاجة ماسة إلى علوم اللغة التي تساعده على كشف المعاني الخفية للفظة و من تم الآية الكريمة. و قد حددها عند تعريفه لعلم التفسير[1].

و أضاف إليها علم الموهبة استنادا لقول الرسول صلى الله عليه و سلم «**من عَمِلَ بما عَلِم ورَّثَهُ الله علم ما لا يعلم**»[2] فعلى المفسر إذن أن يكون:

1. عالماً بعلوم المعاني و البيان و البديع، فلا يمر بصورة من هذه الصور في الآيات القرآنية إلاّ رصدها حتى يتمكّن من حمل المعنى على ظاهر الآية أو باطنها.
2. ضليعاً في علمي النحو و الصرف، ليستطيع الإفصاح عن وظيفة المفردة داخل التركيب القرآني، و يتوصل بذلك إلى المعنى المراد من الآية.
3. ينبغي للمفسر أيضا أن يكون على دراية كبيرة بعلم الاشتقاق فيرجع اللفظة إلى أصولها ليعرف معناها، فإن أخطأ في معرفة الأصل أخطأ في معرفة المعنى.
4. و أن يكون أيضا على دراية بعلم الحديث لتعيين المبهم و تبيين المجمل و سبب النزول و النسخ.
5. عالماً بأصول الفقه حتى يتمكن من معرفة الإجمال و التبيين، و العموم و الخصوص و الإطلاق و التقييد و دلالة الأمر و النهي و ما أشبه هذا[3].

---

[1] البحر المحيط، ج1، ص13-14.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه، ص 107-108. طبعة بيروت 2001، (الطبعة المحققة).

6. و أن يكـــون متبحّـــراً في عـــلوم القـــرآن لمعـــرفة اخـــتلاف الألفـــاظ بزيـــادة أو نقص أو تغـــيير حركـــة أو إتيـــان بلفـــظ بـــدل لفظ.
7. كمـــا يجـــب له التبحّـــر في عـــلوم الكـــلام.

و هكـــذا سارع عـــلماؤنا إلى التأليف، و تنوعت منـــاهجهم في التفسيـــر، و اخـــتلفت رؤاهم فيه، فكانت مناهجهـــم مختلفـــة، و آراءهـــم عـــديدة و تمسكت كل طائفة بما يوافق عقـــائدها في كثير من الأحيان و راحت تجتهد في فتـــح الأبـــواب المعـــنى و ضروب التـــأويل.

و عليه انقـــسم علم التفسير إلى مدرستين كبيرتين، مدرســـة انحصر فيها التفسير على ما جاء من أقوال النبي صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعيـــن، و سمـــي التفسيـــر بالمـــأثور، و مدرســـة ثانية اعتمد فيها أصحابهـــا على الاجـــتهاد و القياس في تفسيـــرهم للآيـــات القرآنيـــة و أطلق على هـــذا النـــوع اسم التفسير بالرأي.

I- مـــدرســـة التفـــسيـــر بـــالمـــأثـــور

المـــأثور في اللغة اسم مفعول من يأثـــر أثراً و الأثـــر هو التتبع و التقصّي و منه أطلق اســـم المـــأثور على التفسيـــر الذي يعـــتمد على الصحيح المنقـــول بالمـــراتب الذي ذكـــرت سابقـــا في شروط المفـــسر، و لا دخـــل للاجتهـــاد العقـــلي و الاستنبـــاط فيـــه و يعـــرفه أهـــل العـــلم بـــأنه "مـــا جـــاء في

القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو كلام الصحابة الثابت الصحيح مما هو بيان لمراد الله تعالى في كتابه"[1].

و يرى بعض الدارسين من أنّ هذا النوع من التفسير يفرض على المفسر ذكر الآراء الواردة في معنى الآية: فلا يجتهد في بيان معنى من غير أصل و يترك ما لا طائل و لا فائدة في معرفته، ما لم يرد عنه نقل صحيح[2]. و يذهب البعض الآخر إلى أن عمل المفسر لا يقف عند ذكر الروايات فقط، و لا تنتهي مهمته في رصدها، و لكن يتعدى ذلك إلى الترجيح بين الروايات، و القول في الآية بما يراه في ضوء الوسائل المعينة على فهم النص القرآني، كأسباب النزول، و المألوف من كلام العرب، أو الرجوع إلى دلالة الألفاظ في عصر النبوة[3].

هذا ما دفع بكثير من المفسرين إلى الرجوع إلى الروايات الإسرائيلية التي لا سند لها، ناهيك عن إسناد بعض الأقوال المنتحلة إلى الصحابة و اختلافهم بذلك في الرواية عنهم، مما فتح الباب للمستشرقين لانتقاد المفسرين و التشكيك في التفسير بالمأثور، يقول جولد تسيهر: "لا يوجد تفسير مأثور موحد للقرآن فمن ناحية تروى عن صحابة مختلفين وجوه مختلفة، و كثيرا متعارضة في تفسير مواضع من القرآن، و من ناحية أخرى تنسب إلى صحابي واحد بعينه أقوال

---

[1] التفسير و المفسرون، ج1، ص153، محاضرات في علم التفسير و مناهج المفسرين، لمحمد دراجي، ص101، مباحث في علوم القرآن، لمناع قطان، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرياض، ط3، 2000، ص358.

[2] مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، ص358.

[3] من مناهج التفسير الشحات السيد زغلول، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص82.

مختلفة في دلالة بعض مفردات أو سائر تراكيب الجملة، و على هذا يمكن عدّ وجوه من التفسير مختلفة بعضها مع بعض، و متعارضة بعضها مع بعض تفسيراً بالعلم، مع التسوية بينها جميعا في ذلك الحق"[1]. و لا ردّ لهذا القول سوى ما قاله السيوطي من أن القائل بالاختلاف في كتب التفسير بالمأثور يعاني من قصور في الفهم بل لا فهم له لما جاء مبتوثا في هذه الكتب، لأنه من الظلم أن نشك في القيمة العلمية للمفسر بالأثر، و الحق أن ما وصلنا من مؤلفات في هذا النوع من التفاسير يعدّ أعظم حجّة على كذب و افتراء المستشرقين من هذه الكتب تفسير سفيان ابن عيّنة، و تفسير ابن عباس، و وكيع ابن الجراح و غيرهم، و ألف ابن جرير الطبري تفسيره "جامع البيان في تفسير القرآن الكريم"، و هو من أجل التفاسير و يعد أيضا تفسير ابن كثير من أعظم ما ألف في التفسير بالمأثور، و كذا تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد بن عطية و هو من ضمن أهم المصادر التي اعتمدها أبو حيان في تفسيره.

و جل هذه التفاسير اعتمد على منهجية تكاد تكون واحدة نحاول أن نعرض لها في هذه العجالة.

1- تفسير القرآن بالقرآن: و هو أفضل الطرق باتفاق بين العلماء لأنّ القرآن الكريم قد يتعرض لبعض الموضوعات بإطناب و إسهاب في موضع، و يوردها موجزة في مواضيع أخرى، ففي مثل قوله

[1] من مناهج التفسير الشحات السيد زغلول نقلا عن مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر، ص 104.

تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات﴾ البقرة/37. قيل فسرها آية أخرى﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ الأعراف/23.

2- تفسير القرآن بالسنة: و هو العمل بالمأثور عن النبي صلى الله عليه و سلم يقول ابن تيمية: "و مما ينبغي أن يعلم أن القرآن و الحديث إذا عرف تفسيره من جهّة النبي صلى الله عليه و سلم لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة فإنّه قد عرف تفسيره"[1]. قال ابن عباس: سأل رجل رسول الله عليه السلام قال: " أرأيت قوله تعالى ﴿كما أنزلنا على المقتَسمين﴾ الحجر/90، قال: (اليهود و النصارى) قال ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ الحجر/91، ما عضين، قال (آمنوا ببعض و كفروا ببعض)[2].

3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة و التابعين: يقول في هذا ابن كثير "إذا لم نجد التفسير في القرآن و لا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنّهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن و الأحوال التي اختصوا بها، لما لهم من الفهم التام و العمل الصالح"[3].

---

[1] محاضرات في علم التفسير و مناهج المفسرين، د. محمد دراجي، ص104، نقلا عن مجموع الفتاوى لابن تيمية ج13، ص27.

[2] كتاب الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب التفسير، باب 4 رقم الحديث 4505.

[3] تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القريشي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1969، مقدمة التفسير، ج1، ص09.

4- البحث عن معنى اللفظة لما جاء في شعر العرب و نترهم.

5- الإستعانة بعلوم اللغة إذا دعت الضرورة إلى ذلك، حتى يتبين معنى اللفظ، و هم بذلك يرفضون إبداء الرأي، و يكتفون بما أثر عن السلف، و لكنهم لا يقفون عند العرض لهذه الآراء، و إنّما يتجاوزونها بالمناقشة و ترجيح رأي على آخر.

II - مدرسة التفسير بالرأي

الرأي في اللغة مأخوذ من الرؤية، و هي إدراك المرئي، و ذلك على أضرب منها الإدراك ينظر العين و ما يجري مجراها من الحواس و هو الإدراك الحسيّ، و الإدراك بطريقة التوهم و التخيل و هو الإدراك الحدسي، و الإدراك بالقلب و العقل[1] و منه قوله تعالى ﴿**ما كَذَبَ الفؤاد ما رأى و لقد رآه نَزْلَة أخرى عند سدرةِ المنتهى**﴾ النجم/14.

و هو ما يطلق عليه التفسير العقلي، حيث يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص و استنباطه للرأي المجرد القائم على دليل أو مستند إلى برهان، و لذلك توخى أصحاب هذا المنهج الاجتهاد و القياس في كشف معاني الآيات القرآنية مستعينين بعلوم اللغة التي سبقت الإشارة إليها، غير أنّ هذه العلوم كلّها لا تغني المفسر بالرأي عن الرجوع إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم قولاً و عملاً، و عن أقوال الصحابة و التابعين لهم و الموثوق بأقوالهم بسند صحيح عملاً بقوله

[1] لسان العرب مادة رأي، ج14، ص291.

عزوجل ﴿و لا تقف ما ليس لك به علم﴾ الإسراء/36. مع رفض كل موضوع من روايات و قصص إسرائيلي، و بذلك يكون الاجتهاد و القياس متماشيين و المأثور عن السلف الصالح، كعلم أسباب النزول، و القراءات و علم القصص و الناسخ و المنسوخ و الأحاديث المبينة لتفسير المبهم و المجمل فلا مجال فيها لإبداء الرأي، إلاّ فيما كان منها موضوعاً فيجب الإشارة إليه، و في غير ذلك، فالعودة إلى الأصول ضرورة لابد منها، حتى يكون الرأي صائباً سليماً يؤخذ به.

و يحمل ابن القيم تعريفه للتفسير العقلي بقوله "هو ما يراه القلب بعد فكر و تأمل و طلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعَارض فيه الأمارات"[1]. و بقي العلماء من المتأخرين بين الرافضين لهذا النوع من التفاسير و بين المؤيدين له و من الرافضين لهذا ابن جرير الطبري يقول: "و هذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا من أنّ ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلاّ بنص بيان الرسول عليه السلام، أو بنصه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه – و إن أصاب الحق فيه- فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه، لأنّ إصابته ليست إصابة موقن إنّه الحق، و إنّما هي إصابة خارص و ظان، و القائل في دين الله بالظن، قائل على الله ما لا يعلم"[2].

[1] محاضرات في علم التفسير و مناهج المفسرين، د. محمد دراجي، ص137، نقلا عن أعلام الموقعين لابن القيم، ج1، ص66

[2] جامع البيان في تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري (ت 310هـ)، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1954، ج1، ص78-79.

و يستدل الطبري و غيره من الرافضين لهذا التفسير بقول رسول الله عليه السلام «**اتقوا الحديث عليّ إلاّ ما علمتم، و من كذب عَلَيَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1] و كذلك قوله «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقط أخطأ**»[2].

و قد نبّه العلماء إلى عدم جواز هذه التفاسير و حثوا المطلع عليها بأن يأخذ منها ما يخدم القرآن الكريم، و الإبتعاد عن تلك الآراء المغرضة التي تغذيها نزعات فكرية و مذاهب عقيمة؛ لم يكن هدفها الوقوف على مواضع الإعجاز القرآني، و تبسيط فهمه للقراء و خاصة من كان جديد العهد بالإسلام، و إنّما هدفها الدعاية لهذا المذهب، و من ذلك ما سبق و أن أشرنا إليه من تأويل الصوفية و الشيعة و المعتزلة لكلام الله.

أ- ***تفسير الشيعة***: الشيعة كما هو معروف عنهم، قوم بالغوا في حبهم لعلي -كرم الله وجهه- و انقسموا إلى فرق تعمل على انتقاء ما يوافق مذهبها من القرآن و السنة، و تعتمد عليه في تفسير القرآن الكريم. و أهم هذه التفاسير مجمع البيان في علوم القرآن للطبرسي[3] و هو كتاب جامع لكل علوم اللغة، فقد اعتمد فيه صاحبه على طريقة محكمة حيث نظر إلى موضع نزول السور، و إلى عدد آياتها

[1] رواه الترميذي و حسنه ابن عباس، سنن الترميذي، كتاب تفسير القرآن، ج1، ص199.

[2] سنن أبو داوود، ج3، ص321، و سنن الترميذي، كتاب التفسير، ج5، ص199.

[3] معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحديث، لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، ج1، ص420.

ثم أخذ الآية و ذكر أسباب نزولها و القراءات ثم انتقل إلى علوم اللغة و أكثر من الجدل محاولا إثبات إمامة علي –كرم الله وجهه–.

و من آرائه ما ورد عنه في تفسير قوله تعالى في سورة النور/35 ﴿**المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب دُري يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقية و لا غربية، يكاد زيتُها يضيء و لو لم تمسسه نارٌ نورٌ على نورٍ يهدي الله لنوره من يشاءُ و يضربُ الله الأمثال للناس، و الله بكل شيء عليم**﴾، يقول: "...عن الرضا أنه قال: (نحن المشكاة فيها، و المصباح محمد صلى الله عليه و سلم يهدي الله لولايتنا من أحبّ)"[1].

ب– ***تفسير المعتزلة***: لقد بنى المعتزلة تفاسيرهم على الحرية و الإرادة و العدل و التنويه المطلق، فاستعملوا كذلك كل الأساليب، خاصة العلوم اللغوية، و أهم هذه التفاسير (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار و (أمالي الشريف المرتضي) و أهمها و أحسنها (الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري، و لقد عدّ هذا التفسير من أفضل التفاسير اللغوية على الرغم من نزعته الإعتزالية التي غلبت عليه في تأويل آي الذكر الحكيم، و كان فيها الزمخشري متعصباً لمذهبه الإعتزالي، ممّا جعل جل المفسرين يتَخوفون من آرائه: فأبو حيان يعتمد عليه كثيراً في تفسير الآيات

[1] مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي، بيروت، منشورات دار الحياة، ج7، ص142-143-144.

القرآنيـــة، لكنه يتوقف كثيراً عند آرائـــه ليردهـــا بسخرية، و في موضـــع آخر تراه يشيـــد بقيمـــة تفسيـــر الزمخـــشري العلميـــة[1]. فالمتصـــفح لهذا الكتاب يشهد اهتـــمام الزمخشـــري البالـــغ بعلوم اللغـــة، خاصة البيـــان و البديع. و قد بـــرع في استخراج مواضع الإعجـــاز القرآنـــي بمعرفة حسن نظمـــه، و جمـــال أسلوبه، دون حـــشو أو تطويل، مبتعـــداً عن الروايات الموضوعة و الإسرائيليات و تراه يدعـــو إلى ذلك في مقدمة كتابه مؤكـــداً على ضرورة الإحاطـــة بعلمـــي المعاني و البيـــان، ليتمكن أي مفسّـــر من فهم الآيات القرآنية[2] أما أسلوبه فقد كـــان آخـــاذاً للعقول لما تحـــويه طيـــات هذا الكتاب باستعـــمال طريقة السؤال و الجواب و من آرائه أنه فسّر قوله تعالى ﴿**الرحـــمن على العـــرش استوى**﴾ طه/06، يقول: "لما كان الاستواء على العرش و هو سريـــر الملك يرادف الملـــك، جعلوه كناية عن الملك فقـــالوا: استوى فـــلان على العـــرش يريدون الملـــك، و إن لم يقعـــد على الســـرير البتة، و قـــالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى، و مساواتـــه ملك في مـــؤداه و إن كان أشرح و أبســـط و أدل على صورة الملك"[3].

كمـــا فسّر قوله تعـــالى ﴿**كل شيء هالك إلاّ وجـــهه**﴾ القصص/88، يقول: "إلاّ إيّـــاه و الوجه يعبّـــر به عـــن الذات"[4]، و نكتفـــي بهـــذا القدر من الأمثلـــة لأننا سنقـــف مطوّلاً عنـــد آراء الزمخـــشري اللغوية،

---

[1] البحر المحـيط، ج1، ص 13، ج7، ص85.

[2] الكشـــاف عن حقائـــق التنزيل و عيـــون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله الزمخـــشري، دار الفكـــر، ط1، 1982، ج1، ص 15-16.

[3] الكشـــاف للزمخـــشري، ج2، ص52.

[4] المصـــدر نفســـه.

و تأويلاته الاعـــتزالية المبثوتة في البحر المحيط، و كذلك بعض آراء الصوفية؛ إمّا لِيبـــيّن أبو حيان فساد ما ذهبوا إليه، أو ليثبـــت صحة آرائهم إن كانت لا تخـــالف ظاهر الآيـــة.

و يستدل الموجـــزون للتفسير العقـــلي بكـــلام الله الذي يأمـــرنا بتدّبـــر القرآن بقوله تعـــالى ﴿**أفـــلا يتدبـــرون القـــرآن أم عـــلى قـــلوب أقفـــالها**﴾ محمد/24، و قوله ﴿**كـــتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبـــروا آياته و ليتـــذكر أولوا الألبـــاب**﴾ ص/29. و استـــدلوا أيضاً بدعـــاء النبي عليه السلام لابن عـــباس بقـــوله «اللهـــم فقهـــه في الدّيـــن و عـــلّمه التـــأويل»، و قـــالوا لو كـــان التأويـــل مقـــصـــوراً على السمـــاع و النقل لما كان هناك أدنى فـــائدة لتخصيص ابن عـــباس وحده بهذا الدعـــاء. و مما ألف في التفسير العـــقلي أو بالتحـــديد التفسير اللغوي. كتاب البحر المحـــيط الذي بين أيدينا لصاحبه أبي حيـــان النحـــوي الذي سنتحدث عـــن حيـــاته قبل التعـــرض لمنهجـــه في تفسير القرآن الكريم.

حـــيـــــاة أبي حيـــان النحـــوي:

ولد أثيـــر الدين أبو حيـــان في العشر الأخير من شوال سنة 604هـــ/1256م بغـــرناطة[1]، نشأ و درس بها حيث توفـــرت له البيئـــة العلمية التي ســـاعدته لنضوج فكره و شموخ عقـــله، فبعد أن شبّ و ترعـــرع يرى من حـــوله نهـــضة علمية نشيطـــة، فـــأهل العلم يعـــقدون الحلقـــات في أماكن

[1] بغية الوعـــاة في طبقـــة اللغـــويين و النحـــاة، ص121، لجـــلال الدين السيـــوطي، ط1، مطبعـــة السعادة مصر 1225هـــ، أبو حيـــان النحوي، لخديجـــة الحديثـــي، مكتبة النهضـــة، بغـــداد، ط1/1966م، ص31-41.

مختلفة، و تشمل تلك الحلقات ألوانا شتّى في مجال المعرفة كالفقه و الحديث و التفسير و الأصول و اللغة و الأدب و غير ذلك من العلوم، فقرأ القرآن على الخطيب عبد الحق بن علي، ثم على الخطيب أبي جعفر بن الطباع، ثم على الحافظ أبي علي بن أبي الأحوص بمالقة، و على السيد بن عبد الله بن محمد بن خلف.

ترك أبو حيان الأندلس و هو في الرابعة و العشرين من عمره أي في 677هـ طلباً للعلم، ثم رحل إلى شمال إفريقيا فتلقى العلم بسبتة و بجاية و تونس و أدرك فيها علماء كثر أمثال عبد الله محمد بن عباس القرطبي، و أبي عبد الله محمد بن صالح الكناني. ثم رحل إلى الإسكندرية و القاهرة و الحجاز و العراق و الشام، و اختار في الأخير مصراً ليلقي فيها عصا الترحال، و هناك تقلد عدّة مناصب منها مدرساً للنحو في جامع الحاكم سنة 704 هـ و مدرساً للتفسير بالقبة المنصورية في عهد السلطان محمد بن قلاوون حوالي سنة 710هـ[1].

و قد قال عنه القدماء "بأنّه ثبت فيما ينقله، محرر لما يقوله عارف باللغة، ضابط لألفاظها و أمّا النحو فهو إمام الناس كلهم فيه لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته، و له اليد الطولى في التفسير و الحديث، و الشروط و الفروع، و تراجم الناس و طبقاتهم و حوادثهم خصوصاً المغاربة، و تقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة و ترقيق

[1] بغية الوعاة في طبقة اللغويين و النحاة، ص121، لجلال الدين السيوطي، أبو حيان النحوي، لخديجة الحديثي، ص31-41، مقدمة البحر ج1، ص109.

و تفخيم، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج و أسماؤهم قريبة من لغاتهم و ألقابهم"[1].

عقيدته

عرفت غرناطة في الفترة التي عاش فيها أبو حيان تطوراً كبيراً في شتى العلوم و الفنون على الرغم من الحروب التي كانت تهدد استقرار و وحدة بلاد الأندلس، و كان أمراؤها يشجعون أهل العلم، ويحاربون المشتغلين بالفلسفة و المنطق و علم الكلام و التنجيم، بل و يتهمونهم بالزندقة و الكفر، لذلك كانت وجهة أبي حيان العلمية اشتغاله بالحديث و اتباعه منهج القرآن حتى قيل عنه أنه كان صدوقاً حجة ثبتا سالماً في العقيدة من البدع الفلسفية و الاعتزال و التجسيم[2].

و قد دفعه تأثره بعلماء الأندلس إلى اعتناق مذهب المالكية الذي كان منتشراً بالأندلس ثم تمذهب بالظاهر و لكنه بعد رحيله و استقراره بمصر، هجر المذهب الظاهري و اعتنق المذهب الشافعي[3].

و فضّل آراءه و آراء تلامذته في تفسير القرآن الكريم، و هو يذكر ذلك كثيراً في كتابه البحر المحيط[1]، و مع ذلك فهو لا يلجأ إلى

---

[1] أبو حيان الأندلسي، موقفه من القراءات القرآنية و منهجه في تخريجها و توظيفها من خلال تفسيره البحر المحيط،، أ. ربيعة بقيلاني، ص3، بحث مقدم لنيل ديبلوم دراسات عليا، 1998-1999م، جامعة شعيب الدكالي- كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الجديدة – المغرب – مخطوط.

[2] مقدمة التحقيق، البحر المحيط، ج1، ص54، نقلا عن الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر، ج74/5.

[3] بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة، لجلال الدين السيوطي، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1326، ص121، و أبو حيان النحوي لخديجة الحديثي، ص75.

التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره، يقول: "لأنّا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره و لاسيما إذا لم يقم دليل على خلافه"[2]، فالمذهب الظاهري إذن حاضر في آراء أبي حيان في قوله "محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه"[3].

وجهته النحوية

لم يكن أبو حيان –رحمه الله– خاطب ليل بل كان كغيره من المفسرين يجتهد في استنباط الأحكام و الكشف عن معاني ألفاظ القرآن الكريم مسخراً لذلك علوم اللغة من دراسات صوتية و صرفية و نحوية و بلاغية، و إن كان الجانب الغالب في تفسيره لآي الذكر الحكيم هو الجانب التركيبي، فأبو حيان نحوي قبل أن يكون فقيهاً، عالماً بعلوم الشريعة، مفسّراً لكتاب الله، و الأمر ذاته نجده عند جلّ المفسرين اللغويين أمثال الزمخشري الذي يعدّ تفسيره مصدراً في علمي البديع و البيان.

و لكن، من خلال تصفحنا لآراء أبي حيان النحوية وجدناه بصريا و ليس ببصري، كوفيا و ليس بكوفي، وبغداديا و ليس ببغدادي، و ظاهريا و ليس بظاهري، لكن الواضح أنه متأثر بكل هذه المذاهب، و إن كان المذهب البصري الغالب على آرائه، و الدليل

---

[1] البحر المحيط، ج2، ص150-155.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص308.

[3] بغية الوعاة، ص121.

إشادتـــه بكتاب سيبـــويه في مقـــدمة كتابه يقول: "فجدير لمن تـــاقت نفســـه إلى عـــلم التفسيـــر، و ترقـــت إلى التحقـــيق فيه و التحـــرير أن يعـــتكف على كتـــاب سيبـــويه، فهو في هذا الفـــن المعـــول عـــليه و المستند في حـــل المشكـــلات إليه"[1].

و هو في عـــرضه، هذا لم يكن مجرد جـــامع ناقل بل أخـــذ كلا بدلائلـــه فينظـــر فيهـــا بعـــين البصير المتـــأمل حتـــى قال قولتـــه المشهـــورة: "و لسنا متعـــبدين بقـــول نحـــاة البصـــرة و لا غـــيرهم ممن خـــالفهم، فكم من حكم ثبت بنقل الكوفييـــن من كلام العرب لم ينقلـــه البصريـــون، و كم من حكم ثبت بنقل البصرييـــن لم ينقلـــه الكوفييـــن، إنّما يعرف ذلك من له استبحـــار في عـــلم العربية"[2]. يعـــود بنا هـــذا إلى ما قلنـــاه سلفـــاً من أنّ أبا حـــيان كان وسطـــا في أخـــذه بآراء من سبقـــه من النحـــاة و غيرهم.

مصـــنـــفـــاتـــــه

تذكر كـــتب التـــراجم أن لأبي حـــيان ما يزيـــد عن خمسيـــن مصنـــفاً في مختـــلف عـــلوم اللغة عدّ جلهـــا في إجازتـــه للصفـــدي سنة 728هـــ و قد ذكرت في مقـــدمة تحقـــيق الكتاب.

[1] البحر المحـــيط، ج1، ص3.

[2] مقـــدمة تحقيق البحر المحيط، ج1، ص62.

مؤلفاته في التفسير[1]

* البحر المحيط: و يسميه أبو حيان الكتاب الكبير لما حواه من آراء فقهية و نحوية و لغوية و تاريخية، و يقع هذا الكتاب في ثمان مجلدات كبار طبع بمصر سنة 1328هـ بمطبعة السعادة على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ بن السلطان سيدي محمد. و طبع بهامشه تفسيران جليلان أحدهما: النهر الماد لأبي حيان لخص فيه البحر المحيط، و ثانيهما كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ أبي حيان الإمام ابن مكتوم النحوي، و قد قام بتحقيقه كل من الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض بمشاركة الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي و الدكتور أحمد النجولي الجمل و الطبعة في تسع مجلدات حققت سنة 2001م/1422هـ.

مؤلفاته في القراءات[2]

- عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي.
- الحلل الجالية في أسانيد القراءات العالية.
- المورد بالغمر في قراءة أبي عمرو.
- تقريب النائي في قراءة الكسائي.
- المزن الهام في قراءة ابن عامر.
- الأثير في قراءة ابن كثير.
- النافع في قراءة نافع.

[1] المرجع نفسه، ج1، ص40.

[2] مقدمة تحقيق البحر المحيط، ج1، ص40.

- الرمـــزة في قـــراءة حمـــزة.
- الروض البـــاسم في قـــراءة عـــاصم.
- غـــاية المطلـــوب في قـــراءة يعقـــوب.
- قصيـــدة النيـــر الجـــلي في قـــراءة زيـــد بن عـــلي.

مـــؤلـــفـــــاتـــــه في الـــفـــقـــه[1]

- الو هاج في اخـــتصار المنهـــاج.
- الأنـــور الأجـــلى في اخـــتصار المحـــلى.

مـــؤلـــفـــــاتـــــه في الـــلـــغـــة[2]

- اتحـــاف الأريـــب بمـــا في القـــرآن من غـــريب.
- الإرتضـــاء في الفـــرق بين الضـــاد و الظـــاء.
- الإدراك للســـان الأتـــراك.
- الأفعـــال في لســـان التـــرك.
- زهـــو الملك في نحـــو التـــرك.
- منطـــق الحـــرس في لســـان الفـــرس.
- جـــلاء الغـــبـــش في لســـان الحـــبش.
- المخـــبور في لســـان اليعـــمور.

[1] المرجـــع نفســـه، ج1، ص41، نقلا عن الـــدرر الكـــامنة لابـــن حجـــر، ج5، ص171.

[2] مقـــدمة تحقيق البحر المحيط، ج1، ص42، نقلا عن الـــدرر الكـــامنة لابـــن حجـــر، ج5، ص171.

مـــؤلـــفـــــاتـــــه في الـــنـــحـــو[1]

- تـــذكـــرة النحـــاة.
- الشـــذا في مســـألة كـــذا.
- الشـــذرة.
- عـــنـــاية الإحســـان في عـــلم اللســـان.
- النكـــت الحســـان في شـــرح غـــاية الإحـــسان.
- القـــول الفصـــل في أحكـــام الفصـــل.
- اللمحـــة البدريـــة في عـــلم العـــربية.
- فضـــل النحـــو.
- إعـــراب القـــرآن.
- الهـــدايـــة في النـــحـــو.
- الأسفـــار الملخـــص في كتـــاب الصفـــار.
- التجـــريد لأحكـــام سيـــبـــويـــه.
- تـــقـــريـــب المـــقـــرب.
- المـــوفـــور في تحـــرير أحكـــام ابـــن عـــصفـــور.
- التـــدريـــب في تمثـــيل المـــقـــرب
- المـــبـــدع.
- التكميـــل شـــرح التسهيـــل.
- التنييـــل و التكـــمـــيـــل شـــرح التسهيـــل.
- التنخـــيل المـــلخـــص من شـــرح التسهيـــل.
- ارتشـــاف الضـــرب من لســـان العـــرب.

[1] المرجـــع نفســـه، ج1، ص43.

- منهـــج الســـالك إلـــى ألقيـــة ابـــن مـــالك.

البـــاب الأول:

منـــهـــج أبـــي حـــيـــان

الفصـــل الأول:

مصـــادر البحـــر المحيـــط

الفصـــل الثـــاني:

رؤى منهجـــيـــة في البحـــر المحيط

امتـــازت مؤلفـــات العـــرب في العقـــود السابقـــة بحســـن ديباجـــة المقـــدمة التي تعـــد مفتاح كل مؤلـــف، و هي العتبـــة التي يمر عبـــرها القـــارئ إلى مجاهـــل الكتـــاب، لهـــدي القارئ نحـــو قراءة حسنـــة[1]. فهي تخـــاطب عقله و قلبه و تفتح أمـــامه أقرب السبل للتقـــرب أكثر من النص بمعـــرفة الخطوات العملية التي اتبعـــها المؤلف في كتـــابه، و أصبح تقليـــدًا عند القـــارئ و الدارس للحقـــول المعرفية في التراث الإســـلامي الاستئنـــاس بمقدمـــات هذه المصنفـــات و كتب التفاسيـــر واحدة منها كونهـــا تلعب دور الوسيط بيـــن كـــلام الله و كيفيـــة التعـــامل مع جزيئـــات الخطاب القرآني.

و هكذا اتخذنـــا من مقـــدمة أبي حيـــان بوابة تطلعنـــا على المنهجية العلميـــة التي اتبعهـــا في مؤلفه، و وقفنـــا عندهـــا وقفة تمحيص لمضامينها و هي كالآتي:

- ❖ سبب تأليـــف الكتـــاب.
- ❖ عرض موجـــز لطريقتـــه في تفسيـــر آي القـــرآن الكريـــم.
- ❖ الإشـــادة بتفسيـــر الزمخشـــري و تفسيـــر ابن عطيـــة.
- ❖ الإشـــارة إلى أكبـــر مصنف في التفسير لجمـــال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمـــان المقدسي المعـــروف بابن النقيب (ت 698هـــ)
- ❖ سنـــده في روايـــة القـــراءات.
- ❖ مـــا ورد من فضـــائل القـــرآن الكريم من أحـــاديث.

[1] مجـــلة الآداب و العلوم و الثقافـــة، المنهـــل، العدد 600، المجلد 68، فبراير–مارس 2006، المتحف الوطني السعودي، المقال د. أحمد منـــادي (المغـــرب)، "منهجية التواصل في مقدمة التفاسير"، ص32.

❖ تعـــريف علم التفسيـــر لغة و اصطـــلاحا و ذكر ما ورد في الترغيـــب في تفسير كتـــاب الله.

❖ ذكـــر مشاهيـــر المفسريـــن من الصحـــابة و التابعـــين.

❖ ابداء رأيـــه في التفاسير السابقـــة كونها لم تتجـــاوز مجرد الشرح اللغـــوي و ايضاح أسبـــاب النزول و النسخ و القصص، فلمّا فسد اللســـان و كثر دخول العجم في الاســـلام احتـــاج من بعدهم إلي بيـــان غرائب التركيب و إبراز النكـــت البيانيـــة حتى يدرك من لم يكـــن في طبعـــه[1].

❖ ذكر مصادر الكتـــاب بدءًا بشيوخـــه ليصل إلى ذكـــر أهـــم الكتب التي اعتمـــد عليها في تفسيره سواءً في القراءات، أم التفسيـــر، أم اللغـــة، أم النحـــو، أم الحديـــث، أم الفقه، و غيرها من العـــلوم التي يحتـــاج إليهـــا المفســـر لتبيـــان معـــاني الألفـــاظ في القـــرآن الكريم.

و لمـــا كانت دراسة الخطـــاب القرآني تتطلب الدقـــة و الإلمـــام بجوانب عـــدة من الدرس اللغـــوي كان لزامـــاً على أبي حيـــان رسم خطّة واضحـــة شاملـــة دقيقـــة، لم يتـــرك من خـــلالها شـــاردة و لا واردة إلاّ وقف عندهـــا واصفاً محـــللاّ مبديـــا، رأيه مورداً لآراء ســـابقيـــه، رادًّا عليهـــا بالقبول أو الرفض، مع تعـــليل ما ذهب إليه و ارتـــآه، و هو يوضح منهجـــه بنفســـه في مقـــدمة كتـــابه بقـــوله: "و تـــرتيبـــي في هذا الكتـــاب أني أبتـــدئ:

أولا: بالكـــلام على مفـــردات الآية التي أفسرهـــا لفظة لفظة فيمـــا يحتـــاج إليه من اللغـــة و الأحكـــام النحويـــة التي لتلك اللفظـــة قبل

[1] البحـــر المحـــيط، ج1 ص09.

التركيب. و إذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع في تفسير الآية.

* ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب و نسخها، و مناسبتها و ارتباطها بما قبلها.

* حاشداً فيها القراءات شاذها و مستعملها.

* ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية.

* ناقلاً أقاويل السلف و الخلف في فهم معانيها.

* متكلماً على جليّها و خفيها، بحيث أنني لا أغادر منها كلمة و إن اشتهرت حتى أتكلم عليها.

* مبديا ما فيها من غوامض الإعراب، و دقائق الآداب من بديع و بيان.

* مجتهداً أنني لا أكرر الكلام في لفظ سبق و لا في جملة تقدم الكلام عليها، و لا في آية فسرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية و إن عرض تكرير فبمزيد فائدة.

* ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة و غيرهم في الأحكام الشرعية ممّا فيه تعليق باللفظ القرآني، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، و كذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقررها و الاستدلال عليها على كتب النحو، و ربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور، ما قال معظم الناس، بادئا بمقتضى الدليل و ما دلّ عليه ظاهر اللفظ مرجحاً لذلك ما لم يصدر عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه.

* منكباً في الإعـــراب عن الوجـــوه التي تنـــزه القـــرآن عنها، مبينـــا أنّها مما يجـــب أن يعـــدل عنه، و أنّه ينبغـــي أو يحمل على أحسن إعـــراب و أحسن تركيب إذ كلام الله تعـــالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحـــاة في شعر الشماخ و الطرماح و غيرهما من سلوك التقادير البعيدة و التراكيـــب القلقة و المجـــازات المعقـــدة.

* ثم أختـــتم الكـــلام في جملة من الآيـــات التي فسرتها إفـــراداً و تركيباً بما ذكروا فيهـــا من علم البيـــان و البديع ملخصاً. ثم أتبـــع آخـــر الآيات بكـــلام منثور أشرح به مضمون تلـــك الآيـــات على ما اختـــاره من تلك المعـــاني ملخصاً جملهـــا في أحســـن تلخيص و قد ينجـــز معها ذكر معـــانٍ لم تتقـــدم في التفسيـــر. و صار ذلك نموذجـــاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من ســـائر القرآن..."[1].

و حتى يتسنـــى لأبي حيـــان أن يحيط بكل هذه الجوانب اللغوية و النحوية و الفقهيـــة، و التاريخيـــة في تحليل اللفظ القرآني. اعـــتمد على كتب عـــديدة سنتطرق لها في الفصل الأول من هـــذا البـــاب.

[1] البحر المحيط، ج1 ص 13-14.

الفصل الأول:

مصادر البحر المحيط

حمل أبو حيان البحر المحيط كنوزا معرفية كبيرة و ثروة لغوية يستحيل لمن تجشم مشقة كشف معاني الآيات القرآنية ألا يستفيد من المادة الغزيرة التي حوتها طيات هذا الكتاب، و التي جمعت مختلف العلوم من لغة و نحو و صرف و قراءات و فقه و تفسير و تاريخ، و حديث و غيرها من العلوم. مما جعل هذا التفسير مصدراً أساسيا لكثير من المهتمين بالدراسات الدينية و العقائدية و اللغوية و التاريخية.

و المؤكد أنّ لثقافة أبي حيان المتنوعة و علمه الواسع و عمق تفكيره دوراً كبيراً في جعل هذا الكتاب يحتل هذه المكانة؛ خاصة و أن البحر المحيط دون باقي مؤلفاته يضم عصارة جهد عدة سنوات من التمدرس و التدريس و الاجتهاد و التأليف في العلوم اللغوية المختلفة، يقول الصفدي: "كان أبو حيان أمير المؤمنين في النحو، فلو عاصر أئمة البصرة أبصرهم، أو أهل الكوفة لكفّ عنهم أتباعهم السواد و حذرهم"[1]، و يقول عنه أيضا: "و لم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه لأنّي لم أره إلاّ يسمع أو يشتغل أو يكتب، و لم أره على غير ذلك، و له إقبال على الطلبة الأذكياء و عنده تغطية لهم... و أمّا النحو و التصريف فهو إمام الدنيا فيهما لم يذكر معه من أقطار الأرض غيره في العربية، و له اليد الطولى في التفسير و الحديث و الشروط و الفروع و تراجم الناس و طبقاتهم..."[2].

و الذي أثرى هذه الثقافة الواسعة اطلاع أبي حيان على لغات أجنبية كالحبشية و الفارسية و التركية إلى جانب اطلاعه على بعض

[1] بغية الوعاة للسيوطي، ج3، ص 290-291.
[2] المصدر نفسه، ج1، ص281.

الكتب السماوية كالتوراة[1] و الإنجيل و على بعض الآراء الصوفية[2] و الاعتـــزالية و الإمامية و حتى الاسرائليـــات، و لم يذكرهـــا إلاّ لبيـــان فسادها أو لشـــرح و توضيـــح غموض ما لم تخـــالف هذه الآراء سيـــاق الآيـــة.

و لعل الفضل في تكوينـــه العلمـــي يعود إلى شيـــوخه الذين بلغ عـــددهم نحو الأربعمـــائة و خمسيـــن شيخا و أكثر من ألـــف مجيز ذكرهـــم للصفـــدي في رده على كتابـــه يقول: "و قـــد أجـــزت لك – أيّـــدك الله- جميـــع ما رويتـــه عن أشياخي بجزيرة الأنـــدلس و بـــلاد إفـــريقيـــة و ديار مصر و الحجـــاز و غير ذلك بقراءة أو سمـــاع أو منـــاولة و إجـــازة بمشافهـــة و كتـــابة و جميع ما أجيز لي أن أرويـــه بالشـــام و العراق، و غير ذلك، و جميع ما صنفتـــه و اختصرتـــه و أنشـــأته نظماً و نثـــراً و جميع ما ســـألت في هذا الاستـــدعاء..."[3]

نذكر منهم:

1- شيوخ أبي حيـــان الذين روى عنهم بالسماع و القراءة:

القاضي أبو علي الحســـن بن عبد العـــزيز بن أبي الأحـــوص القرشـــي، و المقـــرئ أبو جعفـــر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشيـــر الأنصاري، و اسحاق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك البغـــدادي بن دربـــاس، و أبو بكر بن عبـــاس بن يحي بن غـــريب البغـــدادي القـــواس، وصفي الدين الحسين بن أبي المنصـــور بن ظافر الخزرجي، و أبو الحسين محمـــد بن يحي بن عبد الرحـــمن بن

[1] النهـــر المـــاد، مختصر البحر المحيط، لأبي حيان النحوي على هامش النسخة غير المحققـــة، ج2، ص 502.

[2] البحـــر المحيـــط، ج6، ص 76، مقـــدمة التحـــقيق، ص39.

[3] أبو حيـــان النحـــوي، الدكتورة خديجة الحديثـــي، ص 69-70.

ربيع الأشعري، و وجيه الدين محمد بن عبد الرحـــمن بن أحمد الأزدي بن الدهـــان، و قطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني، و رضي الدين محمد بن عـــلي بن يوسف الأنصاري الشاطبي اللغـــوي، و نجيب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن مؤيد الهمـــداني، و محمد بن مكـــي بن قاسم بن حامد الأصبهـــاني الصفـــار، ومحمد بن عـــمر بن محمد بن عـــلي السعـــدي الضرير بن الفارض، و زين الدين أبو بكر محمد بن اسمـــاعيل بن عبد الله الأنماطي، و محمد بن ابراهيـــم بن تـــرحم بن حـــازم المـــازني، و محمد بن الحسين بن الحسن بن ابراهيـــم الدارمي بن الخـــليلي، و محمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوســـف الأنصاري ابن الخيمـــي، و محمد بن عبد الله بن محمـــد بن عمر العنسي عرف بابن التـــين، و عبد الله بن محمد بن هـــارون بن عبد العزيز الطائي القرطبـــي، وعبد الله بن نصر الله ابن أحمد بن رســـلان بن فتيـــان بن كـــامل الخزمـــي، و عبد الله بن أحمد بن اسمـــاعيل بن ابراهيـــم ابن فـــارس التميمي، و عبد الرحمن بن يوسف بن يـــحي بن يوسف بن خطيب المرة، و عبد العزيـــز ابن عـــبد الرحمن بن عبد العلي المضـــري السكـــري، و عبد العـــزيز بن عبد المنعـــم بن علي بن نصر بن الصيقل الحراني، و عبد العزيز بن عـــبد القادر بن اسماعيل الغيـــالي الصالحي الكتاني، و عبد المعطـــي بن عبد الكريم بن أبي المكـــارم بن المنجا الخزرجي، و علي بن صالح بن أبي عـــلي بن يحي بن اسمـــاعيل الحسينـــي البهنسي المجـــاور، و غـــازي بن أبي الفضـــل بن عبد الوهـــاب الحـــلاوي، و الفضل بن عـــلي بن نصر بن عـــبد الله بن الحسيني بن رواحـــة القشيـــري، و مؤنســـة بنت السلطـــان الملك العـــادل أبي بكـــر بن

أيوب بن شادي، و شامية بنت الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد التيمية، و زينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي"[1]...

2- شيوخه الذين أخذ عنهم النحو:

أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخشني الأبذي، و أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي بن الضائع، و أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي، و أبو جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي، و أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم بن محمد بن نصر الحلبي ابن النحاس.

و ممن لقي من الظاهرية: أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأنصاري الإشبيلي الزاهد، و أبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهري الشنتمري"[2].

أما الذين أخذ عنهم بالسماع يقول: "و جملة الذين سمعت منهم نحو أربعمائة شخص و خمسين، و أمّا الذين أجازوني فعالم كثير جدًّا من أهل غرناطة و مالقة و سبتة و ديار إفريقية و ديار مصر و الحجاز و العراق و الشام"[3].

[1] أبو حيان النحوي للدكتورة خديجة الحديثي، ص 69-70.
[2] المرجع نفسه.
[3] المرجع نفسه.

لم يكـــن أبو حيـــان يكتفي بما أخذه عن شيوخـــه بالروايـــة و السماع و إنمـــا استفـــاد بما ألفّـــه العلماء في التفسير و القراءات و الأحاديث الشريفـــة و النحو و غيرها من العلوم ذكرهـــا في مقدمته و علق على كثير منهـــا. و لقد خصصنا حديثا في هذا الفصـــل عن أهـــم هذه الكتب مركزين على مصـــادره في التفسيـــر.

I- مصـــادره في التفسيـــر:

لم يقتـــصر أبو حيـــان في تعـــريفه لعـــلم التفسير و ذكـــره العلوم التي يحتـــاج إليها المفسر على ما جاء في كتب التفاسيـــر من تعـــاريف لهذا العـــلم، و إنّما تـــوخى الدقـــة و إمعـــان النظر في المسائل التي قد تعتـــرض طريق المفسر لكتـــاب الله، و التي إما أن يفرط فيهـــا، و إمّا أن يتحـــدث فيها بجهالة، و هذا لا يجـــوز لمن يريـــد أن يتحمـــل مشقـــة تفسير الآيات القرآنيـــة، لذلك جعـــل أبو حيان هذا العلم جامعاً و شـــاملاً لمختـــلف العلوم كاللغـــة و النحو و البلاغـــة و القراءات و النقـــد و الفقـــه و التاريـــخ يقول: "و لنـــتبيّـــن أن علم التفسيـــر ليس متوقفا على علـــم النحـــو فقط كما يظنـــه بعض النـــاس بل أكثر أئمـــة العربيـــة هم بمعـــزل عن التصرف في الفصـــاحة و التفـــنن في البلاغـــة، و لذلك قلت تصانيفهـــم في علم التفسيـــر، و قـــلّ أن ترى نحويا بارعـــاً في النظم و النثر، كما قل أن ترى بارعـــاً في الفصاحـــة يتوغل في علم النحـــو، و قد رأينـــا من ينسب للإمـــامة في علم النحـــو، و هو لا يحسن أن ينطق بأبيـــات من أشعـــار العرب فضلاً عن أن يعرف مدلولها، أو يتكلم على ما انطوت عليه من علم البلاغة و البيان فأنّـــى لمثل هذا أن يتعاطى علم التفسير"[1].

[1] البحـــر المحـــيط، ج1، ص 9.

فلكـــل علم –إذن- دور فعّـــال في كشف أسرار اللفظ القـــرآني و لا يجوز لأي مفسر أن يفـــرّط في أي علـــم من تلك العـــلوم التي ذكـــرها أبو حيـــان في مقدمة تفسيـــره، حتى يتسنـــى له أن يقـــوم بواجبه الدينـــي على أكمـــل وجه.

لذلك نجد أبـــا حيـــان دقيقا في تفسيـــره للكلمـــة القرآنية حذراً في إيـــراد آراء سابقيـــه أو معـــاصريـــه، فقد بنـــى رأيه في التفـــاسير السابقـــة على تـــوفر الشروط التي أشـــار إليهـــا و رد على أصحابهـــا في مواضع كثيرة من كتـــابه. و هو الذي يؤكد بأن العلم ليس محددًا بزمـــان و لا بـــمكان و لا يقتصـــر على شخص دون ســـواه يقـــول: "ليس العـــلم على زمـــان مقصوراً و لا في أهـــل زمـــان محصـــوراً، بل جعله الله حيث شـــاء من البلاد و بثّـــه في التهـــائم و النجـــاد و أبرزه أنـــواراً تتـــوسم و أزهـــاراً تتسم"[1].

و لقد كان من أهـــم كتب التفاسيـــر التي اعتمدهـــا في تفسيـــره كتاب التحرير و التحبيـــر لأقوال أئمة التفسير لشيـــخ أبي حيـــان الإمـــام الصالح القـــدوة الأديب جمـــال الدين محمد بن سليمـــان بن الحسن بن الحسيـــن أبي عبد الله البلخـــي الأصل المقـــدسي الحنـــفي المفسر المعـــروف بابن النقيب أحـــد الأئمة العلمـــاء الزهـــاد، كان عالمـــاً زاهـــداً عابـــداً متواضعاً و تفسيره مشهـــور في نحو مـــائة مجلد، مات في محـــرم سنة ثمـــانٍ و تسعين و تسعمائة[2].

[1] البحـــر المحـــيط، ج1، ص 3.

[2] مقـــدمـــة التفسيـــر ص107.

و لقد اعتمد عليه أبو حيان في أكثر نقوله عن كتب أئمة المفسرين يقول: "و اعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب: التحرير و التحبير لأقوال أئمة التفسير من شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين المقدسي عرف بابن النقيب -رحمه الله تعالى-، إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنف في علم التفسير يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد إلاّ أنّه كثير التكرير قليل التحرير، مفرط الإسهاب لم يعد جامعه من نسخ كتب في كتابه، كذلك كان فيه بحال التهذيب و مراد الترتيب. و هذا الكتاب روايتي بالإجازة من جامعه رحمه الله تعالى. و قد شاهدناه غير مرّة حين جمعه يقول للناسخ اقرأ عليّ فيقرأ عليه فيقول اكتب من كذا إلى كذا، و ينقل ما في كتب التفسير التي اعتمدها و يعزو في أكثر المواضع ما ينقل منها إلى مصنف ذلك الكتاب، و كان فيه فضيلة أدب و له نثر و نظم متوسط رحمه الله تعالى و رضى عنه"[1].

و يعد أبو حيان تفسير الكشاف للزمخشري و تفسير ابن عطية الأندلسي المغربي من أفضل التفاسير و أحسنها، و كان جلّ اعتماده في البحر عليهما يقول: "و لمّا كان كتابهما في التفسير قد أنجدا و أغارا و أشرقا في سماء هذا العلم بدرين، و أنارا و تترلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، و الذهب الإبريز من العين، و يتيمة الدر من اللآلئ، و ليلة القدر من الليالي، فعكف الناس شرقاً و غرباً عليهما، وثنوا أعنّة الاعتناء إليهما، و كان فيهما

[1] البحر المحيط، ج1، ص 11.

على جـــلالتهما مجـــال لانتقـــاذ ذوي التبريز، و مسرح للتخيل فيهما، و التمييز ثنيـــت إليهـــا عنـــان الإنتقـــاذ، و حللـــت مـــا تخـــيّل النـــاس فيهمـــا من الاعتقـــاد أنهمـــا في التفسيـــر الغاية التي لا تـــدرك، و المسلك الـــوعر الذي لا يكاد يسلك، و عرضتهما على محـــل النظر، و أوريـــت فيهمـــا نـــار الفكر، حتى خلصت دسيسهمـــا و برز نفسيهما، و سيـــرى ذلك من هو للنظر أهـــل و اجتـــمع فيـــه إنصاف و عقل"[1] لذلك رأينـــاه مـــرّة يثنـــي عليهمـــا و مرّة يرّد آراءهمـــا و قد لخصنـــا حديثنا في هـــذا المقـــام على التفسيـــرين الجليلين.

تفسيـــر الكشـــاف عن حقـــائق التنزيل و عيـــون الأقاويل في وجـــوه التـــأويل للزمخـــشري:

صاحبـــه هو أبو القـــاسم محمود بن عـــمر الخوارزمـــي، الإمـــام الحنفـــي المعـــتزلي الملقب بجـــار الله، ولد في رجب سنة 467 هـــ (سبع و ستين و أربعـــمائة من الهجـــرة) بزمخشـــر قرية من قـــرى خوارزم، و قـــدم ببغـــداد و لقي الكبـــار و أخـــذ عنهم، دخـــل خراســـان مراراً عـــديدة ، و ما دخـــل بلـــداً إلاّ و اجتمـــع عليه أهلهـــا و تتلمذوا له، و ما نـــاظر أحـــداً إلاّ و سلّم له و اعتـــرف به[2]. أخـــذ الأدب عن أبي الحســـن علي بن المظفـــر النيســـابوري، و أبي مضر الأصبهـــاني، و سمـــع من أبي سعـــد الشفاني و شيخ الإســـلام أبي منصـــور الحـــارثي و جمـــاعة[3].

[1] مقدمـــة تحـــقيق البحر المحيـــط، ج1، ص69.
[2] التفسيـــر و المفـــسرون للذهـــبي، ج2، ص 403.
[3] مقـــدمة تحـــقيق البحـــر المحيط، ج1، ص 75.

كان واسع العلم كثير الفضل، غاية في الذكاء و جودة القريحة متفننا في كل علم معتزليّا قويا في مذهبه، مجاهراً به حنفيا[1]. و لقد ذاع صيته و عظم شأنه، كيف لا و هو صاحب أكبر تفسير للقرآن الكريم. بالإضافة إلى مؤلفات أخرى نذكر منها: "المحاجاة في المسائل النحوية" و "المفرد و المركب في العربية" و "المفصل في النحو"، و "رؤوس المسائل في الفقه و غيرها".

منهج الزمخشري في التفسير:

لقد سبق و أن أشرنا في بداية بحثنا إلى القيمة العلمية التي احتلها كتاب الكشاف لاهتمامه بعلوم اللغة، خاصة منها البيان و البديع، و لبراعته أيضاً في استنطاق النص القرآني بالتدليل على مواطن الانسجام الحاصل بين جزيئات السياق، مستخرجًا مواضع الإعجاز القرآني، موضحا حسن نظمه و جمال أسلوبه لذلك نراه يدعو إلى الاهتمام بعلمي البيان و البديع يقول: "...فالفقيه و إن برز على الأقران في علم الفتاوى و الأحكام، و المتكلم و إن بَزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، و حافظ القصص و الأخبار و إن كان من ابن القرية أحفظ، و الواعظ و إن كان من الحسن البصري أوعظ، و النحوي و إن كان أنحى من سيبويه و اللغوي و إن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، و لا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلاّ رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن و هما علم المعاني و علم البيان، و تمهل في ارتيادهما آونة و تعب في التنقيب

[1] مقدمة تحقيق البحر المحيط، ج1، ص 75.

عنهما أزمنة و بعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله و حرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين تحقيق و حفظ..."[1].

و على الرغم من أسلوب الإيجاز الطاغي على تفسيره للآيات القرآنية فقد استطاع الزمخشري تعرية اللفظ القرآني بالكشف عن معناه الحقيقي و المجازي، و اتبع لذلك منهجًا اعتمده في كامل القرآن الكريم، يمكننا أن نستخلص أهم أسسه في هذه النقاط التالية[2]:

1- اهتمامه بأسباب النزول.

2- عنايته الكبيرة بالمنقول عن السلف على الرغم من اهتمامه بالعقل في فهم النص، حتى قيل عن كشافه بأنه مزيج بين المنقول و المعقول، و إن لم يدرك المنقول عنده الشأو الذي بلغه عند الطبري و الذي به يصبح التفسير تفسيراً بالرواية[3].

3- توظيفه للمذهب البصري، و استخدام مصطلاحاته في تناوله للنص القرآني.

4- انتفاعه بمعاني القرآن للزجاج البصري، و الفراء الكوفي.

5- موافقته للمذهب الكوفي في بعض المسائل.

6- استشهاده بالحديث النبوي.

7- اعتماده الكلي على علوم اللغة من معجم و نحو و تركيب و بلاغة و دلالة مما يعكس ثقافته اللغوية الواسعة و اجتهاده البلاغي

---

[1] الكشاف، ج1، ص 16.

[2] ينظر المحاكمات بين أبي حيان و ابن عطية الزمخشري ليحي الشاوي (ت 1096هـ) تحقيق أ. عبد القادر مغديز، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة، جامعة وهران 2006م، ص 19-20.

[3] ينظر قضايا اللغة في كتب التفسير للدكتور الهادي الجطلاوي، ص95، ط1، ديسمبر1998، دار محمد علي الحامي/ تونس.

مبتعدا عن الحوشي من الكلام مخرجا النص في أجمل صوره مع دقته و ذكائه في استنباط المعنى، و هذا ما دفع بكثير من العلماء إلى الاهتداء به في تفسير اللفظ القرآني و اعتماده في مؤلفاتهم، و إن كان كثير منهم مع الإشادة بقيمته العلمية يرد نزعته الإعتزالية التي يعرب عنها في مواضع كثيرة من تفسيره، و نراه يمدح كتابه بقوله[1]:

إنّ التفاسير في الدنيا بلا عدد و ليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء و الكشاف كالشافي

و ينقل لنا أبو حيان مقالة ابن بشكوال واصفا الكشاف، مقارنًا إيّاه بتفسير ابن عطية يقول: "... و كتاب ابن عطية أنقل و أجمع و أخلص و كتاب الزمخشري ألخص و أغوص، إلاّ أنّ الزمخشري قائل بالطفرة و مقتصر عن الدؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبى المقاذة فأعجزه اعتياضه، و لم يمكنه لتأنيه اقتناصه فتركه عقلاً لمن يصطاده، و غفلا لمن يرتاده و ربّما ناقض هذا المنزع فثنى العنان إلى الواضح و السهل اللائح، و أجال فيه كلامًا، و رمى نحو غرضه سهامًا، و هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه، و تقحم مرتكبه و تجشم حمل كتاب الله عزوجل عليه، و نسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، و مصفوح عن سقطه في بعض، لإصابته في أكثر تبيانه"[2].

[1] التفسير و المفسرون للذهبي، ج2، ص408، نقلا عن كشف الظنون ج2، ص173
[2] البحر المحيط، ج1، ص10.

و هكذا عُدَّ تفسير الزمخشري من أفضل التفاسير اللغوية و إن كان تعصبه لمذهبه الاعتزالي و حرصه أن يستخلص من الآية القرآنية ما يخدم مذهبه آثار غضب الكثير من علماء التفسير حتى من اعتمد تخريجاته للفظ القرآني يتعقبه في مواضع كثيرة من تفسيره كما فعل أبو حيان. يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى من سورة النمل، الآية 49 ﴿**قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه و أهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله و أنا لصادقون**﴾ في قوله تعالى: ﴿**و أنا لصادقون**﴾: "...فإن قلت: كيف يكونون صادقين و قد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟ قلت: كأنهم اعتقدوا أنّهم إذا بيتوا صالحاً و بيتوا أهله فجمعوا بين البياتين جميعاً لا أحدهما. و في هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع و نواهيه و لا يخطر ببالهم، ألا ترى أنّهم قصدوا قتل نبي الله و لم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى نسَّوا للصدق في خيرهم حيلة ينقصون بها عن الكذب"[1]. و بعد أن يرد عليه أبو حيان يصفه بقوله: "و هذا الرجل و إن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ، و جمع بين اختراع المعنى و براعة اللفظ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة، و كنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، و استطردت إلى مدح كتاب الزمخشري، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب

[1] الكشاف، ج3، ص152-153.

تجنبه، و رأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا، و يتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

و لكنه فيه مجال لناقد ... و زلات سوء قد أخذن المخانقا
فيُثْبِتُ موضوع الأحاديث جاهلا ... و يعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً
و يشتُم أعلامه الأئمة ضلة ... و لا سيما إن أولجوه المضَايقا
و يسهب في المعنى الوجيز دلالة ... بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقوِّل فيها الله ما ليس قائلا ... و كان محبًّا في الخطابة وامقاً
و يخطئ في تركيبه لكلامه ... فليس لما قد ركبوه موافقاً
و ينسب إبداء المعاني لنفسه ... ليوهم أغماراً و إن كان سارقاً
و يخطئ في فهم القرآن لأنّه ... يجوز إعراباً أبى أن يطابقا
و كم بين من يؤتى البيان سليقة ... و آخر عاناه فما هو لاحقاً
و يحتال للألفاظ حتى يديرها ... لمذهب سوء فيه أصبح مارقاً
فيا خسره شيخ تخرَّق صيته ... مغارب تخريق الصبا و مشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يرى للكافرين مرافقا"[1]

لكن أبا حيّان في هذه الأبيات كان قاسياً على الزمخشري و قد اعترف له الكثيرون بمكانته العلمية و ثقافته الواسعة.

[1] البحر المحيط، ج7، ص85.

تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية

هو عبد الحق غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرؤوف تمام بن عطية بن خالد ابن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكرم المحاربي يكنى أبو محمد من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس بن عيلان من مضر[1].

و قد ذكر أبو حيان نسبه بقوله: "هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي الحافظ القاضي[2]"

و لقد اختلف في نسبه غير أننا نرجح ما جاء في مقدمة التفسير نقلاً عن النسخة الخطية من تفسير ابن عطية موجودة في دار الكتب و الوثائق القومية بالقاهرة، و جاء في صفحتها الأولى: "و قال الشيخ الفقيه، الإمام الأجل، الحافظ الأكمل، القاضي الأعدل، أبو محمد عبد الحق بن الفقيه الحافظ أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن خالد بن عطية –و هو الداخل إلى الأندلس- ابن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكرم المحاربي من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس عيلان، من أهل غرناطة[3]"

[1] التفسير و المفسرون للذهبي، ج2، ص.230

[2] البحر المحيط، ج1، ص9.

[3] مقدمة تحقيق المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق عبد الله ابراهيم الأنصاري و السيد عبد العال السيد ابراهيم – دار الفكر العربي، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة 2، ج1، ص04.

والده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب بن عطية، فقيه و محدث وزاهد أخذ عن أعلام الأندلس و المشرق، و قد كان سبباً في نبوغ ولده. و تنشئته في بيت علم و فضل، فكان الابن نسخة من أبيه في طلب العلم و التفقه في الدين[1].

و يقول عنه الذهبي أنّه كان غاية في الدهاء و الذكاء و حسن الفهم و جلالة التصرف، شغوفاً باقتناء الكتب، و كان على مبلغ عظيم من العلم، فكان فقيهاً جليلاً عارفاً بالأحكام و الحديث و التفسير، نحوياً لغوياً، أديباً شاعراً مفيداً ضابطاً سنياً فاضلاً[2].

و يمدحه أبو حيان بقوله أنه: "أجل من صنَّف في علم التفسير و أفضل من تعرض فيه بالتنقيح و التحرير"[3].

و من تصانيفه كتاب التفسير المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، و هو كتاب في غاية الأهمية العلمية، صنَّف من بين كتب التفاسير بالمأثور لاعتماده على المنقول أكثر من اعتماده على المعقول، و إن كان توظيفه لعلوم اللغة خاصة النحو يجعله من بين أهم كتب التفسير بالرأي. يقول ابن خلدون في مقدمته: "لّما رجع النّاس إلى التحقيق و التمحيص و جاء أبو محمد عبد الحق بن

[1] مقدمة تحقيق المحرر الوجيز، ج1، ص4، ينظر التفسير و المفسرون، ج2، ص231.
[2] التفسير و المفسرون، ج2، ص231.
[3] البحر المحيط، ج1، ص09.

عطية من المتـــأخرين من المغرب فلخّـــص تلك التفاسير كلّها و تحـــرّى ما هو أقرب إلى الصحـــة منهـــا"[1].

و قـــارن أبو حيـــان بينه و بين الزمخـــشري و قد تعرضنـــا إلى مقولتـــه في عرض حديثنـــا عن الزمخـــشري، و قد قـــارن بينهمـــا أيضًـــا ابن تيمية في فتاواه يقول: "و تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري و أصح نقلاً و بحثـــاً، و أبعد عن البدع و إن اشتمل على بعضهـــا، بل هو خير منه بكثير، بل هو أرجح هذه التفاسير"[2].

منهـــج ابـــن عطيـــة في التفسيـــر:

المعـــروف عن ابن عطيـــة أنه كـــان مالكيـــًا غير متعصب لمذهبـــه؛ بل المتصفـــح لتفسيره يلتمـــس فيه دقـــة العلمـــاء في تحري الحقيقـــة، فقـــد كان ينقـــل آراء السابقيـــن و يعتمد على المـــأثور في التفسير، و أول الآثـــار التي ينقلهـــا: الأحـــاديث النبوية الشريفة، ثم أقـــوال الصحابة و التابعـــين، و كبار العلماء المعـــروفين، و كثيرا ما يلجأ إلى ذكر كل القراءات صحيحهـــا و شاذها، و قد أوضـــح ابن عطيـــة ذلك في مقـــدمته: "و قـــصدت إيـــراد جميـــع القـــراءات، مستعملهـــا و شـــاذها، و اعتمـــدت تبييـــن المعـــاني و جميع محتـــملات الألفـــاظ"[3].

[1] ينظـــر مقـــدمـــة ابـــن خـــلدون، الدار التونسية للنشر و التوزيع، تونس، 1984 ص491.
[2] التفسيـــر و المفـــسرون، ج2، ص233، نقلا عن فتـــاوى ابن تيميـــة، ج3، ص194.
[3] المحـــرر الوجـــيـــز، ج1، ص9.

و الملفـــت للنظر تجنبـــه سرد القـــصص التي لا سند لها مبتعـــداً كل البعـــد عن الاسرائليات، و شخصيتـــه واضحـــة في كل تفسيره لأنه في كثير من المواضع يجتهـــد في إبداء رأيه، أو ترجيـــح رأي عن آخـــر، أو التـــوفيق بين الآراء المختلفة، مستعينـــاً في كل ذلك بعـــلوم اللغة خاصة النحـــو، لكنه مع ذلك ابتعـــد عن أسرار البلاغة القرآنية، و لم يكثر من إيراد وجوه الإعـــجاز القـــرآني كما فعل الزمخشري[1].

لذلك يمكننا أن نلخص ردود أبي حيان على ابن عطيـــة في تفسيره للآيات القرآنية إلى نوعين:

1- ردود أبي حيـــان علـــى ابن عطيـــة في المســـائل النحـــويـــة:

يـــرد أبو حيـــان مخـــالفة ابن عطية لمذاهـــب النحاة، من ذلك قوله في تفسيـــر الآية 08 من سورة البقـــرة ﴿**و من الناس من يقول آمنا بالله و اليوم الآخر و ما هم بمؤمنين**﴾

يقـــول ابن عطيـــة: "رجع من لفـــظ الواحـــد إلى لفظ الجـــمع بحســـب لفظ (من) و معنـــاها، و حســـن ذلك، لأن الواحـــد قبل الجمـــع في الرتبـــة، و لا يجـــوز أن يرجع متكـــلم من لفظ جمع إلى توحد، لو قلت (و من الناس من يقومون و يتكلم) لم يجـــز"[2]. يقـــول أبو حيـــان: "...و مـــا ذكـــر من أنّـــه لا يرجع من لفظ جمـــع إلى توحـــد خطـــأ، بل نص النحـــويون على

[1] المحـــرر الوجـــيـــز، ج1، ص10.
[2] المصـــدر نفســـه، ج2، ص 483.

جواز الجملتيـــن لكن البـــدء بالحمـــل على اللفظ ثم على المعنـــى أولـــى من الابتـــداء بالحمـــل على المعنـــى ثم يرجـــع إلى الحمـــل على اللفظ، و مما رجع فيه إلى الإفـــراد بعد الجمع قول الشاعر:

لسْـــتُ مِمَّن يَكِـــعُّ أو يستكينو نَ إذا كافَحَتْـــة خيْـــلُ الأعَادِي*"[1]

2- ردوده علـــيه في القـــراءات:

كانت طريقـــة أبـــي حيـــان مشابهـــة لطريقة ابن عطيـــة في ذكـــر كل القراءات بما فيها الصحيحـــة و الشاذة و مناقشتهـــا و ترجيح الصحيـــح منها، غير أن أبـــا حيـــان لاحظ على ابن عطيـــة رده لبعض القـــراءات الصحيحـــة، و تخريجـــه القراءة تخـــريجا لم يذهب إليه أحـــد من النحـــاة فمثلاً يقول ابن عطيـــة في قوله تعالى الآية الأولى من سورة النساء ﴿**و اتقـــوا الله الذي تســـاءلون به و الأرحـــام**﴾ : "...و قرأ حمزة و جماعة من العلماء (و الأرحامِ) بالخفض عطفـــا على الضمير، و المعنـــى عندهم، إنّمـــا يتساءلون بها كما يقول الرجل: أسألك بالله و بالرحـــم و هكذا فسرهـــا الحسن و ابراهيـــم النخعـــي و مجاهـــد، و هذه القـــراءة عند رؤساء نحـــويي البصرة لا تجوز لأنه لا يجوز عنـــدهم أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض، قال الزجاج عن المـــازني: لأن المعطـــوف و المعطـــوف عليه شريكان يحـــل كل منهما محل صاحبه، فكما لا يجـــوز: مررت بزيـــد وَك، فكذلك لا يجوز مـــررت بك و زيدٍ، أما سيبويه فهي عـــنده قبيحة لا تجوز إلاّ في الشعر"[2].

* البيت من الخفيف لم يعلم قائلـــه: أنظر روح المعاني للعلامة الشيخ أبي الفضل شهاب الدين الألوسي، تحقيق محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج1 ، ص .134

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص183.

[2] المحـــرر الوجـــيـــز، ج2، ص483

يرد عليه أبو حيان في رفضه لقراءة حمزة بعد تخريج قراءة الآية بقوله: "... و أمّا قول ابن عطية: و يرد عندي هذه القراءة من المعنى و وجهان، فجسارة قبيحة منه لا تليق بحاله، و لا بطهارة لسانه، إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم- قرأ بها سلف الأمة، و اتصلت بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من في رسول الله صلى الله عليه و سلم بغير وساطة، عثمان و علي و ابن مسعود و زيد بن ثابت، و أقرأ الصحابة أبيّ بن كعب، عمد إلى ردّها بشيء خطر له في ذهنه، و جسارته هذه لا تليق إلاّ بالمعتزلة كالزمخشري، فإنّه كثيراً ما يطعن في نقل القراء، و قراءاتهم، و حمزة رضي الله عنه أخذ القرآن عن سليمان بن مهران الأعمش، و حمدان بن أعين و محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، و جعفر بن محمد الصادق و لم يقرأ حمزة حرفا من الكتاب إلاّ بأثر"[1].

و سنعود إن شاء الله تعالى إلى آراء أبي حيان في تفسير الزمخشري و تفسير ابن عطية و ردوده الكثيرة عليهما في الفصول المتبقية من هذا البحث.

و ننتقل الآن إلى نوع آخر من المصادر أخذت حيزاً كبيراً من تفسير أبي حيان؛ بل استقطبت اهتمامه هي القراءات، و لعل دقته في مناقشة ابن عطية في آرائه المتعلقة بالقراءات لهو دليل على عنايته الكبيرة لهذا العلم عملاً و تأليفاً.

[1] البحر المحيط، ج3، ص167.

II- مصـــادره في القـــراءات:

اهتم أبو حيـــان اهتمـــاماً بالغـــاً بعلم القـــراءات بترجيحهـــا و نسبتها إلى أصحـــابها، و لم يمتنع من ذكـــر صحيحهـــا و شاذهـــا. و لقد نـــوّه بأهمية القـــراءات القرآنيـــة في بـــداية تفسيره يقـــول: "... اختـــلاف الألفـــاظ بزيـــادة أو نقص أو تغييـــر حركة أو إتيان بلفظ بدل لفـــظ و ذلك بتواتر أو آحـــاد، و يؤخذ هذا الوجـــه من علم القـــراءات، و قد صنف عـــلماؤنا في ذلك كتبـــاً لا تحصـــى، و أحسن الموضوعـــات في القراءات السبع كتـــاب الإقنـــاع لأبي جعفـــر بن البـــاذش و في القراءات العشر كتـــاب المصباح لأبي الكـــرم الشهـــرزوري"[1].

بالإضـــافة إلى عقد اللآلئ و هي قصيـــدة لأبي حيـــان نقل منهـــا أبيـــاتا في البحر. و كتاب المحتسب في تبييـــن وجـــوه شـــواذ القراءات لأبي الفتح عثمـــان بن جنـــي المتـــوفي سنة 392. و هو كتـــاب جليل القـــدر قام فيـــه أبو الفتـــح بتوجيـــه القراءات الشـــاذة، و هي ما عـــدا القراءات السبع، فقد نقل أبو حيـــان في تفسيره عنه الكثير من أقـــواله[2].

بالإضـــافة إلى كتب التفسير و اللغـــة و التي جمعـــت بين القراءة و علوم أخرى. لذلك فمصـــادر أبي حيـــان في القراءات متنوعـــة و في محـــاولتنـــا لتصنيفهـــا و ذكرهـــا اهتدينـــا برسالة الدكتـــورة المغـــربية ربيعـــة بقيـــلاني الموسومة بـــ: أبو حيـــان الأنـــدلسي موقفـــه من القراءات القرآنيـــة و منهجه

[1] البحـــر المحـــيط، ج1، ص07.
[2] مقـــدمـــة التحـــقيق، ج1، ص90.

في تخريجهـــا و توظيفهـــا من خـــلال تفسيره "البحر المحيـــط". و قد استطـــاعت من خـــلالها الباحثة تصنيف كتب القراءات و ذكرهـــا حسب ورودهـــا في البحر وهي[1]:

1- الاقنـــاع في القراءات السبع لأبي جعفـــر أحمد بن عـــلي، ابن البادش الأنصاري الغرناطي (ت540هـــ)⇐ البحر ج19/7، ج433/8، ج360/5

2- الاقنـــاع في القراءات الشـــاذة لأبي الحسن بن عـــلي الأهـــوازي (ت446هـــ) ⇐ البحر ج105/6، ج116/6، ج221/6.

3- "البديع" لأبي عبد الله الحسن بن خـــالوية (ت370هـــ) ⇐ البحر ج46/2.

4- "التذكار في القراءات العشر" لأبي الفتح عبد الواحد بن الحسين، ابن شيطا البغدادي (ت445هـــ) ⇐ البحر ج246/3.

5- "الروضة في القراءات الإحدى عشرة" لأبي على الحسن بن محمد بن ابراهيم البغدادي المالكي (ت438هـــ) ⇐ البحر ج183/4.

6- "السبعة في القراءات" لأبي بكر أحمد، ابن مجاهد التميمي البغدادي (ت324 هـــ) ⇐ البحر ج246/3.

7-"عقد اللآلئ في القراءات السبع العوالي" و هي منظومة من تأليف أبي حيان نفسه⇐ البحر ج109/1

8- "قراءة زيد بن عـــلي" لأبي علي الأهوازي (ت446هـــ) ⇐ البحر ج129/8.

[1] أبو حيـــان الأندلسي، موقفه من القـــراءات القرآنيـــة و منهجه في تخريجهـــا و توظيفهـــا من خـــلال تفسيـــره "البحر المحيط" للأستاذة ربيعة بقيـــلاني، ص131-132-133.

9- "الكامل في القراءات العشر" لأبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي الأندلسي (ت465هـــ)⇐ البحر ج292/7، ج241/6.

10- نقل عن الإمام الداني عثمان بن سعيد (ت444هـــ) دون ذكر أحد مؤلفاته⇐ البحر ج537/1، ج311/4.

بالإضـــافة إلى كتب توجـــيه القـــراءات منهـــا:

1- "الحجة في عال القراءات السبع" لأبي على الفـــارسي (ت377هـــ)⇐ البحر ج293/4، ج122/7

2- "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات" لأبي الفتح ابن جني (ت392هـــ)⇐ البحر ج202/6.

3- "اللوامح في شواذ القراءات" لأبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد ابن الحسن الرازي (454هـــ)⇐ البحر ج279/4.

4- "الهـــداية" لمكي بن أبي طـــالب القيسي (ت437هـــ)⇐ البحر ج91/4.

بالإضـــافة إلى كتب التفسير و إعـــراب القرآن التي كان يستقي منها القـــراءات و توجيههـــا و تخريجهـــا فإمّا أن يثبتهـــا أو يردّهـــا و يناقش أصحابهـــا من المفسرين و معـــربي القرآن و حتى من اللغـــويين من مختلـــف المدارس النحـــوية[1]. و كغيره من المؤلفيـــن في القراءات استعمل أبو حيـــان رموزاً خاصة بالقراء و رواتهم[2]:

[1] أبو حيـــان الأندلسي، موقفه من القـــراءات القرآنيـــة و منهجه في تخريجهـــا و توظيفهـــا من خـــلال تفسيـــره "البحر المحيط" لربيعة بقيـــلاني ، ص134-135.

[2] المرجع نفســـه، ص139-140.

1- مصطلح الحرمّيين: يشير به إلى الإمامين نافع المدني و ابن كثير المكي.
2- مصطلح العربيّين: يشير به إلى الإمامين أبي عمرو البصري و ابن عامر الشامي.
3- مصطلح النحويّين: يشير به إلى الإمامين نافع و ابن عامر الشامي.
4- مصطلح الأخوين: يشير به إلى الإمامين الكسائي و حمزة.
5- مصطلح الصاحبين: يشير به إلى الإمامين نافع و ابن عامر الشامي.
6- مصطلح الأبوين: يشير به إلى القارئ أبي عمرو و الراوي أبي بكر شعبة.
7- مصطلح الإبنين: يشير به إلى الإمامين ابن كثير و ابن عامر.
8- مصطلح الكوفيين: يشير به إلى الأئمة الثلاث الكسائي و حمزة و عاصم.
9- مصطلح الجمهور: يشير به إلى اتفاق مجموعة من القراء السبعة، و غيرهم في قراءة من القراءات، و إن عنى السبعة اكتفى بذكر جمهور السبعة.

و منهج أبي حيان واضح في توجيه القراءات التوجيه الصحيح الذي يخدم المعنى، لذلك كان متشدّداً مع المفسرين و اللغويين في انكارهم قراءة من القراءات المشهورة و المتواترة يقول: "و هذا الترجيح الذي يذكره المفسرون و النحويون بين القراءتين لا ينبغي، لأنّ هذه القراءات كلها صحيحة و مروية ثابتة عن رسول الله عليه السلام، و لكل منها وجه ظاهر حسن في العربية، فلا يمكن فيها ترجيح قراءة على قراءة"[1]. مقتديا بذلك بالإمام ثغلب إمام الكوفيين في النحو و القراءات يقول: "و قد تقدم لنا غير مرة أنّا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين، وحكى أبو عمرو الزاهد في كتاب: "اليواقيت": أن أبا العباس أحمد بن يحي ثعلبا كان لا يرى الترجيح بين

[1] البحر المحيط، ج2، ص265.

القراءات السبع، و قال: قال ثعلب من كلام نفسه" إذا اختلف الاعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على اعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى" و نعم السلف لنا أحمد بن يحي كان عالماً بالنحو و اللغة متدينا ثقة"[1].

ثم إنه لا يفرق بين كوفي و بصري، و لا يفاضل بين قارئ و آخر حتى أنّه كان يدافع على القراء الثلاث المتممين للعشر[2] و مثال ذلك ما جاء من قراءة يزيد بن القعقاع[3] لقوله تعالى من سورة البقرة/ 34 ﴿و إذا قلنا للملائكة اسجدوا﴾ بضم التاء اتباعاً لضمة الجيم بعدها، فخطأه النحاة منهم الزجاج و الفارسي و الزمخشري و ابن جني، فقال أبو حيان مدافعاً: "فلا ينبغي أن يخطأ القارئ بها و لا يغلط و القارئ بها أبو جعفر أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبد الله بن عباس و غيره من الصحابة، و هو شيخ نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة"[4].

غير أننا في بعض المواضع من تفسير البحر المحيط نجد أبا حيان يذكر القراءات دون ترجيح إمّا لعدم وثوقه لصحتها، أو لكونها قراءات غير متواترة مثل ذلك ما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة/ 72

[1] البحر المحيط، ج4، ص87.

[2] اللهجات العربية و القراءات القرآنية – دراسة في البحر المحيط- للدكتور محمد خان، الطبعة الأولى 2002م دار الفجر للنشر و التوزيع، الجزائر، ص50.

[3] هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (ت 130هـ) أحد القراء العشرة و راوياه عيسى بن وردان (ت 160هـ) و سليمان بن جماز (ت 170هـ)، أنظر المرجع السابق، ص49، نقلا عن غاية النهاية، ج2، ص 382.

[4] البحر المحيط، ج1، ص152.

﴿فادّارأتم فيها﴾ قال: "قرأ الجمهور بالإدغام، و قرأ أبو حياة (فتدارأتم) على وزن تفاعلتم و هو الأصل هكذا نقل بعض من جمع في التفسير و قال ابن عطية قرأ أبو حياة و أبو السوار الغنوي (و إذا قتلتم نفساً فادّارأتم) و قرأت فرقة (فتدارأتم) على الأصل انتهى كلامه. و نقل من جمع في التفسير أن أبا السوار قرأ (فدرأتم) بغير ألف قبل الراء"[1].

و كثيرا ما كان يلجأ إلى اللغة لتوجيه قراءة من القراءات كقوله في توجيه قراءة (أني) من قوله تعالى من سورة آل عمران/ 195 ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أنِّي لا أضيع عَمَلَ عَاملٍ منكم﴾ قال: "...و قرأ عيسى بن عمر (إنّي) بكسر الهمزة، فيكون على إضمار القول على قول البصريين، أو على الحكاية بقوله (فاستجاب) لأنّ فيه معنى القول على طريقة الكوفيين"[2].

نستخلص من كل ذلك أن أبا حيان كان حريصاً على نقل القراءات عن أصحابها، إلى درجة أصبح فيها تفسيره جامعاً لحشد كبير من القراء، و باعتماده على علوم اللغة في تفسير آيات الذكر الحكيم كانت عنايته بالمصادر اللغوية لا تقل أهمية عن عنايته بالمصادر الأخرى.

[1] البحر المحيط، ج1، ص424.
[2] المصدر نفسه، ج3، ص150.

III- مصـــادر أبي حيـــان في اللغـــة:

أ- كتـــب النحـــو و الصـــرف:

سبق لنـــا الحديث عن وجهـــة أبي حيـــان النحوية؛ و قلنـــا بأنه كان بصريـــا و كوفيـــا و ظاهريـــا و بغداديـــا، لم يتعصب لأي مدرسة من هذه المدارس، و هكذا كـــانت مصادره في اللغـــة و النحـــو متنـــوعة أهمهـــا على الإطـــلاق كتاب سيبـــويه (الكتـــاب) الذي يعتبـــره أجل كتب النحـــو يقول عنـــه: "...و يـــؤخذ ذلك من علـــم النحو، و أحسن موضـــوع فيه و أجله كتـــاب أبي بشر عمرو بن عثمان ابن قنبـــر سيبـــويه رحمه الله تعـــالى... و قد أخـــذت هذا الفن عن أستاذنـــا الأوحد العـــلامة أبي جعفـــر أحمد بن ابـــراهيم بن الزبيـــر الثقفـــي في كتـــاب سيبـــويه و غيره"[1].

و يلخـــص قيمة كتـــاب سيبويـــه عند كـــلامه على علمـــاء الأندلـــس يقول: "و ممـــا برعـــوا فيه عـــلم الكتـــاب انفـــردوا بأقـــرانه مذ اعصـــار دون غيرهـــم من ذوي الآداب، أثـــاروا كنـــوزه و فكوا رموزه و قرّبوا قـــاصيه و راضوا عاصيه و فتحـــوا مقفـــله و أوضحـــوا مشكـــله و أنهجـــوا شعـــابه و ذلّلوا صعـــابه و أبـــدوا معانيه في صورة التمثيل و أبدعوه بالتركيب و التحليل. فالكتـــاب هو المرقـــاة إلى فهم الكتـــاب إذ هو المضطلـــع على علم الإعـــراب، و المبدي من معالمه ما درس و المنطق من لســـانه ما خرس، و المحـــيي من رفاته ما رمس و الراد من نظـــائره ما طمـــس. فجديـــر لمن تاقـــت نفسه

[1] البحـــر المحـــيط، ج1، ص06.

إلى علم التفسير و ترقت إلى التحقيق فيه و التحرير أن يعتكف على كتاب سيبويه فهو في هذا الفن المعول عليه و المستند في حل المشكلات إليه"[1].

لذلك اعتمد عليه أبو حيان كثيراً و نقل عنه و احتج لرأيه في الغالب، و يعتبر رأيه هو الصحيح من بين المذاهب، كيف لا، و سيبويه إمام النحاة باختلاف مشاربهم و اتجاهاتهم. و إن كان في بعض المواضع يرد آراء البصرة لينتصر لغيرهم إن رأى في ذلك خدمة لآي الذكر الحكيم و من أمثلة المواضع التي ينتصر فيها لرأي سيبويه ما يلي: يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى من سورة الزخرف/05 ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين﴾ : "قال الزمخشري: الفاء للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر؟ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب و خلقه قرآنا عربيا لتعقلوه و تعملوا بموجبه انتهى. و تقدم الكلام معه في تقديره فعلا بين الهمزة و الفاء في ﴿أفلم يسيروا﴾ يوسف/ 109، ﴿أفلا تعقلون﴾ البقرة/44-76 و بينها و بين الواو في نحو ﴿أولم يسيروا﴾ الروم/ 09. كما أن المذهب الصحيح قول سيبويه و النحويين: أن الفاء و الواو منوي بهما التقديم لعطف ما بعدهما على ما قبلهما، و إن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام له صدر الكلام، و لا خلاف بين الهمزة و الحرف"[2].

[1] البحر المحيط، ج1، ص03.

[2] المصدر نفسه، ج8، ص05.

2- ثاني كتاب اعتمده أبو حيان هو كتاب تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد لأبي عبد الله محمد بن مالك الجياني الطائي الشافعي النحوي المولود بجيان سنة 600هـ و المتوفي بدمشق سنة 672هـ، صاحب الألفية، ذاع صيته في المشرق و المغرب و اشتهرت كتبه، و اعتمد على ألفيته طلاب العلم الشغوفون بمعرفة قواعد اللغة العربية، و من فرط اهتمام أبي حيان بهذا الرجل عكف على كتبه يلخصها و يبسطها لطلاب العلم: فشرح الألفية في كتاب سماه "منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك" و شرح "التسهيل" و اعتنى به و ألف عليه ثلاثة كتب هي: "التخييل الملخص من التسهيل" و "التكميل لكتاب التسهيل" و "التذييل و التكميل في شرح التسهيل".

غير أن اهتمامه به لا يضاهي اهتمامه بكتاب سيبويه، فقد وقف إزاء آراء ابن مالك موقف الناقد المتربص رافضاً معظم آرائه مخالفاً له لسببين:

أولهما: يعيب عليه استشهاده بالأحاديث النبوية الشريفة و قد قلنا بأن أبا حيان يرفض الاستشهاد بها لأن أكثرها روى بالمعنى لا باللفظ.

ثانيهما: يطعن أبو حيان في عدم أخذ ابن مالك عن الشيوخ و الأساتذة، و إن كان البعض يرى بأن أبا حيان قد بالغ كثيرا في ذهابه إلى أن ليس لابن مالك شيخ مشهور يعتمد عليه و يرجع في حل المعضلات

إليه[1]، و مع ذلك، يعد أبو حيان كتاب "التسهيل" أحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات و أجمعه للأحكام.

3- ثالث كتاب اهتـــدى به أبو حيـــان في تفسير آي الذكـــر الحكيـــم "الممتـــع" للإمـــام أبي الحسن علي بن مؤمـــن بن عصفـــور الحضرمي، و كان أبو حيـــان مـــلازماً لكتب ابن عصفـــور فقد لخص كتـــاب الممتع في كتاب سمـــاه "المبـــدع الملخص من الممتـــع" بعد أن اختصـــر "شرح الجمل الكبير" له بكتـــاب سماه "الموفور من شرح ابن عصفـــور" و لخص "المقـــرب" بكتـــاب سماه "التقريب" ثم شرحـــه و نبه عليـــه في كتاب "التدريب في تمثيـــل التقريب".

و كثيـــرا ما كان يذكر آراءه و يناقشهـــا خاصة ما تعـــلق منها بالمســـائل الصرفية، و لأنّ ابن عصفـــور كوفي المذهـــب فقد كان أبو حيـــان كثير المعـــارضة له يقول: "و لا يجـــيز الكوفيون الجمع بين الجمليتين إلاّ بفاصـــل بينهمـــا، و لم يعتبـــر البصريون الفاصل، قال ابن عصفـــور و لم يرد السمـــاع إلاّ بالفصل كما ذهـــب الكوفيون إليه، و ليس ما ذكر بصحيح ألا تـــرى قوله تعـــالى من سورة البقـــرة 111 ﴿**و قـــالوا لن يدخـــل الجنّة إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نصـــارى**﴾ فحمـــل على اللفظ في "كان" إذ أفـــرد الضمير، و جاء الخبر على المعنـــى إذ جـــاء جمعـــاً، و لا فصل بين الجملتين، و إنما جـــاء أكثر ذلك بالفصل لما فيه من إزالـــة قلق التنـــافر الذي يكون بين الجملتيـــن"[2] و مع

[1] أبو حـــيان النحـــوي خديجـــة الحديثـــي، مكتبـــة النهضـــة، بغـــداد، الطبعـــة الأولـــى، 1966م، ص327.
[2] البحـــر المحـــيط، ج1، ص55.

ذلك يثني عليه كما أثنى على ابن مالك، و يعد الممتع أحسن ما وضع في التصريف.

4- يعود أبو حيان في أكثر المسائل النحوية إلى كتبه التي ألفها خاصة منها التكميل في شرح التسهيل، و التذكرة و هو كتاب قيم جمع فيه مختلف المسائل النحوية، فنراه كثيراً ما يحيل في قاعدة نحوية أو صرفية إلى إحدى هذه الكتب حتى لا يقع في النكرار و هو يتعرض لتفسير الآيات.

هذه أهم الكتب النحوية التي عاد إليها أبو حيان و إن كان البحر المحيط يحوي في طياته مصادر أخرى في النحو نذكر منها[1].

- كتاب "الحلبيات" لأبي علي الفارسي.
- كتاب "شرح الموجز" للرماني.
- كتاب "شرح الهداية " للمهداوي.
- كتاب "المصادر" لأبي علي الشلوبين.
- كتاب "الإعراب" لأبي الحكم بن عذرة.
- و "البسيط" للإمام العالم ضياء الدين أبي عبد الله محمد بن علي الإشبيلي ابن العلج.
- و "شرح جمل الزجاجي"
- "الايضاح" لأبي علي الفارسي.

[1] أبو حيان النحوي، خديجة الحديثي، ص196.

- "المســـائل" للأخفـــش.
- "المنـــتخـــب" لأبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المـــرسي.

ب- الكتب البلاغيـــة:

لا يقل اهتمـــام أبو حيـــان بعلمي البيـــان و البديع عن اهتمامه بالعـــلوم الأخـــرى يقـــول: "الوجه الثالث: كـــون اللفظ أو التركيب أحســـن و أفصح و يؤخـــذ ذلك من علم البيـــان و البديع"[1].

فكـــان يختـــتـــم الكـــلام في جملـــة من الآيـــات التي فسرهـــا إفـــراداً و تركيبـــاً على ما ذكـــره العلماء فيها من علم البيـــان و البديع، غير أنـــه لا يكثر من ذكـــر المسائل البلاغـــية و لا يركز عليها كما فعـــل الزمخشـــري لأنّـــه يرى أنّ الأفضل هو حمـــل اللفظ على الحقيقـــة و ليس على المجـــاز إن تسنى له ذلك، يقول في تفسيـــر قوله تعـــالى من سورة البقـــرة/189 ﴿**و ليس البرُّ بأن تأتوا البيُوت من ظهورهـــا و لكنّ البرّ من اتقـــى**﴾ "و هذه أسباب[2] تظافـــرت على أن "البيـــوت" أريد بهـــا الحقيقـــة و إن الإتيـــان هو المجـــيء إليها و الحمـــل على الحقيقـــة أولى من ادعـــاء المجـــاز مع مخالفة ما تظافـــر من هذه الأسبـــاب"[3].

[1] البحـــر المحـــيط، ج1، ص06.
[2] يقصـــد بها أسبـــاب نزول الآيـــة.
[3] البحـــر المحـــيط، ج1، ص63.

و أهم المصادر البلاغية التي عاد إليها كتاب شيخـــه "منهج البلغاء و سراج الأدباء" لأبي الحسن حـــازم بن محمد بن حـــازم القرطـــاجي الأندلســـي الأنصاري. و كتاب "نظم القرآن" للجاحظ و كتـــاب الانتصـــار في إعجاز القرآن: لأبي بكـــر محمد بن أبي الطيب الباقـــلاني.

بالإضافـــة إلى كتب لغوية أخرى نقل منها أهمها "المحكـــم" و "المخصص" لابن سيـــده، و كتـــاب "المقصـــور و الممـــدود" لأبي بكـــر بن الســـراج، و كتـــاب "الكـــامل" لأبي القاسم بن جبـــارة الهذلي الأندلسي، و كتاب "نوادر أبي القـــاسم الزجاجي" و النوادر للبحتـــري و "معاني القرآن" للفراء و غيرها...

IV- مصـــادره في الحـــديث:

ذكـــر أبو حيـــان مصادر كثيـــرة جمعت سننـــا و أثـــاراً جمة عـــاد إليهـــا في أكثر نقـــوله أهمها:

1- المسنـــد الصحيح للإمـــام أبي الحسيـــن مسلم بن الحجـــاج النيســـابوري المتوفي سنة 261هـــ.

2- الجامع الصحيح للإمـــام أبي عبد الله محمد بن اسماعـــيل البخـــاري المتوفي سنة 256 هـــ.

3- سنـــن أبو داود للإمـــام أبي داود سليمـــان بن الأشعـــت السجستـــاني المتوفي سنة 275 هـــ.

4- سنـــن النسائي للإمـــام أحمـــد بن شعيب النسائي المتوفي سنـــة 303 هـــ.

5- الجـــامع الصحيح للإمام ابن عيســـى الترميذي المتـــوفي سنـــة 279 هـــ.

6- سنـــن ابن مـــاجة للحـــافظ أبي عبد الله محمد بن يـــزيد القـــزويني المتـــوفي سنـــة 275 هـــ.

7- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن بهـــران الدارمي المتوفي سنـــة 255 هـــ.

8- مسنـــد الطيالســـي للإمـــام سليمـــان بن داود بن جـــارود الفـــارسي المتـــوفي سنة 204 هـــ.

9- سنـــن الدار قطنـــي للإمام علي بن عمر الدار قطني المتوفي سنة 385 هـــ.

10- المعجم الكبير للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفي سنة 360 هـــ

11- المعجـــم الأوسط للطبـــراني.

12- المعجـــم الصغيـــر للطبـــراني أيضـــاً.

V- مصـــادره في الفقـــه:

لقد كان لمصـــادره في الفقـــه –على قلتهـــا- أهمية كبيـــرة، حيث استعان بها في تفسيـــر آيـــات الأحكام مثبتـــا قول الصحابة و التابعين التقـــات، و لكنه لم يقحـــم تفسيـــره بالكثير منهـــا، إن لم يكن لها تعـــلق باللفظ القرآنـــي، يقول في تفسير قوله تعـــالى سورة النساء/ 24 ﴿**و أحـــلَّ لكُـــم ما وَرَاء ذالكُـــم**﴾ "و الظـــاهر العموم إلا ما خصتـــه السنة المستفيضـــة من تحريم الجمع بين المـــرأة و عمتهـــا و بين المـــرأة و خـــالتها"[1].

و قولـــه أيضا في تفسيـــر قوله تعـــالى من سورة البقـــرة/196 ﴿**ففـــديـــةٌ من صيـــامٍ أو صَدَقَـــةٍ أو نُـــسُكٍ**﴾ "... و الظاهر إطـــلاق

[1] البحـــر المحـــيط، ج3، ص221.

الصيـــام و الصدق و النسك، لكن بين تقييـــد ذلك في السنة الثابتـــة في حديث ابن عجـــرة[1] من أن الصيـــام صيام ثلاثـــة أيام و الصدقة إطعـــام ستة مســـاكين، و الشك شـــاة"[2].

و من أهـــم مصادره في الفقـــه:

1- المحـــلى للإمـــام ابن حـــزم الظـــاهري.

2- الأنـــوار الأجـــلى في اختـــصار المحـــلى و هو مختصـــر كتاب المحـــلى لأبي حيـــان، و غيـــرها من المصـــادر.

VI- مصـــادره في أصـــول الفقـــه:

أهـــمهـــا:

1- المحصـــول: لأبي عبد الله بن عـــمر الرازي.

2- الإشـــارة: لأبي الوليـــد البـــاجي.

3- شرح كتـــاب الإشـــارة للشيخ الأستـــاذ أبي جعفـــر بن الزبيـــر.

4- مختـــصر المحصـــول: لابـــن بنت العـــراقي.

5- مختـــصر المحصول: لعـــلاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الباجي

6- القـــواعـــد: لشمس الدين محمود الأصبهـــاني.

[1] هو كعب بن عجـــرة الأنصاري المدني (ت 51هـــ) أنظر أبو حيان الأندلسي موقفه من القراءات القرآنية لربيعة بقيلاني، ص118.

[2] البحـــر المحـــيط، ج2، ص84.

VII- مصادره في التاريخ:

استعان بها في ذكر الروايات التاريخية المتعلقة بالغزوات و بأسباب النزول، مما يستفاد منه في شرح آية أو توضيح معناها و كان أهمها:

1- السيرة: لأبي بكر محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي المتوفي سنة 150هـ.

2- قلائد العقيان و محاسن الأعيان: للوزير أبي نصر الفتح بن خاقان الإشبيلي.

3- الصلة: للحافظ أبو القاسم بن بشكوال.

لقد حاولنا في هذه الإطلالة الإلمام بمختلف المصادر التي اعتمدها أبو حيان ليحيط بمختلف العلوم الشرعية و اللغوية، و هي مصادر مشهود لأصحابها بتفقههم إمّا في العلوم اللغوية أو في علوم الشريعة و الفقه، و هذا يعكس رأينا في أبي حيان في كونه عالماً فقيهاً ملماً بشتى العلوم التي سنحت له أن يؤلف تفسيراً ضخماً بقيمة و مكانة البحر المحيط.

و عليه فالدرس اللغوي عند أبي حيان كان مؤسساً باعتماده على كل تلك المصادر، و مؤسساً بتطبيقه مجموعة من المناهج اللغوية، التي أعانته كثيراً على شرح و تفسير اللفظ القرآني و كذا تأويل الآية فالتفسير عنده سار على منهج واحد تطرقنا له في بداية حديثنا عن

البحر المحيط، و طبقـــه في كـــامل القرآن، إذ لم يتـــرك شـــاردة و لا واردة في كتـــاب الله، إلا وقف عندهـــا يشرحهـــا و يجـــلي غموضهـــا، و يذكر الآراء التي جـــاءت في تفسيرهـــا، يناقشهـــا، يردهـــا أو يقبلهـــا بالتعـــليل اللغوي الذي يتمـــاشى و رســـم القرآن الكريم، و يتمـــاشى و معنـــى الآية الذي يجـــب ألا يختـــلف فيه اثنـــان، لينتهـــي في الأخير إلـــى تأويـــل النص، متبعـــاً الدقـــة ذاتهـــا التي عهـــدناهـــا في تفسيـــره اللفظ في القـــرآن الكريم.

الفصل الثاني:

رؤى منهجية
في تفسير البحر المحيط

اللغة ظاهرة إنسانية و اجتماعية، تتكون من عناصر لغوية، منتظمة خاضعة لقوانين و قواعد محددة و معقدة، و للكشف عن أسرارها كان لابد من الاعتماد على أسس علمية تفضي بنا إلى نتائج علمية ثابتة إلى حد ما، لذلك انعكف العلماء على وصفها و تدارسها. و باختلاف المواضيع التي توظف فيها اللغة، اختلفت الوسائل المستعملة في البحث عن الحقيقة، ثم إن قيمة البحث العلمي مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالأسلوب الذي يتبعه كل إنسان لبلوغ الأهداف المتوخاة من بحثه أو دراسته، و صحة الطريقة المستخدمة في الوصول إلى الحقيقة العلمية هي التي تضفي على الدراسة أو البحث طابع الجدية و اعطاء تفسيرات صادقة و معبرة عن الواقع، و لهذا نجد أن مصير أي موضوع يتوقف على كيفية التطرق إليه و نوعية الأسلوب المستعمل لمعالجته و التعرف على حقيقته[1].

و لما كانت لغة القرآن هي المحور الرئيسي لأي دراسة منصبة على كتاب الله إمّا لاستظهار إعجازه البياني أو إعرابه أو تأويله أو تفسيره، كان لابد لأي مفسر أن يستعين بأدوات إجرائية تمكنه من التأويل المناسب لمعتقداته و الاستدلال عن صحة القراءة استدلالاً يستند فقط إلى لغة القرآن.

و من هنا، يمكننا الحديث عن تفاسير استعانت بعلوم اللغة لتفسير الآيات، و أخرى اعتمدت كلية على علوم اللغة لتفسير

[1] دليل الباحث في المنهجية و كتابة الرسائل الجامعية عمّار بوحوش المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، 1990، ص22.

اللفظ و استنطاق النص. و نحن لا نقصد بذلك كتب معاني القرآن أو كتب إعراب القرآن، و إنّما قصدنا كتب التفسير التي جعلت من علوم اللغة بكل مستوياتها أرضية خصبة تمكننا من استظهار مواطن إعجاز القرآن الكريم، سواء ما تعلق منها بالصوت في توجيه القراءات أم اللفظ أم السياق في انسجامه و اتساقه. يقول الدكتور الهادي الجطلاوي: "... فكانت مناهج التفسير من زاوية نظر لغوية ثلاثة أصناف: ماكان المنهج فيه معْولاً على اللغة تعويلاً كليا و ذلك هو المنهج اللغوي في تفسير القرآن. و ما كان على نقيض ذلك معرضاً عن اللغة إعراضاً تاماً من قبيل التفسير الباطني. و ما كان في مترلة بين المترلتين مستعينا باللغة غير مقتصر عليها و هو نوعان: أن تتقدم اللغة على غيرها، و منه المنهج الاعتزالي، و أن تتأخر الأداة اللغوية على غيرها من الأدوات، و منه التفسير بالمأثور..."[1]. و الذي يهمنا بحق هو المنهج اللغوي في تفسير القرآن.

و لقد أجمعت كثير من الدراسات على أن تفسير أبي حيان يعد الحلقة الأخيرة في سلسلة التفاسير اللغوية؛ باعتباره تفسيراً اهتم بدلالة الخطاب و الاجتهاد في إدراك المقاصد، فهو صاحب مذهب في التفسير يتحمس له، و هو صاحب منهج في معالجة النص يستدعي منه ككل مفسر أن يكون مطلعاً على جملة من العلوم الدينية لايستقيم التفسير بدونها[2].

[1] قضايا اللغة في كتب التفسير، د. الهادي الجطلاوي، ص74.

[2] المرجع نفسه، ص69.

و يعيب عليه بعض الدارسين منهجه الذي يقوم – حسب رأيهم – "بشكل فريد، على العودة إلى المنهج اللغوي و على حشد أقوال أئمة النحو الكبار حشداً زائداً عن الحاجة مبالغاً فيه"[1]. و قد سبق لنا الحديث عن ثقافة أبي حيان كونه رجلاً اجتمعت فيه ثلاث خصال: لغوي مفسر و مجتهد ألّم بعلوم شتى لغوية منها و دينية، و إن كانت المادة النحوية غزيرة في تحليله للتراكيب القرآنية. هذه الصفات كلها سنحت له اتباع خطة معينة في تفسيره ذكرناها في بداية بحثنا.

و المطلع على كتابه يستنتج مجموعة من المناهج اللغوية استفاد منها أبو حيان في تطبيق خطة بحثه، و يمكننا أن نستشفها من خلال طريقة تناوله للفظ القرآني.

غير أننا و قبل أن نتوقف عند مختلف تلك المناهج في تفسيره ارتأينا أولاً أن نسلط الضوء على بعض المفاهيم المتعلقة بمصطلح "منهج" كتقنية يسعى إليها الباحث أو الباحثة لمدّة بالكيفية المناسبة التي يستطيع أن يتناول من خلالها موضوع بحثه.

[1] قضايا اللغة في كتب التفسير، د. الهادي الخطلاوي، ص09.

تعريف المنهج:

النهج في العربية الطريق و نهج الطريق سلكه و سار فيه، و لفظ منهجية (Methodologie) هي في الأصل لفظة لاتينية مؤلفة من كلمتين (Methode) معناها الطريقة و (Logie) بمعنى العلم و هي بذلك الطريقة العلمية الدقيقة المتبناة من أجل الوصول إلى نتائج مرجوة.

و عليه فإن مصطلح "منهج" يعني مجموعة من القواعد العامة التي يتم وضعها بقصد الوصول إلى الحقيقة في العلم. و يعرفه عبد الرحمن بدوي بأنّه: "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، و إمّا من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين"[1].

و قد نحكم على جهود أي باحث كان بالسطحية و غياب الجدية ما لن تخضع دراسته لمنهج قويم يتم توضيحه في بداية العمل، فالطريقة المعتمدة، إذن، في البحث العلمي هي التي تعكس قيمته و تحقق مسعى الباحث و أهدافه.

لذلك حرس علماؤنا، منذ بداية البحث و التأليف في العلوم المختلفة، على أن تكون مقدمات بحوثهم مدخلاً يعرض فيه الباحث خطوات بحثه مرحلة بمرحلة، مع ذكر الأدوات الإجرائية التي ستمكنه من تحقيق تلك المراحل تحقيقا فعليا يفضي بهم، كما سبق و أن

[1] دليل الباحث في المنهجية و كتابة الرسائل الجامعية، ص20، نقلا عن عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي.

أشرنا، إلى نتائج ملموسة. و خير مثال على ذلك مقدمات التفاسير التي تعد فضاءاً يرسم فيه المفسر مجمل المكونات المعرفية المنهجية التي اتبعها في بناء تفسيره للقرآن الكريم.

و عليه، فإن خطبة الكتاب في عرف القدماء هي وقفة لتوجيه القارئ في استظهار خصائص المنهج أو رسم معالم الكتاب[1]. باعتبار أن المنهج "هو خطة منطقية لعدّة عمليات ذهنية و حسية، بغية الوصول إلى الكشف عن حقيقة أو البرهنة عليها، أو هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل و تحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة. ذلك أن المنهج يساعدنا على كشف الحقائق الكونية و ربط ظواهرها بعضها البعض إلى القانون العلمي الذي ينقلنا إلى المعرفة اليقينية"[2].

و كان ذلك بالتحديد شأن مقدمة تفسير البحر المحيط التي عرض فيها أبو حيان خطته مفصلة في تفسير الآيات القرآنية بدءاً بأسباب النزول ثم تفسير اللفظ من الناحية المعجمية، الصوتية، إذا تعلق الأمر بتوجيه قراءة من القراءات، ثم يتحدث عن بنية اللفظة بما له علاقة بالتركيب و ينتهي إلى الوظيفة و الحديث عن السياق مؤولاً الآية، إن كان معناها يستوجب منه التأويل و توظيف الوسائل البلاغية.

[1] مجلة المنهل "منهجية التواصل في مقدمات التفاسير" د. أحمد المنادي، المغرب، ص32، العدد 600، 2006 م.

[2] لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق و الانسجام، أطروحة دكتوراة دولة، د. خديجة إيكر، مطبوعة، جامعة شعيب الدكالي الجديدة، المغرب، 2006-2007 م، نقلا عن المعجم الفلسفي جمسل صليبا، ج2، ص 20-21، و أصول البحث لعبد الهادي الفضلي، ص50، و أسس المنهج القرآني في البحث عن العلوم الطبيعية لمنتصر محمود مجاهد، ص 55-56.

و حتى تتحقق لأبي حيان هذه الخطوات كان لابد له من الاستعانة بمجموعة من الطرائق هي في الحقيقة مناهج علمية لا تتحقق مصداقية البحث العلمي بدون الاعتماد عليها: أولها و أهمها المنهج الوصفي، فالمنهج الاستقرائي الاستنباطي، ثم يأتي بعد ذلك المنهج التاريخي و المنهج المقارن، و المنهج التحليلي و غيرها.

I- المنهج الوصفي:

عكف العلماء منذ بداية الدرس اللغوي عند الهنود و اليونان و الرومان و العرب على ملاحظة الظواهر اللغوية و استقرائها ليصلوا إلى وصفها وصفاً علمياً دقيقاً، ينتهي بهم إلى الفهم مع إمكانية التحليل، و لا نجد مصنفاً من المصنفات العربية في النحو أو فقه اللغة أو التاريخ أو مختلف العلوم الإنسانية خالية من المنهج الوصفي الذي يقوم على دراسة و تحليل و تفسير الظواهر من خلال تحديد خصائصها و أبعادها و العلاقات بينها بهدف الوصول إلى وصف علمي متكامل لها[1].

لذلك فإن المنهج الوصفي يشتمل على عدد من المناهج الفرعية و الأساليب المساعدة[2]:

[1] منهجية البحث العلمي، لخالد حامد، دار ريحانة للنشر و التوزيع، ط1، 2003، ص31.
[2] المرجع نفسه، ص32.

1- لا يقتصر المنهج الوصفي على التعرف على معالم الظاهرة و تحديد أسباب وجودها، و إنّما يشمل تحليل البيانات و قياسها و تفسيرها و التوصل إلى وصف دقيق للظاهرة و نتائجها.

2- يهتم المنهج الوصفي بالتعرف على معالم الظاهرة أو المشكلة و تحديد أسباب وجودها و تشخيصها و الوصول إلى كيفية تغيرها.

و الوصف كما يعرفه موريس أنجرس: "هو تمثيل مفصل و صادق لموضوع أو ظاهرة ما، و هذا التمثيل يرتكز أساساً على دقة الملاحظة التي تغذيها العناية و الاهتمام الزائد و الموضوعي بموضوع الدراسة، و ههنا يبدأ التساؤل عند الباحث، و هو المفتاح الذي لا غنى عنه لفتح أبواب المعرفة فالمساءلة تعد نقطة الانطلاق طالما أن الوقائع لا تكشف بنفسها عن خباياها، فإذا ما استغنينا عن التساؤل الهادف و المصاغ بوضوح أثناء قيامنا بالملاحظة، فمهما كانت مدّة ملاحظتنا لظاهرة ما و دقتها، فإنّها ستكون خالية من كل قيمة مفيدة للمعرفية العلمية"[1].

و عليه يعد المنهج الوصفي أكثر المناهج أهمية و توظيفاً في البحوث العلمية و الاجتماعية، و هو الأكثر ملاءمة للدراسات قديمها و حديثها، و لقد اعتمد بشكل واضح في كتب التفاسير باستخدام أدوات البحث العلمي.

[1] منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، لموريس أنجريس، ترجمة بوزيد صحراوي، كمال بوشرف و سعيد سبعون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004، ص30.

و قد أمدنا القرآن نفسه بمنهج قويم ساعدنا على الكشف عن الأسرار الكونية لقوله تعالى: ﴿**قُلْ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم** الله **ينشئ النشأة الآخرة إنّ** الله **على كل شيء قدير**﴾ العنكبوت/20.

و هذا المنهج قائم على[1]:

أ- إعمال العقل و النظر في الكون للإجابة عن السؤال كيف؟

ب- الملاحظة: يقول عزوجل:

﴿**و** الله **أخرجكم من بُطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً و جَعَل لكُم السَّمعَ و الأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ النحل/78.

﴿**قُلْ انظروا ماذا في السموات و الأرض و ما تُغني الآياتُ و النُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون**﴾ يونس/101.

﴿**و لا تَقْفُ ما ليْسَ لك به علمٌ إنّ السَّمْع و البَصَر و الفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾ الاسراء/36.

يتضح لنا من كل ذلك أنّ الملاحظة العلمية تعتمد أساساً على تحديد الهدف و الموضوعية و دقة المشاهدة و التنظيم، و كذلك إعمال العقل من أجل التفسير و التحليل. و هي الخطوات التي اتبعها أبو حيان في منهجه، و في تعامله مع الخطاب القرآني في مواضع كثيرة إمّا لوصف الواقعة أو الظاهرة اللغوية أو للوقوف وقفة تمجيد و إذلال أمام قدرة الله عزوجل.

[1] لسانيات الخطاب القرآني مظاهر الاتساق و الانسجام، لخديجة ايكر، ص115.

و من أمثال ذلك كلامه عن قوله تعالى من سورة يونس، الآية 101: ﴿قُلْ انظروا ماذا في السموات و الأرض و ما تُغني الآيات و النُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون﴾ "أمر الله تعالى بالفكر فيما أودعه تعالى في السموات و الأرض، إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكير في مصنوعاته، ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك و مقاديرها و أوضاعها، و الكواكب و ما يختص بذلك من المنافع و الفوائد، و في العالم السفلي في أحوال العناصر و المعادن و النبات و الحيوان، و خصوصاً حال الإنسان، و كثيراً ماذكر الله تعالى في كتابه الحض على الفكر في مخلوقاته تعالى..."[1].

و هذه كانت نظرة تأملية ثاقبة للمعنى الإجمالي للآية، و استفتاح جميل استطاع به أبو حيان أن يداعب مخيلتنا و يشد به عقولنا للإطلاع على ما تختزنه كل لفظة من ألفاظ تلك الآية من معانٍ.

و في موضع آخر يستهل حديثه عن سورة يوسف بقوله: "هذه السورة مكية كلّها و قال ابن عباس و قتادة إلاّ ثلاث آيات من أوّلها، و سبب نزولها: أن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه و سلم عن السبب الذي أحّل ببني اسرائيل بمصرا فنزلت، و قيل: سببه تسلية الرسول –عليه السلام– عمّا كان يفعل به قومه، بما فعل إخوة يوسف به، و قيل: سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يحدثهم أمر يعقوب و ولده، و شأن يوسف و قال سعد بن أبي وقاص:

[1] البحر المحيط، ج5، ص193، النسخة المحققة.

أنزل القرآن فتلاه عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: أوقصصت علينا فنزلت..."[1]. ثم يذكر مناسبتها لما قبلها لكنه يذكر من أسباب النزول القريب إلى الصواب و لا يرجح سببا على آخر بل يكتفي بايراد الأسباب دون مناقشتها، و كثيراً ما كان يفعل ذلك في تفسيره.

و في مواضع أخرى يعبّر أبو حيان عمّا تقتضيه علاقة المفسر بكتاب الله من تواضع و انبهار و اتعاظ تجلى في العديد من المناسبات، كقوله في تفسير الآيتين 22 و 23 من سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿**الذي جعلَ لكُم الأرضَ فِراشاً و السَّمَاءَ بناءً و أنْزل من السماء ماءً فأخْرجَ بِه، من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا** لله **أنْداداً و أنتم تعلمون**(22) **و إن كنتم في ريبٍ ممَّا نَزَّلْنَا على عبْدِنَا فَأْتُوا بسورةٍ مِنْ مثلِه، و ادعوا شُهداءكم من دونِ** الله **إن كنتم صادقين**﴾ "و قد تضمَّنت هاتان الآيتان من بدائع الصنيعة و دقائق الحكمة و ظهور البراهين ما اقتضى تعالى أنّه المنفرد بالايجاد المُتكَفِّل للعباد دون غيره من الأنداد التي لا تخلق و لا ترزق و لا لها نفع و لا ضرٌّ ألاّ لله الخَلْقُ و الأمرُ"[2].

لا يمكننا في هذه الإطلالة البسيطة أن نقف عند مختلف المواضع التي طبق فيها أبو حيان المنهج الوصفي، و الأسباب راجعة إلى كون علم التفسير نفسه قائماً على المنهج الوصفي شأنه

[1] البحر المحيط، ج5، ص278.
[2] المرجع نفسه، ج1، ص151.

في ذلك شأن مختلف العلوم الإنسانية و الاجتماعية، بل إننا نلاحظ أن مختلف المناهج الأخرى تعتمد أساساً على وصف الوقائع أو المظاهر المراد دراستها ليتم بعد ذلك فهمها و تفسيرها و تحليلها للوصول إلى النتائج المرجوة من وراء البحث العلمي.

باختصار فإن الذهن المتفتح و الموضوعية و إعمال العقل يجعل من المفسر باحثا متيقظاً لكل القضايا الكونية و اللغوية التي يطرحها أمامه نسيج النص القرآني، لذلك ينتقي المفسر من الدراسات العلمية المختلفة ما يلائمه من المناهج يطبقها على لغة النص حتى يتوصل إلى كشف خبايا اللفظ و النص على حد سواء.

و عليه، فنحن نحاول قدر استطاعتنا أن نحدد مجموع المناهج التي اعتمدها أبو حيان في تفسيره القائم على توظيف القضايا اللغوية بشكل واضح في التحليل، و ليس غرضنا من وراء ذلك الوقوف على مناهج العلوم الاجتماعية و الإنسانية أو حتى المناهج المعتمدة في البحوث اللسانية الحديثة فقد تناولها بعض الدارسين و هي مبثوتة في كتب المناهج.

II- المنهج الاستقرائي:

يعرف العلماء الاستقراء العلمي بأنّه استدلال مستمد من ملاحظة وقائع خاصة بهدف استخلاص افتراضات عامة؛ تمنع أطروحة الاستقراء، إذن، الأسبقية لجمع الملاحظات عن الظواهر بهدف الاستنتاج الممكن للإفتراضات العامة المؤدية إلى بعض الانسجام[1].

و ذهب بعض العلماء إلى القطع بأن العلم استقرائي، إذ لا يمكن أن نخضع الواقع أو الظواهر المختلفة التي نقوم بوصفها إلى التجربة، دون أن تكون الافتراضات الناشئة من تكرار الملاحظة مستقرأة.

لذلك، نجد المنهج الاستقرائي حاضراً في الدراسات اللسانية حتى قبل ظهور المنهج البنيوي عند فاردينودي سوسير Ferdinand de saussure؛ لأنّ تقنين القواعد و تحديد المظاهر العامة المميزة للغة البشرية تقوم أصلاً على الملاحظة و الوصف و الاستقراء. الذي يعد – كما سبق و أن أشرنا- "عملية تشكل بواسطتها نظرية تعلل الحقائق المشاهدة، و هذه الحقائق هي علاقة بين الظواهر المختلفة، و هو يحاول الكشف عن هذه العلاقات بين الظواهر يكون تتبع الجزيئات في هذا الكون، إمّا عن طريق ملاحظتها أو إجراء التجارب عليها أو الفروض"[2].

1 منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية لموريس أنجريس، ص50.

2 لسانيات الخطاب القرآني، مظاهر الاتساق و الانسجام، خديجة ايكر، ص117.

و تؤخذ هذه العناصر الاستقرائية من الواقع الجزئي المشاهد وصولاً إلى الكلي، أو من الخاص إلى العام الذي هو موضوع الاستقراء.

يقول تعالى في الآية 185 من سورة الأعراف ﴿أولم ينظروا في مَلكوتِ السموات و الأرض و ما خَلقَ اللهُ من شيءٍ و أن عَسَى أن يكون قد اقتَربَ أجَلُهُم فبِأيِّ حديثٍ بعدَهُ يؤمنون﴾

يقول أبو حيان في تفسير هذه الآية: "لّما حضّهم على التفكير في حال الرسول و كان مفرعاً على تقرير دليل التوحيد، أعقب بما يدل على التوحيد و وجود الصانع الحكيم و الملكوت، الملك العظيم... و (أن) معطوف على (ما) في قوله (و ما خلق) و بخُّوا على انتفاء نظرهم في ملكوت السموات و الأرض، و هي أعظم المصوغات، و أدلتها على عظمة الصانع، ثم عطف عليه شيئا عاماً و هو قوله (و ما خلق الله من شيءٍ) فأدرج السموات و الأرض في (ما خلق) ثم عطف عليه شيئا يخص أنفسهم، و هو انتفاء نظرهم و تفكرهم في أن أجلهم قد اقترب فيبادرهم الموت على حالة الغفلة عن النظر في ما ذكر، فيؤول أمرهم إلى الخسار و عذاب النار، نبههم على الفكر في اقتراب الأجل لعلهم يبادرون إليه"[1].

1 البحر المحيط، ج4، ص430.

و قوله في الآية 187 من سورة الأعراف: ﴿**يسئلونك عن الساعة أيّان مرساها قُل إنّمَا علمها عند ربّي لا يُجَلّيها لوقتها إلاّ هو ثقُلت في السموات و الأرض لا تأتيكم إلاّ بغتَةً يسئلونك كأنّكَ حَفِيٌّ عنها قل إنّما علمُهَا عند الله و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ يقول: "(قُل إنّما علمُهَا عند ربّي لا يجليها لوقتها إلاّ هو) أي: الله استأثر بعلمها، و لما كان السؤال عن الساعة عمومًا، ثم خصص بالسؤال عن وقتها جاء الجواب عمومًا عنها بقوله: (قل إنّما علمها عند ربّي) ثم خصص من حيث الوقت فقيل (لا يجليها لوقتها إلاّ هو) و علم الساعة من الخمس التي نص عليها من الغيب أنّه تعالى لا يعلمها إلاّ الله"[1].

III- المنهج الاستنباطي:

لا يمكننا الحديث عن المنهج الاستقرائي دون التوقف عند المنهج الاستنباطي، الذي يعرفه العلماء بأنّه استدلال مستمد من افتراضات عامة بغية التحقق من صحتها في الواقع[2] بمعنى آخر المنهج الاستنباطي هو الذي يبدأ من العام إلى الخاص أو من الكلي إلى الجزئي برباط عقلي بين المقدمات و النتائج على أساس من المنطق العقلي.

1 البحر المحيط، ج4، ص432.

2 منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية، لموريس أنجريس، ص30.

يقول عزوجل ﴿ قال فمنْ ربُّكما يا موسى(49) قال ربُّنا الذي أعطى كلّ شيء خَلْقه، ثم هدى(50) قال فما بالُ القُرون الأولى(51) قال عِلْمُها عند ربّي في كتاب لا يَضِلُّ ربّي و لا ينسى(52) الذي جعلَ لكم الأرضَ مهداً و سَلَكَ لكم فيها سُبُلاً و انْزَلَ من السّمَاء ماءً فأخرجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتّى(53) كُلوا و ارعوا أنعامَكم إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولي النُّهى(54)﴾ طه الآيات: 49-54.

يقول أبو حيان: "...و لمّا ذكر موسى دلالته على ربوبية الله تعالى و تم كلامه عند قوله (و لا ينسى) ذكر تعالى ما نبه به على قدرته تعالى و وحدانيته، فأخبر عن نفسه بأنّه تعالى هو الذي صنع كيت و كيت، و إنّما ذهبنا إلى أن هذا هو من كلام الله تعالى كقوله تعالى (فأخرجنا)"[1].

و في قوله تعالى في سورة الحجر الآية 87 ﴿ و لقد ءاتيناك سبعاً من المثاني و القرآن العظيم﴾ يقول أبو حيان: "و قرأ الجمهور (و القرآن العظيم) بالنصب، فإن عَنى بالسبع الفاتحة، أو السبع الطوال لكان ذلك من عطف العام على الخاص، و صار الخاص مذكوراً مرتين إحداهما بجهة الخصوص و الأخرى بجهة العموم، أو لأّن ما دون الفاتحة أو السبع الطوال ينطلق عليه لفظ القرآن، إذ

1 البحر المحيط، ج6، ص234.

هو اسم يقع على بعض الشيء كما يقع على كلّه، و إن عَنى الأسباع فهو من باب عطف الشيء على نفسه، من حيث إن المعنى: و لقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني، و القرآن العظيم، أي: الجامع لهذين المعنيين و هو الثناء و التنبيه و العظم..."[1].

و قوله أيضاً في تفسير قوله تعالى في الآية 24 من سورة النساء ﴿و أُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاء ذالِكُم﴾: "و الظاهر العموم إلاّ ما خصته السنة المستفيضة من تحريم الجمع بين المرأة و عمتها و بين المرأة و خالتها[2]"[3].

و قوله في تفسير قوله تعالى في الآية 228 من سورة البقرة ﴿و المطلّقاتُ يتربَّصْنَ بأنفُسِهِنَّ ثلاثة قُروء﴾ "و الظاهر (المطلقات) العموم، و لكنه مخصوص بالمدخول بهن ذوات الأقراء، لأن حكم غير المدخول بها و الحامل و الآيسة منصوص عليه مخالف لحكم هؤلاء"[4].

IV- المنهج التاريخي:

يعنى علم التاريخ بدراسة الأحداث الماضية في استخدام طريقة استقرائية تحليلية نقدية تغلب عليها الموضوعية، و هو ما ندعوه بالمنهج التاريخي الذي يعد طريقة لتناول و تأويل حادثة

1 البحر المحيط، ج5، ص452.
2 الموطأ، الإمام مالك، كتاب النكاح، باب ما لا يجمع بينه من النساء، ص 473.
3 البحر المحيط، ج3، ص 221.
4 المصدر نفسه، ج2، ص 195.

وقعت في الماضي، وفق إجراء البحث و الفحص الخاص بالوثائق[1] المتنوعة ثم يقوم المؤرخ بتقييمها أو نقدها، و تتمثل ميزة هذا المنهج في كونه "يدرس الظاهرة القديمة من خلال الرجوع إلى أصلها فيصفها و يسجل تطوراتها و يحلل و يفسر هذه التطورات استناداً إلى المنهج العلمي في البحث الذي يربط النتائج بأسبابها"[2].

لذلك اعتُمِد على المنهج التاريخي في مختلف البحوث الانسانية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و الأدبية و غيرها... سعيا من أصحابها على أن يكون البحث العلمي مؤسساً يستند إلى الأدلة و البراهين من خلال الاستشهاد بالوثائق و السجلات و الشهادات الماضية التي تساعده على كشف الحقائق و تعليلها، يقول سيدني و باتريس ويب: "أهمية معرفة تاريخ النظم و تطورها عند دراسة الأوضاع المعاصرة، لأن الفهم المتكامل لهذه النظم و لما تؤديه من وظائف و علاقتها بالنظم الأخرى حاضراً، لا يتحقق إلاّ بعد معرفة نشأتها و تطورها، فالنظر إلى أيّة ظاهرة: سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية بمعزل عن تاريخها يمثل تماماً عزل هذه الظاهرة عن بقية الظواهر المرتبطة بها (المتفاعلة معها) و البيئة الاجتماعية التي نشأت و تطورت فيها"[3].

1 منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية، لموريس أنجريس، ص105.

2 دليل الباحث في المنهجية و كتابة الرسائل الجامعية لعمار بوحوش، ص 24، نقلاً عن دوقان عبيدات، عبد الرحمن عدس و كايد عبد الحق البحث العلمي، مفهومه و أدواته و أسلوبه، عمان، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، 1983، ص 173.

3 منهجية البحث العلمي لخالد حامد، ص 38، نقلاً محمد علي محمد، علم الاجتماع و المنهج العلمي، ص 163.

انطلاقا من هذه المعطيات يستوجب على الباحث أن يتوخى الدقة و إعمال العقل بأخذه بالمصادر التاريخية المختلفة، كتابية كانت أو شفوية، و ذلك بإخضاعها للنقد بهدف انتقاء الأصلح منها، و الموثوق به، و الذي يخدم البحث العلمي، و ينقسم النقد إلى خارجي الغاية منه التأكد من صدق الوثيقة أو الأثر و أصالته من الناحية الشكلية، أي من حيث مصدره و تاريخه. و داخلي أو نقد المضمون الذي يهدف أساساً إلى إثبات مصداقية محتوى الوثيقة[1].

و هكذا فالمنهج التاريخي ليس مجرد عملية بحث عن الوثائق و الدراسات الماضية، و إنّما هو أيضاً إجراء لإثبات أصالة ما يبحث فيه و صدق ما يذهب إليه الباحث من رأي و حكم أو نقد.

و هو الأمر الذي دفع بالمفسرين إلى الاعتماد على هذا المنهج؛ إمّا في ذكر أسباب نزول الآية. أو سرد الروايات التي قيلت في قصة من القصص القرآني، و البعض اعتمد على الاسرائيليات، و أعرض عنها الكثير، و منهم أبو حيان الذي كان دقيقا في سرد الحادثة أو القصة و غالباً ما كان يذكر الروايات المختلفة المتعلقة بأسباب النزول أو الحادثة أو القصة و يقارن بينها ليختار ما يراه صائبا من وجهة نظره، و هذه بعض المواضع التي وظف فيها أبو حيان المنهج التاريخي:

1 منهجية البحث العلمي لخالد حامد، ص41.

فممّا أورده من أسباب النزول قوله في تفسير قوله تعالى في الآية 128 من سورة آل عمران ﴿ليسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيءٌ أو يتُوبَ عليْهِم أو يُعَذِّبَهُم فإنهّم ظالمون﴾ "اختلف في سبب النزول، و ملخصه أنه لعن ناسًا أو شخصاً عين أنه عتبة بن أبي وقاص، أو أشخاصًا دعا عليهم، و عينوا أبا سفيان و الحارث بن هشام. و صفوان بن أمية، أو قبائل عين منها لحيان و رعل و ذكوان و عصيّة، أو هم بسبب الذين انهزموا يوم أحد، أو استأذن ربه أن يدعو، و دعا يوم أحد حين شج في وجهه و كسرت رباعيته و رمي بالحجارة حتى صرع لجنبه، فلحقه ناس من فلاحهم، و مال إلى أن يستأصلهم الله و يريح منهم فنزلت، فعلى هذه الأسباب يكون معنى الآية"[1].

و قد يذكر سبب النزول فقط للإستئناس به و الاستفادة منه في الشرح و الايضاح يقول مثلاً في تفسير قوله تعالى في الآية 113 من سورة آل عمران ﴿ليسُوا سَواءً منْ أهْلِ الكتابِ أمَّةٌ قائمةٌ يَتْلُونَ ءايَاتِ الله ءانَاءَ اللَّيْلِ و هم يسجدون﴾ "سبب النزول إسلام عبد الله بن سلام، و غيره من اليهود، و قول الكفار من أحبارهم: ما آمن بمحمد إلاّ شرارنا و لو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم[2]، قاله ابن عباس و قتادة و ابن جريج"[1].

1 البحر المحيط، ج3، ص 56.

2 ذكره السيوطي في الدر المنثور من رواية ابن عباس، و غراه لابن اسحاق و ابن المنذر، و ابن جرير، و ابن أبي حاتم، و الطبراني، و البيهقي في الدلائل، و ابن عساكر، و ذكره من رواية قتادة بلفظ: "يقول

أما ما تعلق بايراد أبي حيان للروايات المتعلقة بقصص الأنبياء، فإننا قلنا بأن أبا حيان كان يتحرى صحتها فيرويها كما رواها الجمهور[2]، أو ينسب القصة بلفظ "روي" أو "قيل" في بعض المواضع[3]. و كان يذكر القصة مع طولها في بعض المواضع[4] و يعرض عن الروايات التي يشك في صحتها[5]، و نادراً ما يذكر بعض الروايات الاسرائيلية[6].

يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى في الآية 65 من سورة البقرة ﴿و لقد عَلِمتُم الذين اعْتَدوا مِنْكم في السبت فَقُلنا لَهُمْ كُونوا قِرَدَةً خاسئين﴾ "(روي في قصصهم): أن الله تعالى مسخ العاصين قردة بالليل فأصبح الناجون إلى مساجدهم و مجتمعاتهم فلم يروا أحداً من الهالكين فقالوا إنّ للناس شأناً ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل فوجدوهم قردة يعرفون الرجل و المرأة، و قيل إن الناجين قد قسموا بينهم و بين العاصين القرية بجدار تبريا منهم، فأصبحوا و لم تفتح مدينة الهالكين، فتسوروا عليهم الجدار، فإذاهم قردة شب بعضهم

ليس كل القوم هلك قد كان بقية"، و غراه لعبد بن حميد و ابن جرير، ج2، ص 64-65 ⇐ ينظر البحر المحيط، ج3، ص36.

1 البحر المحيط، ج3، ص 36، ينظر ج3، ص 83، ج3، ص98.

2 المصدر نفسه، ج3، ص 331، ج3، ص 333.

3 المصدر نفسه، ج3، ص 333، ج3، ص 334.

4 المصدر نفسه، ج3، ص 333.

5 المصدر نفسه.

6 المصدر نفسه، ج3، ص 330، ج3، ص380.

على بعض، قال قتادة: و صاروا قردة تعاوى لها أذناب بعدما كانوا رجالاً و نساءً"[1].

V- المنهج المقارن:

لم يخل الفكر الإنساني من المقارنة منذ بداية تساؤله عن الكون و عن الخلق و كل ما يحيط به، و لقد أكدت الدراسات على أن عملية المقارنة كانت موجودة عند الهنود و اليونان و الرومان و العرب، و أخذ مفهوم المقارنة يتطور حتى أصبح منهجاً قائماً بذاته يقول أنسل (M. Ancel) أن أرسطو و أفلاطون استخدما المقارنة كوسيلة للجواز في المناقشة قصد قبول أو رفض القضايا و الأفكار المطروحة للمناقشة[2].

و الجدير بالذكر أن هذا المنهج اكتمل نموه و ظهر بشكل واضح في المدرسة اللسانية الألمانية و من خلال اللسانيات التاريخية الممتدة من 1820 إلى 1870 و التي سعت إلى انتقاء الوحدات اللغوية القديمة و مقارنتها بما يقابلها في اللغات التي يراد معرفة قرابتها من جهة، ثم بتحديد درجة الصلة بينها، و استخراج الصيغ الأكثر قدما بعدّها أصلاً مشتركا لبقية الوحدات من جهة أخرى، و إذا ما وجد المقارن تماثلاً جليا بين هذه الصيغ، فإنّه لا محالة يتأكد من أنّها قد انحدرت من لغة أم واحدة[3]،

1 البحر المحيط، ج1، ص 409.

2 منهجية البحث العلمي، خالد حامد، ص 61.

3 اللسانيات النشأة و التطور لأحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الأولى، 2002، ص70.

فظهر بذلك علم الفيلولوجيا المقارن (La Philologie comparative)، ليتمخض عنها ظهور النحو المقارن على يد العالم الدنماركي راسموس راسك (Rasmos Rask)، و قد تبنت هذا المنهج مدارس لسانية كثيرة بغية المقارنة بين المعطيات اللغوية في اللغة الواحدة، أو بين المعطيات اللغوية في لغتين أو أكثر.

و يمكن أيضاً أن نتخذ في مجال المقارنة معياراً مرجعياً أو نموذجاً نعتبره النموذج الأمثل أو الصحيح، و من خلال عملية المقارنة نبيّن إلى أي مدى يقترب الموضوع محل المقارنة من النموذج الأمثل الذي يتميّز و مقاييس متعارف عليها[1].

و يؤكد ابن خلدون على أهمية المنهج المقارن في الدراسات الاجتماعية انطلاقاً من أن أحوال الأمم لا تستقر على وتيرة واحدة بل يشوبها التغيّر و التبدل، لذلك فإن الاحتكام إلى مقارنة تطور الظاهرة يمكن من استخلاص المبادئ و الأسس التي تستند إليها، و كذلك العوامل التي ساهمت في تطورها[2].

و هذه الأهمية لا نجدها في العلوم الاجتماعية فحسب و إنّما وجدناها متفاوتة في باقي العلوم الأخرى و علم التفسير واحد منها.

1 منهجية البحث العلمي، خالد حامد، ص60.

2 المرجع نفسه.

غير أن المفسرين لم يهتموا بالمنهج المقارن اهتمام غيرهم به، و الحق أنهم ما استخدموه إلاّ لتوضيح أمور معينة نجملها في النقاط التالية:

1- المقارنة بين القراءات المختلفة و اختيار ما يوافق المعنى الإجمالي للآية.

2- المقارنة بين الآراء المختلفة لعلماء التفسير في تأويل الآية، و لعلماء النحو في تحليلهم الوظيفي للوحدات المؤلفة للجملة ليصل المفسر إلى تعميق الدراسة التحليلية للفظ القرآني و من تم للآية.

3- المقارنة بين الروايات المختلفة و اختيار منها ما يوافق مذهب المفسر العقائدي أو توجهه اللغوي.

و هدف المفسر من وراء ذلك هو أن لا يترك رأياً جاء في تفسير اللفظ أو الآية إلاّ ذكره حتى يُثري بحثه و يعمقه، و يصبح تفسير للقرآن الكريم أكثر مصداقية من غيره. و هذا بالفعل ما عناه أبو حيان من تطبيقه للمنهج المقارن، و إن كنا نلاحظ في بعض المواضع من البحر المحيط، أنّ أبا حيّان يفضل الحياد في ذكره لمختلف الآراء و لا يفاضل بينها و لا يعرب عن رأيه في الموضوع خوفاً من أن يقول في القرآن ما لا يصح قوله فيه.

لذلك فإن المنهج المقارن عند أبي حيان كان حاضراً و بأشكال مختلفة:

* فهو إمّا أن يذكر آراء الآخرين و يختار منها ما يراه صحيحاً ملائماً لتفسير الآية و يخطئ البقية كقوله مثلاً في تفسير الآية 54 من سورة البقرة ﴿**فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم**﴾ "ذهب ابن اسحاق إلى أن القتل في الآية الكريمة من الاستسلام للقتل و سمي كذلك على سبيل المجاز فتخلص في قوله فاقتلوا ثلاثة أقوال: الأول بقتل أنفسهم، و الثاني الاستسلام للقتل، و الثالث التذليل للأهواء، و الأوّل هو الظاهر و هو الذي نقله أكثر الناس"[1].

* و إمّا أن يذكر هذه الآراء ثم يخطئها و يبدي رأيه الذي يراه مناسبًا من ذلك قوله في تفسير لفظة (لِيَحْكُم) في الآية 213 من سورة البقرة ﴿**و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾ "فاللام عنده مثلها في (ليحاجُّوكم) هي لا العلّة، و الاختلاف يكمن في عود الضمير المضمر، في (لِيَحْكُم): فالجمهور على أنّه يعود على الكتاب مجازًا، و رأي الزمخشري أنّه يعود على النبي، أمّا رأي أبي حيان — و هو الظاهر- أنّه يعود على الله تعالى، في قوله (فبَعَثَ الله) مبتعداً بذلك عن التكلّف[2].

1 البحر المحيط، ج1، ص207.

2 الفعل و دلالته في تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير للأستاذة زهرة سعد الله ص164، مخطوط.

يقول أيضًا في تفسير قوله تعالى في الآية 94 من سورة الأنعام ﴿...لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنكُم مَا كُنْتُمْ تَزْعَمُونَ﴾ ذكره آراء المفسرين في فاعل تقطع يؤكد عدم صحتها و يورد رأيه قائلاً: "و الذي يظهر لي أنّ المسألة من باب الإعمال تسلط على (ما كنتم تزعمون) (تقطع) و (ضل) فأعمل الثاني و هو (ضل) و أضمر في (تقطع) ضمير (ما) و هم الأصنام. فالمعنى "لقد تقطع بينكم ما كنتم تزعمون و ضلوا عنكم" كما قال تعالى ﴿و تقطعت بهم الأسباب﴾ البقرة/166. أي "لم يبق اتصال بينكم و بين ما كنتم تزعمون أنهم شركاء فبعدتموهم" و هذا إعراب سهل لم ينتبه له أحد"[1].

VI- المنهج التحليلي:

يعد هذا المنهج بمثابة تتويج لعمل البحث العلمي إذ لا يستطيع الباحث الاستغناء عنه و الاكتفاء بالوصف و الاستقراء و الاستنباط و تتبع الظواهر المراد دراستها عبر حقب زمنية ماضية، و لكنه ملزم بتحليل المعطيات التي يقوم باحصائها.

فالمنهج التحليلي، إذن، عملية ملازمة للفكر الإنساني تستهدف إدراك الأشياء و الظواهر بوضوح من خلال عزل عناصرها بعضها عن بعض، و معرفة خصائصها أو سمات هذه العناصر و طبيعة العلاقات القائمة بينها، و هذه هي الفكرة العامة لعملية التحليل بغض النظر عن أساليبه و أغراضه[2].

1 البحر المحيط، ج4، ص186.

2 منهجية البحث العلمي، خالد حامد، ص52.

فعندما يقوم الباحث بتجزئة البحث إلى مراحل تقوم من خلالها مجموع العلاقات السببية و التبعية المتبادلة بين المتغيرات و الأهمية النسبية للروابط بين مختلف الظواهر فهو يقوم بعملية ذهنية تتضمن تفكيك الواقع إلى عناصره بهدف فحص تلك الظواهر أو الملاحظات ليتمكن من استخراج النتائج الدالة بالنسبة إلى موضوع البحث[1].

و هكذا يتم التحليل بطرق عمل مختلفة باختلاف المعطيات و يمكننا اختصارها في أربعة أنواع من زوايا التحليل: التحليل الوصفي و التحليل الفهمي، و قد أشرنا إليها في بداية حديثنا عن المناهج، و التحليل التصنيفي و أخيراً التحليل التفسيري الذي اعتمد عليه علماء التفسير و بخاصة المفسرون اللغويون و على رأسهم أبو حيان.

و هو تحليل يهدف إلى وضع عناصر الموضوع في علاقة ببعضها البعض بالاعتماد على سلطة النص القرآني و هيمنته. فالتحليل اللغوي الذي اعتمده أبو حيان ينقسم إلى قسمين اثنين: ما كان التحليل فيه متعلقا بالوحدات الدالة المؤلفة للنص، و ما كان يتعلق بمضمون النص، و هو تحليل تأويلي يتغلغل فيه المفسر إلى عمق النص، فالنص في الشرح اللغوي سلطان و ليس خادماً و هو فصيح لمن تأمله، يفصح عن العالم، عن شخصية صاحبه و علاقته بعصره، يفصح عن البيئة و عن السياسة و عن المجتمع من خلال أصواته و ألفاظه و تراكيبه،

1 منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، لموريس أنجرس، ص422.

فالشرح اللغوي، إذن، شرح نفساني و اجتماعي و تاريخي بالقدر الذي يسمح به و دون تعسف عليه[1].

و المتصفح لتفسير البحر المحيط يوقن من أنّ أبا حيّان اعتمد على المنهج التحليلي اعتماداً كليا، في توجيهه للقراءات و في حديثه عن بنية اللفظة و وظيفتها لينتهي به الأمر إلى تأويل السياق، و هو منهج –قلنا سلفاً– بأنه اتبعه في كامل الآيات القرآنية مثال ذلك تفسيره لقوله تعالى الآية 23 من سورة البقرة ﴿**و إن كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا**﴾ يقول أبو حيان في إعراب هذه الآية: "و لما كانوا في ريب حقيقة و كانت "إن" الشرطية إنّما تدخل على الممكن، أو المحقق المبهم زمان وقوعه ادعى بعض المفسرين أن "إن" هنا معناها "إذا" لأن "إذا" تفيد مضي ما أضيفت إليه، و مذهب المحققين أن "إن" لا تكون بمعنى إذا. و زعم المبرد و من وافقه، أن لكان الماضية الناقصة معان حكماً، ليست لغيرها من الأفعال الماضية، فلقوه كان زعم أن "إن" لا يقلب معناها إلا الإستقبال بل يكون على معناه من المضي إن دخلت عليه إن"[2].

و لقد كان أبو حيان متفطنا منذ البداية من أن المناهج المستفاد منها في قراءة النص كثيرة و كأن الدراسة لم تنته إلى المنهج الشافي الكافي، فيبقى في المنهج دائماً جانب صالح من

1 قضايا اللغة في كتب التفسير للهادي الخطلاوي، ص31.

2 البحر المحيط، ج1، ص243.

شأنه أن يثري الدراسة و تبقى فيه جوانب مطموسة يثيرها غيره من المناهج، فالمناهج يكمّل بعضها البعض لأنّ اهتمامها بجوانب النص اهتمام متفاوت يختلف باختلاف المنطلقات الفكرية المحركة لأصحابها[1].

و عليه لا يستطيع المفسر أن يتعامل مع النص بعيداً عن لغته، فتلك المناهج تبقى مناهج لغوية تتفاوت في درجة التعويل على اللغة بين ناظر متسرع و ناظر متأمل يرى أنّ الطريق إلى المعنى، مهما كان يمر بجسور اللغة"[2].

1 قضايا اللغة في كتب التفسير، ص31.

2 المرجع نفسه.

الباب الثاني

المقاربة المنهجية بين أبي حيان و الألسنيين

الفصل الأول:

مستويات التحليل اللغوي

الفصل الثاني:

مظاهر تماسك و انسجام الخطاب القرآني

لقد ارتـــأينا في خضم حديثنـــا عن العمليـــات الإجرائيـــة التي تبناهـــا أبو حيان في تفسيره لكل مستوى من مستويات الدرس اللساني، أن نلقي نظـــرة خاطفة على الدراسات اللسانيـــة في أوربَا، هذه الطريقـــة نفسهـــا سنتتبعهـــا في حديثنا عن كل مستوى من مستـــويات الدرس اللساني في البحر المحيط، حتى نتمكـــن من حوصلـــة المقاربة المنهجيـــة بين أبي حيـــان و الألسنييـــن.

و بالتـــالي فقد مرت التجـــربة اللسانيـــة في أوربا بمراحـــل عدة بـــدءاً بالمنهج الوصفي في صورته البسيطة عند بانيني (PANINI) و النحاة الهنود، إلى التأمل العقلي الرياضـــي بخلفيته الفلسفية عند الإغريق و اليونان، إلى أن وصل اهتمام اللغويين بالدراســـات التاريخيـــة و النحـــو المقـــارن ذروتـــه عند علمـــاء المدرسة الألمـــانية.

و في مطلـــع القـــرن العشريـــن تبلـــورت فكرة اللســـانيـــات البنيـــوية على يد العـــلامة فاردينـــارد دي سوسيـــر (Ferdinard de Saussure) (1857- 1913)، و من تـــم حـــدد منهـــج حديث نقل البحث اللســـاني من المنهـــج التاريخي المقـــارن إلى الاهتمـــام بقضية لم تشغـــل أحدا من الدارسيـــن قبلـــه هي: "بنيـــة اللغـــة" باعتبارهـــا كيانـــا واحدا متكامـــلا يتكون من جزيئـــات في نظـــام محكم تحكمـــه عدة عـــلاقات فالبنيـــة هي مجموعـــة العلاقات القائمـــة بين عنـــاصر النظام[1]، و عليه تتمثـــل مهمـــة اللسانيـــات في وصف كل وقائع اللغة التي

[1] البنـــيوية في اللسانيات، د. وفاء محمد كامل، مجلة عالم الفكر، المجلد 26، العدد 2، ص221، أكتوبر- ديسمبر، 1997.

يمكن ملاحظتهـــا، و لا يمكن تـــأسيس علم اللســـان إلا بالاعتمـــاد على معطيـــات ناتجـــة من ملاحظـــة متنـــوعة شاملـــة و دقيقـــة قدر الإمكـــان لأشكـــال اللســـان المعروفـــة[1].

و هكذا تحولت اللغات إلى موضوع دراسة علميـــة شاملة لمختلف العناصر المؤلفة للنظـــام اللســـاني، التي حددهـــا فاردينارد دي سوسير في مستويات أربـــع: الصـــوت، الإفـــراد و التركيب. و كانت الجملـــة هي محـــور كل البحـــوث اللسانية في هذه الفترة و ما بعدها، و استطـــاع بذلك مصطلح اللسانيات أن يفـــرض نفســـه في حقـــل الدراسات اللغوية الحديثـــة، و بقي مصطلـــح الفيلولوجيـــا خاصـــاً بدراسة النصوص دراســـة محدودة معتمدة على الصـــورة الخطيـــة دون البحـــث في تطور القوانين الصوتية مما دفـــع فاردينارد دي سوسير إلى نقـــد هذا الأسلـــوب و اعتباره أسلوبـــاً غير علمي.

و بعد سنـــوات طويلـــة من البحـــث و التحـــليل و الدراسة، تفطن الألسونيـــون إلى ضرورة الالتفـــات إلى بنيـــة أكبر من بنيـــة الجملـــة، التي تعـــدّ جزءاً لا يمكن فصلـــه عن البنـــاء الكلّي المسمـــى بالخطـــاب أو النص، لذلك، فإن كل الدراسات اللسانيـــة الحديثـــة باختلاف مناهجهـــا و توجهات أصحابهـــا عمدت إلى دراســـة انسجـــام و اتســـاق النص أو الخطـــاب.

[1] اللسانيات، جان بيرو، ترجمة الخواس مسعودي، مفتاح بن عروس،سلسلة العلم و المعرفة، دار الآفاق،الجزائر، 2001،ص07.

و إذا عدنا إلى الدراسات اللغوية العربية القديمة، نجدها تنقسم إلى قسمين: قسم عني بالجملة فهماً و وصفاً و تحليلاً، و قسم اهتم بالخطاب و الممارسة النصية تذوقا و تفسيراً و تأويلاً؛ معنى ذلك أن الجهود العربية الأولى اتخذت لنفسها منهجا وصفيا تحليليا للفظ العربي و الجملة و من ثمة للنص أو الخطاب بمفهومه الواسع، فما رأيناه في كتاب سيبويه و الجرجاني و ابن جني و غيرهم دليل على أن الباحثين العرب اعتنوا بالصوت و الحرف و اللفظ و الجملة عنايتهم بالنص شعراً كان أو خطبة أو قرآناً، و جهودهم تلك لا تقل أهمية و خصوبة عمّا قدّمه الغربيون.

و ليس معنى ذلك أن هناك تقاطعاً أو تشابهاً في الآليات المنهجية و الإجرائية بين الألسنيين الغرب و العلماء العرب؛ لأنهما آليتان ناتجتان عن عقليتين مختلفتين: "فالنموذج التفسيري القديم، مثلا، اتجه إلى الكشف عن الخصائص المميّزة للخطاب القرآني و المبادئ المنظمة لهذا الخطاب، أمّا النموذج الغربي اهتم باستجلاء الضوابط العامة المتحكمة في الخطاب قصد الكشف عن الآلة اللسانية في بعدها الكلي الشمولي، و المشاكل المطروحة على النموذجين مختلفة، إذ في الوقت الذي تتجه فيه الآلة اللسانية العربية إلى اللغات الطبيعية البشرية لاستجلاء المبادئ العامة و تأسيس النظرية اللغوية، تتجه فيه الآلة التفسيرية المرتبطة بالنص القرآني إلى

استجـــلاء المبـــادئ المنظمة لهذا النص، مع استحضـــار الفروق النوعية بينـــه و بين سائر النصوص"[1].

و تأكيداً لما ذكرنـــاه سلفاً، فإنّ لغة القـــرآن قد احتلت بؤرة اهتمـــام علماء الإســـلام قديمـــاً و حديثـــاً، سعيا منهـــم إلى استخراج الأحكـــام الشرعية المنظمة للمجتمع الإسلامي و إلى تفسيـــر معنى منطـــوقة و تركيبـــه، للوصول في الأخيـــر إلى مواضع إعجـــازه الكامنة في تناسق الآيـــات و انسجام الســـور، محققة تماســـك النص القرآني، الذي شـــدّ اهتمام الكثيـــر من العلمـــاء و المفسريـــن، الذين عمـــدوا إلى توظيـــف كل الوسائل و الآليـــات التي توفرها مختـــلف العلوم التي أرسوا قواعدها كعلـــم النحو و البلاغـــة و التفسيـــر لتدارس مختـــلف الظواهـــر اللغـــوية التي حواهـــا النص القرآني حتى يكون كالكلمـــة الواحـــدة.

لذلك أصبح من الضروري، و نحن نحـــاول إعـــادة قراءة التـــراث قراءة حداثيـــة تمكننـــا من تأسيـــس الدرس اللســـاني العـــربي، أن نستـــأنس ببعض الآليـــات المنهجيـــة و الإجرائيـــة التي يقدمهـــا لنا الدرس اللساني الغربي، و التي تتوافق و البنيـــة الداخليـــة للغة العربيـــة بكل مظاهرهـــا و خصوصياتهـــا و هو بالفعل ما نسعى إليه في هذا المبحث المتواضع الذي نقدمه للقـــارئ المتعطـــش للدراسات اللغويـــة الإسلاميـــة.

[1] التناسب القرآني و آليات اشتغاله من خـــلال الخطاب التفسيري- البحر المحيط نموذجا، لعبد العزيز فارس، ص 15.

و عليه ارتـــأينـــا أن نقسم هذا الباب إلى فصلين، فصل أوّل نُفَـــصِّلُ فيه الحديث عن الطـــرق التي اعتمدها أبو حيـــان للوقوف عند أجـــزاء الجملـــة (الصوت، المفـــردة، التركيب)، و فصل ثـــانٍ نُـــداور فيه الحديث عن مفهـــوم الخطاب و النص، و مظاهر الانسجـــام و الاتساق كما تناولها أبو حيان و كيفية تطبيقـــه للمنهج التـــأويلي.

الفصل الأول

مستويات التحليل اللغوي

لقد أوضحنـــا في بدايـــة هذا العمل نجـــاعة المنهج اللغوي في تفسيـــر القرآن الكريم لأنـــه أسلم الطـــرق و أدقهـــا في كشف مواضـــع تفسير القرآن الكريـــم، الكامن بالدرجـــة الأولى في التركيب القرآني بجميـــع مجـــالاته، الصوتيـــة و المعجميـــة و النحوية و البلاغيـــة، و لم يستغـــن أحد من المفســـرين عن مجـــال من هذه المجـــالات مما سمّـــاه د. الهـــادي الجطـــلاوي بالإعجـــاز اللغوي للقرآن الكريم[1].

و لقد اقتضت الحاجة إلى الإفهـــام و تقريـــب معنـــى الغريب في القرآن الكريـــم إلى أن يتعـــامل أبو حيان مع النص بتـــدرج في علم التفسيـــر "ينطلق فيه من البســـاطة إلى التعقيد، و من العناصر المفردة إلى العناصر المركبـــة! فإننـــا لا نعـــدم في النظم القرآني من التراكيـــب العربيـــة ما يحتاج إلى التوضيح، و لا نعدم في قـــراءات القـــرآن من الاختـــلاف النحـــوي الإعـــرابي ما اتصل بالمعنـــى و احتاج إلى التفسير"[2].

و يتفـــاوت تعامل أبي حيـــان مع مستويـــات الدرس اللســـاني السالفة الذكـــر، فالمستـــوى الغالب في تفسيـــره من حيث الأهميـــة و الاعتنـــاء به هو المستـــوى النحـــوي و التركيبي، يليـــه المستـــوى البلاغـــي ثم الإفرادي (مبنـــى و معنـــى) و في الأخير نجد المستـــوى الصوتـــي. و لعل هذا التفـــاوت راجـــع بالدرجـــة الأولى إلى اهتمـــام أبي حيـــان بالمعنـــى: فإن كان اللفظ القرآني واضحـــاً يكتفي بالوصـــف دون التحـــليل، أمّا إذا شابـــه بعض

[1] قضايا اللغة العربية في كتب التفسير للهـــادي الجطـــلاوي، ص 397.
[2] المرجـــع نفســـه، ص 162.

الغموض و تناقضت أقوال المفسريـــن فيه، يلجأ أبو حيـــان إلى التحـــليل اللغوي لاستجـــلاء معنـــى اللفظ، و سنوضح ذلك من خـــلال تعرضنا لهذه المستويات.

I-المستـــوى الصـــوتي:

سجـــلت أولى الدراســـات اللغويـــة اهتمـــام الهنـــود بوصف الصوت اللغـــوي الخـــاص بلغتهـــم السنسكريتيـــة (Sinscrit) وصفـــاً علمياً دقيقـــا، تمثـــل في الدراســـة التي قدمها بانيـــني و المتعلقة بالظواهـــر اللسانيـــة، التي تختـــص بها لغتهـــم، و كان دافعهـــم الرئيسي لهذه الدراســـة هو اهتمامهم بالأداء النطقـــي السليـــم لكتابهم المقـــدس الفيـــدا (VIDA)[1]. و يعود اهتمـــام الأوروبييـــن بالدرس الصوتي في القرن التاسع عشر إلى جهود كل من[2]:

1- المغنـــي مانيول غارسيا الذي أصدر بحثـــا في الصوت الإنســـاني في 1840 و حتى 1855 اختـــرع منظـــاراً للحنجـــرة.
2- هلمولـــتز (Hlmoltz) درس الأصوات من النـــاحية الفيزيـــائية.
3- بروك (Bruke) نشر كتاباً في 1856 عنوانـــه الأسس العامة لدراســـة أصوات اللغة من الناحية الفيزيولوجيـــة.
4- الطبيب التشكيلـــي جرمـــاك (Czermak) استخدم منظار الحنجـــرة ليقف على عمل الوتريـــن الصوتيين.
5- الألماني لبسيـــوس (Richard Lepsius) سجل في 1863 أبجديـــة نموذجيـــة من تـــأليفه.

[1] مبـــادئ اللسانيـــات البنيـــوية، دراسة تحليليـــة استيمولوجيـــة، للطيب دبـــة، دار القصبة للنشر، الجزائر، طبعة 2001.
[2] مباحث في اللسانيات للدكتور أحمد حساني، ديوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائر، 1994، ص 65-66، نقلا عن كتاب جورج مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ص 208-209.

6- الإنجليـــزي ألكسندر مالفيل بال (Alescander Malville Bell) وضع تسجيـــلاً صوتيا أسماه الكلام المرئـــي، حشد فيه العناصـــر التي يتـــألف منها كل صوت من أصوات اللغة.

7- الألماني سيفـــر (Edward Sievers) أصدر في 1876 كتابه: الأســـس العامة في فيزيولوجيـــا الصوت.

و يعـــود الفضل في إثـــراء الدرس الصوتي الحديث إلى العلامة فاردينـــارد دي سوسير الذي أرسى قواعد هذا العلم، و شجع الكثير على التخـــصص في الأصوات فسموا بالصوتييـــن (Les Phoneticiens) أو الفونولوجييـــن (Les Phonologues) و مع تطور البحث اللساني تفرعـــت الدراسة الصوتيـــة إلى علوم مختلفـــة منها[1].

1- الصوتيـــات العامة Phonétique générale.

2- الصوتيـــات الفيزيائيـــة Phonétique Acoustique.

3- الصوتيـــات السمعيـــة Auditive Phonétique.

4- الصوتيـــات الفيزيولوجية النطقيـــة Phonétique Articulatoire.

5- الصوتيات الوصفية أو التزامنية Phonétique descriptive ou statique.

6- الصوتيـــات التاريخيـــة Phonétique historique.

7- الصوتيـــات المقـــارنة Phonétique comparée.

8- الصوتيـــات التجريبيـــة Phonétique expérimentale.

[1] مبـــادئ اللسانيـــات البنيويـــة، الطيب دبـــه، ص 161.

بالإضافـــة إلى مجال الصوتيـــات الوظيفيـــة (La Phonologie) الذي يهتم بوظيفة الأصوات ضمن التركيب المشكل لسلسة الكلام داخل عملية التواصل[1]، و رائد هذا التوجه اللساني العالم الروسي نيكولاي تروبتسكوي (Nicolaï Trubetskoy)، ليتطـــور هذا العلم بعد ذلك على يد ياكوبســـون (Roman Jakobson) و أندري مارتينـــي (André Martinet) و غيرهم من الألسنييـــن الذين كانوا ينتمون إلى حلقة بـــراغ (Prague) اللسانيـــة.

و غير بعيد عن هذا التطـــور الذي عرفه العالم الأوروبي و الأمريكـــي، فإن الجهـــود العربيـــة الإسلاميـــة في الدرس الصوتي لا تقـــل أهمية إذا ما نظرنا إلى المنطـــلق الأول لهذه الدراسات، و المنحصر في القراءة السليمة للقرآن الكريم، كما أنزل على سيد الخلق محمد عليه الصلاة و السلام "انطلاقا من الشعور بمعجزة البناء اللغـــوي على المستويين التركيبي و الدلالي؛ من ههنا بدأ التفكير في النسق الترميزي من ناحيـــة، و التفكيـــر في وضع معايير للحفاظ على النطق السليم من ناحيـــة أخـــرى، و ذلك كلّه حسب ما تقتضيه الكفايـــة اللغوية للمتكلم – المستمع المثالي للسان العربي في البيئـــة اللغوية المتجانسة"[2].

و قد تمثلت أولى المحاولات في جهـــود أبي الأسود الدؤلـــي (68 هـــ) الذي فكر في وضع النقـــاط الدالة على الحركات من أجل ضبط قراءة القرآن الكريم، تليهـــا جهود الخليل بن أحمد الفراهيـــدي (170هـــ) في وضعه معجم العين و ترتيبه لمـــادته على أساس صوتـــي، ترتب من خلاله الأصوات بحسب

[1] مباحث في اللسانيـــات العامة، د. أحمد حساني ديوان المطبوعـــات الجامعية، الجزائر، الطبعة الأولى 1994، ص61.
[2] المرجـــع نفســـه.

مخارجها، ثم تـــأتي جهود سيبويه (180هـــ) في الكتاب، حيث تناول الأصوات اللغويـــة تناولاً شاملاً من حيث المخـــارج و الصفات، و الحالات الطارئـــة على الأصوات أثناء تأليفهـــا و تركيبها في السياق اللغوي: فقد تناولها ابن جنـــي (392هـــ) في كتابه "سرضاعة الإعراب"[1].

بالإضافـــة إلى جهـــود أخـــرى لعلمـــاء آخريـــن أمثال الرازي (606 هـــ) و كثير من المفسرين الذين لم يغفلوا الدرس الصوتي في تفاسيرهم أو توجيههم للقراءات، و هي دراسات أقـــرّ لها علماء الغرب بقيمتهـــا العلمية أمثـــال جورج مونـــان (George Mounin)، و فـــوليـــرز (K. Volerz) و بروكلمان، و إن كان بعضهم يرجع ذلك التطور إلى تأثير العـــرب بالدراسات السابقة و اقتباسهم من الجهود الصوتية و اللغوية عامة التي قدمها بانيني في كتابه.

لقد حاولنا، باقتضاب، أن نشير إلى مراحل تطـــور الدرس الصـــوتي في الغـــرب و أيضاً عند العرب، لنؤكـــد مرة أخرى بأن الجهود اللغويـــة العربية عرفت تطوراً مبهـــراً يعود الفضل فيه إلى الانسجـــام و الاتســـاق الذي عرفه أرقى نص و أبلغ خطاب لم تجدبه قريحـــة الإنســـان منذ الخلق إلى يوم البعث هو كتاب الله المعجز الذي مع كونه يحترم القوانيـــن الصوتية العامـــة للسان البشري، و الخاصة باللسان العربي، له استعمـــالات خاصة للنظام الصوتي العـــربي، تستجيـــب للمقـــام و تراعي السيـــاق، و تؤدي المسعـــى المطلوب، و تحقق التناســـق الصوتي و الانسجـــام الإيقاعي... حيث يقـــف الإنســـان أمام النظام الصوتي القرآني مشدوهاً، عاجزاً عن الإتيـــان بمثله، رغم أنّه مشكـــل من مواد

[1] مباحث في اللسانيـــات العامة، د. أحمد حساني، ص62-63.

خـــام يملكها الجميع. إنّه التشكيل و التأليف، و التـــلاؤم و الانسجام، و التناسق و النظم العجيب الذي حيّـــر العالميـــن، فاختلفت تعابيرهـــم و الشيء واحد[1].

كمـــا تطلعنـــا الآيـــات الكريمـــات على الأهميـــة البالغـــة التي أولاهـــا القرآن الكريـــم لحاســـة السمع المستقبلـــة للصوت و المميّـــزة له يقـــول تعـــالى: ﴿**و إذا سمعـــوا ما أنـــزل إلى الرسول تـــرى أعينهـــم تفيضُ من الدّمع ممّـــا عرفوا من الحق يقولون ربّنـــا آمنا فاكتبنـــا مع الشاهـــدين**﴾ المـــائدة/83. و قال أيضاً ﴿**و قالـــوا لو كنا نسمع أو نعقـــل ما كُنّـــا في أصحـــاب السعيـــر**﴾ الملك/10. و دعانا إلى القـــراءة السليمة بقولـــه ﴿**فـــإذا قرآنـــاه فاتبـــع قرآنـــه**﴾ القيامـــة/18. و قـــال أيضاً ﴿**و قرآنـــا فرقنـــاه لتقـــرأه على الناس على مكـــث و نزلنـــاه تنزيـــلا**﴾ الإســـراء/106. و في ترتيل القرآن و تجويده يقول تعالى ﴿**أو زد عليه و رتل القرآن ترتيلا**﴾ المـــزمل/04. و قال عليه الصلاة «**من أحبّ أن يقـــرأ القرآن غَـــضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد يعني ابن مسعود**»[2]، و كان رضي الله عنه قد أعطي حَظّاً عظيمـــاً في تجويـــد القرآن.

و لقد أظهرت الدراسات الأولى لعلمـــاء اللغة و التفسير أمثال سيبـــوبه (ت 18) (الكتاب)، ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـــ) (سر الفصاحة)، ابن الأثيـــر (ت 637 هـــ) (ابن أبي الأصبـــع المصـــري(ت 684 هـــ) (التحريـــر و التحبيـــر)، حـــازم القرطاجنـــي (ت 684هـــ) (منهاج البلغـــاء و سراج

[1] لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق و الانسجام لخديجة ايكـــر، ص255.

2 تفسيـــر الكشاف للزمخشـــري، ج2، ص461

الأدبـــاء)، و الزركشي (ت 794هـــ) (البرهان في علوم القرآن) و السيوطي (ت 910هـــ) (المزهر في علوم اللغة و أنواعهـــا)، و أكدتها الدراسات الأكاديميـــة العربيـــة و الغربيـــة في السنوات الأخيـــرة، أنّ الانسجام الصوتي في القرآن الكريم نسيج وحده، مخـــالف لما عهده العرب من إيقـــاع في شعرهم و كلامهم المنمـــق المسجوع: فهو "يتخيـــر حروف الكلمة و ينتقـــي أصواتهـــا صافية الذوق في مخارجها، لذيذة السمـــاع، طيبة المجـــرى على اللسان معتدلـــة في تأليفها، خفيفـــة في الفم، نازلـــة على أحسن هيـــأة في الإيقاع، قوية الإيحـــاء، شديـــدة البعث لما تتضمنـــه من المعاني المرادة و الأهـــداف المقصودة من الآيات الكريمـــة، لذلك نجد تناسقهـــا عجيباً في تركيب حـــروف القـــرآن بين الرخو منها و الشديـــد، و المجهـــور و المهمـــوس، و الممـــدود و المقطوع، و الإمالـــة و الروم و الإشمام، و نجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغماً مطرباً يظهر أثره في صوت القارئ"[1]. يقول الرافعي: "ألفـــاظ إذا اشتدت فأمـــواج البحار الزاخـــرة، و إذا هي لانت فأنفـــاس الحياة الآخرة. تذكر الدنيا فمنها عمادهـــا و نظامهـــا، و تصف الآخـــرة فمنها جنتها و صرامهـــا، و متى وعدت من كرم الله جعلت الثغـــور تضحك في وجوه الغيوب، و إن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنـــة ترعد من حمّى القلوب"[2].

هذه الميزات التي اختص بها كتاب الله دفعـــت أبا حيـــان إلى استظهار جوانب التناسق و الانسجـــام التي تحدثـــه الأصوات في الخطاب القرآني، إذ نراه لا يدّخـــر جهـــداً في الوقوف عند أي مظهـــر من المظاهر الصوتية كالإدغـــام

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني، مظاهر الاتســـاق و الانسجـــام لخديجة ايكـــر، ص 385. نقلا عم كتاب ابن القيم و حسه البلاغي في تفسير القرآن لعبد الفتـــاح لاشين ص38، دار الرائد العربي، بيـــروت، ط1، 1402 هـــ/1982 م.

[2] إعجاز القرآن، لمصطفى صادق الرافعـــي، ص26.

و الإظهـــار و الإمالة و غيرها مما يؤثـــر في بنيـــة اللفظة، أو في تركيـــب الجملة، أو ما سوى ذلك مما له علاقـــة بالإيقاع القرآني، لا يجد له أبو حيـــان ضرورة في إطالـــة الحديث عنه لأنه برأيه لا يمت بصلـــة إلى علم التفسير، مثل ذلك ما ذكره عن الحروف المقطوعة في بداية السور، و التي شغلت الكثير من المفسرين و حتى الباحثين المحدثين، و كل أدلى بدلوه بشأن هذه الحروف و تجنّب البعض الحديث عنهـــا تاركاً معنـــاها لله عزوجل. يقول أبو حيان ردّاً على ما أورده الزمخشري في تفسيره لهذه الحروف: "... و قد أطال "الزمخشري" و غيره الكلام على هذه الحروف بما ليس يحصل منه كبير فائدة في علم التفسير و لا يقول على كثير من دعـــاويه برهان..."[1]. و نحن لا نتفق مع أبي حيـــان في هذا الرأي لأننا نعد الزمخشري من السباقيـــن في صفـــات تلك الحروف يقـــول: "و اعلـــم أنّك إذا تأملت ما أورده الله عـــز سلطـــانه في الفواتـــح من هذه الأسماء و حدها نصف أسامي حروف المعجـــم، أربعة عشر ســـواء. و هي: الألـــف و الـــلام، و الميم، و الصـــاد، و الراء، و الكـــاف، و الهـــاء، و البـــاء، و العين، و الطاء، و السيـــن، و الحـــاء، و القاف، و النون، في تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم... و إذا نظرنا في هذه الأربعة عشر وجدنـــاها مشتملـــة على أنصاف أجنـــاس الحروف.

- ❖من المهموســـة نصفها: الصاد و الكاف و الهاء و السين و الحاء.
- ❖و من المجـــهـــورة نصفها: الألـــف و اللام، و الميـــم و الراء، و العين و الطاء، و القاف و الباء و النون.
- ❖و من الشديـــدة نصفها: الألف و الكاف و الطاء و القاف.

[1] البحر المحيط، ج1، ص158.

- و من الرخـــوة نصفها: اللام و الميم و الـــراء و الصـــاد و الهاء و الغين و السين و الحاء و الياء و النون.
- و من المطبقـــة نصفها: الصاد و الطاء.
- و من المنفتحـــة نصفها: الألف و اللام و الميم و الراء و الكاف و الهاء و العين و السين و الحاء و النون.
- و من حروف القلقلـــة نصفها: القاف و الطـــاء"[1].

و كذلك مسألة التكرار: التي أخـــذت أشكالاً و أبعـــاداً مختلفة تتعلق بالتوازنـــات الصوتية التي حققها القرآن بنجـــاح في العديد من السور من جهـــة و من جهـــة أخـــرى يلعب التكرار دوراً هاماً في تـــأكيد المعنى للوصول إلى الأهـــداف المرجوة. و أمثلة ذلك كثيـــرة في جميع السور منها:

1- **تكريـــر** الحرف في الكلمة الواحدة نحو يمددكم (آل عمران/125، مريم/75، الحج/15، نوح/12)، قدداً، شططاً (الجن/15، 04)، عـــدداً (الكهف/11، الجن/24، 28) و غيرها من الأمثلـــة.

2- **الفواصـــل:** لقد كثر في القرآن الكريم ختـــم كلمة المقطع من الفاصلـــة بحروف المد و الليـــن و إلحاق النون و حكمتـــه وجود التمكـــن من التطريب بذلـــك[2]. و قد نعتهـــا أبو حيان بالسجع في سورة الفاتحة يقول: "... و في هذه السورة من التسجيـــع المتوازي و هو اتفاق الكلميتن الأخيرتين في الوزن و الروي، قوله تعـــالى ﴿الرحمن الرحيم﴾ ﴿اهدنـا الصراط

[1] الكشـــاف للزمخشري، ج1، ص 103/100.

[2] ينظر البرهـــان في علوم القرآن للزركشي، ج1، ص94/68.

المستقيم﴾ و قوله تعالى ﴿نستعـــين﴾ ﴿و لا الضاليـــن﴾"[1]. و في موضع آخر في قوله تعالى في سورة البقـــرة الآيتيـــن 285 -286 ﴿آمـــن الرســـول بما أنـــزل إليـــه من ربّـــه و المؤمنـــون كلّ آمـــن بالله و ملائكتـــه و كتبـــه و رسلـــه لا نفرّق بين أحدٍ من رسله، و قالوا سمعنـــا و أطعنـــا غفرانك ربّنا و إليك المصير، لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعهـــا لها ما كسبت و عليها ما اكتسبـــت، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينـــا أو أخطـــأنا ربّنا و لا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به و اعف عنّا و اغفر لنا و ارحمنـــا أنت مولانا فانصرنـــا على القوم الكافرين﴾ يقول: "... التكرار في قوله و ما في الأرض كرر (مـــا) تنبيها و توكيداً و في قولـــه بين أحد من رسله و في قوله ما كسبت و ما اكتسبت إذا قلنـــا إنهما بمعنى واحد إذا كان يعني لها ما كسبت و التجنيس المغاير في آمن و المؤمنون..."[2].

و في عُـــرف المحدثين ما يُفّصل و يؤكـــد رأي أبي حيـــان و غيره و يقرّ بأن التكـــرار جاء في القرآن الكريم ليجسد قوة التركيز الدلالي، إنّه يضطلع بدور الآلية الدلالية التي تؤكد وضعاً قائمـــاً، فهو بذلك ليس معطى زائـــداً في الخطاب القرآني[3]. و هذا بالفعـــل ما يجسده تكرار الكلمـــة أو الجملـــة أو الآيـــة في الخطاب القرآني.

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص153.

[2] المرجع نفسه، ج2، ص385.

[3] التناسب القرآني و آليـــات اشتغاله من خلال الخطاب التفسيري (البحر المحيط نموذجا) لعبد العزيز فارس، ص 113-115 بتصرف.

3-**تكرار الكلمة:** وظف القرآن الكريم هذا التكرار في كثير من السور سعيا منه تعالى إلى تحقيق التوازنات الصوتية و كذلك تحقيق الأبعاد الدلالية و السياقيـــة و الجمالية الموجودة في النص و الشواهـــد كثيرة منها: قوله تعالى

﴿و يريـــدُ الله أن يحـــق الحقّ بكلمتـــه﴾ الأنفـــال/07.

﴿و نخيـــلٌ صنـــوانٌ و غير صِنوانٍ ﴾ الرعـــد/04.

﴿و السمّـــاء رفعهـــا و وضع الميـــزان(07) ألاّ تطغـــوا في الميـــزان(08)﴾ الرحمن /07-08.

4-**تكـــرار الجملـــة:** للغرض نفسه كررت الجمل في كثير من الآيات في أبعـــاد إيقاعية متساويـــة، من شأنها أن تؤثر في المتلقي تأثيراً عجيباً، و ترسخ في ذهنـــه مفاهيم و تعاليم القرآن الكريـــم؛ من أمر و نهي و ترغيب و ترهيـــب و تخويـــف و وعيـــد. من أمثلة ذلك:

قوله تعالى﴿كلاّ سوف تعلمون(03) ثم كلاّ سوف تعلمون(04)﴾ التكاثـــر/03-04.

﴿فإنّ مع العسر يُسراً إنّ مع العُسر يُسراً﴾ الشرح/05-06.

﴿أولى لك فأولى(34) ثم أولى لم فأولى(35)﴾ القيـــامة/34-35.

5-**تكرار الآيـــة:** كررت بعض الآيات في بعض السور بشكل منتظـــم في آخر كل مقطع من مقاطع السورة القرآنيـــة، من مثل قوله تعالى ﴿ويلٌ يومئـــذ للمكذبين﴾ المرســـلات/الآيات: 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49. إذا تكرر ورودها عشر مرات، و قولـــه ﴿فبأيّ ءالاءِ ربكُمَا تكذبـــان﴾ الرحمن/الآيات: 13، 16، 18، 21، 23، 25، 28، 30، 32، 34، 36، 38، 40، 42، 45، 47، 49، 51، 53، 55، 57، 59، 61،

63، 65، 67، 69، 71، 73، 75، 77 تكررت إحدى و ثلاثين مرّة في سورة الرحمن التي تشتمل على ثمان و سبعين آيـــة، يعلق أبو حيان على هذا التكرار بقوله "و التكرار في هذه الفواصل للتأكيد و التنبيه و التحريك، و هي موجودة في مواضع من القرآن الكريم، و ذهب قوم منهم ابن قتيبـــة إلى أن هذا التكرار إنّما هو لاختـــلاف النغم"[1].

و لا نـــراه يفصل الحديـــث في سر هذا التكرار الموجود في الآية، و الظاهر أنّـــه يرفض ما ذهب إليه ابن قتيبـــة و غيره من أن هذا التكـــرار إنّما هو لمجرد اختـــلاف النغم بل الصحيح أنـــه يتجـــاوز الإيقـــاع الصوتي إلى ما لمّح إليه أبو حيـــان دون أن يتوقف عنـــده بالتحليل و المناقشة، بقوله: "التـــأكيد و التنبيـــه و التحريك". و قد تعرض كثيـــر من الباحثين المحدثيـــن لهذا التكرار و كل ذهب به مذهبـــاً خاصاً وفقا للنظريـــات اللسانيـــة الحديثة، و قد استـــأنسنا إلى ما ذهب إليه الدكتور عبد المالك مرتاض في تحليله السيميائي لسورة الرحمن و توقفه عند هذا التكرار واصفا الآيـــة بأنها لـــبُّ هذه السورة، و مفتـــاح سرّها، و تاج جمالهـــا و عقد جيدهـــا، و الموصولـــة بالسّهام الدّالة على تعـــدد العلاقات الرابطـــة بينها، و ذلك لأن النسيج الأسلوبـــي لهذه الآية و إن كان ظاهره إنشـــائيا فإنّهـــا –أي الآية– قد تكـــون قابلـــة للخبريـــة في دلالتهـــا العميقـــة حيث إن الكـــلام لا يمتنـــع في سياقـــه من أن يتحـــول من شكل الاستفهـــام، إلى وظيفـــة تقريريـــة، و كأنّ تقديـــره في الأسلوب المباشـــر البسيط: ما كان ينبغـــي لكلما أن تنكرا أيادي الله عليكمـــا أيّها الثّقـــلان![2] معنـــى ذلك أن

[1] البحر المحيـــط، ج8، ص189.

[2] نظـــام الخطاب القرآني (تحـــليل سيميـــائي مركّـــبٌ لسورة الرحمـــن) د. عبد المالك مرتاض. دار هـــومة للطباعة و النشر، الجزائر، د. ت، ص 201-203.

هنـــاك انزيـــاح أسلوبي؛ بحيث يمكن أن يقـــرأ على غير الاستفهـــام (أي على أساس تقريريتـــة، و تبكييـــتة) انقلب التكـــذيب فيه إلى عدمـــه[1]. و تكـــرار الآية في هذه السورة لا يفهـــم إلاّ من الجانب السطحـــي، لأن سياق الآية في كل مـــرة ذكرت فيها يضفـــي عليها وظيفـــة دلاليـــة و جمالية خاصة، فكلمّا ذكر الله –عزوجل– فكرة في آيـــة أو قرر موقفـــا، أو وعظ موعظة، أو وصف مكانـــاً روحيا وصفا أردفـــه بهذه الآيـــة العجيبـــة انطلاقـــا من الآية الثانيـــة عشرة، من سورة الرحمن[2].

II- المستـــوى الإفـــرادي :

إن الإئتـــلاف الذي تحدثـــه الأصوات اللغويـــة مشكلـــة اللفظ الغـــوي يدفعنـــا لا محالة إلى الحديث عن ثاني مستوى من مستويـــات الدرس اللساني هي المفردة أو العلامـــة اللغويـــة كما حددهـــا فاردينـــو ذي سيوسير، في حديثـــه عن النظام اللساني (Le Système Linguistique)، باعتبـــاره مجموعة من العلامـــات اللغـــوية (Les Signes Linguistiques) الخاضعـــة لمجموعـــة من الضوابط و القوانيـــن، التي يحددها المجتمع اللغـــوي المعيّن.

و الواضح أنّ العلامة اللغوية قد شغلت اللغوييـــن الهنود و الفلاسفـــة الإغريـــق و غيرهم، رهطـــاً من الزمن، من حيث هي معطى نفسي، و ثقافـــي و اجتماعـــي و حضـــاري بشكل عام[3]، قبل خضوعها للمنهـــج الآني الذي رسمه فاردينو ذي سوسير، لاسيمـــا و أن الإنسان منذ نشأتـــه يحـــاول تفسيـــر

[1] نظـــام الخطاب القرآني (تحـــليل سيمـــائي مركّـــبٌ لسورة الرحمـــن) د. عبد المالك مرتاض، ص 201.
[2] المرجـــع نفســـه، ص 50.
[3] مباحث في اللسانيـــات العامة، د. أحمد حساني، ص138.

و تـــأويل الظواهر الطبيعـــية المحيطة به. موظفا مجموعة هائلـــة من العلامات اللغويـــة الدالة العاكســـة للفكر الإنســـاني.

لذلك تظافرت جهود الألسنيين من أجل دراستها و الوقـــوف على دلالتهـــا الإفرادية و السياقية. و هي في تعريف ذي سوسير مركب مؤلف من صورة سمعيـــة (L'image acoustique) و يضع له ذي سوسيـــر مصطلـــح الـــدال (Signifiant)، و الصورة الذهنية أو التصور (Le concept) و يضع له ذي سوسير مصطلح المدلول (Signifie)، فالدال و المدلـــول إذن، وجهـــان لعملـــة واحـــدة، و الرسم التالي يوضح ما ذهب إليه ذي سوسير.

Le Signe Linguistique العلامة اللغوية

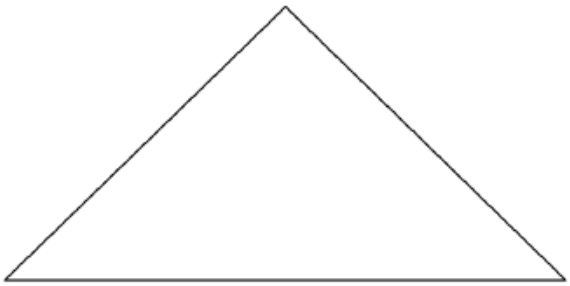

Signifiant الدال — المدلول (Signifie)

l'image acoustique الصورة السمعية — التصور (Le concept)

مقصيا من تعريفـــه المرجع (Le référent) و هو "المكون المادي الخارجي الذي تشيـــر إليه العلامة"[1]. و قد أشار إليه كل من أقـــدن (Ogden) و ريتشـــارد (Ridchards) في تعريفهمـــا للعلامة اللغويـــة: معتبرين بذلك المرجع من أهم

[1] مبـــادئ اللسانيات البنيـــوية للطيب دبـــة، ص 78.

مكونـــاتها، معارضين ما ذهب إليه ذي سوسير، منطلقيـــن من فكرة مفادهـــا "أن عناصر اللغة ما هي إلاّ علامات تملك دلالات محددة [...] و أنّ الخاصة الأساسية للرموز اللغويـــة هي خاصيتهـــا المرجعيـــة (Le caractère référentiel)، و أنه يمكننا الحديث عن مدلول و لكن فقط في الاعتبار الذي يمكن فيه للكلمات أن تصبح "موجهة إلى" و "راجعة إلى" أي أنّ الكلمـــات لا تعني شيئا في ذاتها"[1].

و تتضح فكرتهـــا من خلال هذا الرسم

الفكرة (و تقابل المدلول عند ذي سوسيـــر)

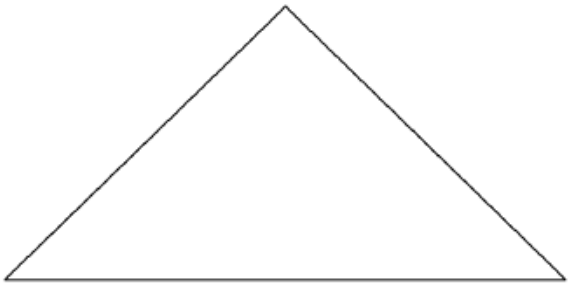

المرجع الرمز (و يقابل الدال عند ذي سوسير)

الشيء المادي الذي تشير إليه العلامة

وسط هذا الزخـــم المعرفي، ظلت دراسة العلامة تستقطـــب اهتمام الكثير من الدارسين إلى أن استقلت في علم خاص بما هو علم العلامـــة أو السيميولوجيا (La Simiologie)، كما خضعت دراستها إلى مجموعـــة من النظريات اللسانية المختلفة و المتباينة. و نحن في هذه الالتفاتة التاريخية البسيطة لا يمكننا الوقوف عند

[1] مبـــادئ اللسانيات البنيـــوية للطيب دبـــة، ص 78-79 نقلا عن:
Enrico Arcaini, Principes de linguistique appliquée payot, Paris 1972, P164.

هذه النظريات، بل حري بنا أن نشد الرحال إلى تراثنا العربي و نتتبع و لو باقتضاب مفهوم العلامة عند علمائنا.

و بدون أدنى شك، كان اللفظ القرآني بكل حمولته الدلالية يشغـــل علماء الإسلام كثيـــراً مما دفعهم إلى البحث في مفهـــوم العلامة، و لم يكن تعريفهم مختلفاً عمّا رأينـــاه عند علماء الغرب، فإبن سينا مثلاً، كان دقيقـــا في تحديده لدلالة اللفظ يقول: "أنّ الإنسان قد أوتي قوة حسيّـــة ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، و تتأذى عنهـــا إلى النفس، فترتسم فيها ارتساماً ثانيا ثابتا، و إن غابت عن الحس (...) و معنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيـــال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معنـــاه"[1]. و هو الرأي نفسه الذي ذهب إليه ذي سوسير مقصيا بدوره المرجع أو الواقع الخارجي، بيد أن الغزالي يرى أن الأشياء في الوجود لها أربع مراتب حيث يقول: "إنّ للشيء وجوداً في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، و اللفظ دال على المعنى الذي في النفس، و الذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان"[2].

هذه الإلتفاتـــة المبكرة لعلاقة الدال بالمدلول تؤكد وعي العلماء العرب؛ بأن اللغة نظـــام من العلامـــات و السمات، و لا معنى للعلامة أو السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه على حد قول الجرجاني[3].

[1] مبـــادئ اللسانيات البنيوية للطيب دبة، ص 79، مباحث في اللسانيات العامة د. أحمد حساني ص142. نقلا عن كتاب الشفاء (العبارة) لابن سينا تحقيق محمود الخضري، القاهرة، سنة 1670، ص3-4.

[2] مباحث في اللسانيات العامة، ص 143 نقلا عن كتاب معيار العلم للغزالي، ص35-36

[3] المرجع نفسه، ص142.

و هكذا فإن أولى الجهود العربيـــة كانت مهتمة بدلالة اللفظ حيث ألّف لهذا الغرض عدد كبير من المعاجـــم الجامعة في صفحاتها زخمـــاً من الحقول الدلاليـــة المستنبطة من البيئة اللغوية العربية: ممّا سهّل على الكثيرين كشف غموض بعض ألفاظ القرآن الكريم، فكثير منها قد يجهـــل معناه إذا لم نتوصل إلى مادته اللغوية التي بُني منها اللفظ،كما أنّ للسياق اللغـــوي دوراً هاماً في تحديد الحقل الدلالي الذي ينتمي إليه اللفـــظ، بالإضافة إلى مؤلفات كثيرة عنيت بالحقـــول الدلاليـــة منها جهود الجاحـــظ (255هـــ) و الجرجاني (475هـــ) و ابن جنـــي و غيرهم كثير.

أمّا المفسرون فقد أولوا اهتماماً خاصًّا باللفظ القرآني، لكونه مفتـــاح كل آية استغلق على الذهن البشري الوصول إلى كنههـــا، و كان لكل مفسر طريقتـــه في تناوله بالشرح و التحليل، سعيا منه إلى استجلاء بعض ما انبهم معناه في السياق و من ثمة في النص بكامله.

ألا ترى أنّ الألفـــاظ القرآنيـــة "البديعـــة موافقة بعضهـــا بعضـــاً في اللطـــف و البراعة، ممّا يتعذر على البشر و يمنع ذلك أنّه قد علم أن تخيّـــر الألفاظ المعاني المتداولة المألوفة، و الأسبـــاب الدائرة بين الناس، أسهل و أقرب من تحيز الألفاظ بمعـــانٍ مبتكرة، و أسباب مؤسسة مستحدثـــة، فلو أبرع اللفـــظ في المعنى البارع كان ألطف و أعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، و الأمر المتقرر المتصور، ثم تضاف إلى ذلك التصرف البديـــع في الوجوه التي تتضمـــن تأييد ما يبتـــدأ تأسيسه و يراد تحقيقـــه بأنّ التفاصيل في البراعـــة

و الفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، و المعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعـــة أظهر و الفصاحـــة أتم"[1].

لهذا كلّه، خصصّ أبو حيان حيّزاً كبيراً من تفسيره تناول من خـــلاله اللفظ القرآني مهتماً بالدرجة الأولى بالفعل ثم الإسم ثم الأداة. و قد كانت لنا وقفـــة مع أبي حيان في تعامله مع الفعـــل في سورة البقرة، من خلال بحثنا المقدم لنيل شهادة ماجيستير، و اهتمامه بكل ما يعتريـــه من إبدال و إعلال و قلب مما قد يؤثر على الصيغة الإفراديـــة للفعل، و من ثمة على صيغته التركيبية، و اعتنى بدرجة كبيرة بالأفعـــال المزيدة لما يعتريها من تغيير في المعنى و لما أثارته من جدل بين المفسرين، و لا بأس ههنا أن نتوقف عند بعض هذه الأفعال.

1- تفسير للأفعـــال:

أ- المجرد المفتوح العين: و هو أكثر الصيغ الصرفيـــة استعمالاً في القرآن الكريم لأنه أخف أبنيـــة الأفعال و لأنّه يستعمل غالباً لجميـــع المعاني مثل:

* صيغة (قتل) في قولـــه تعالى ﴿**فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم**﴾ البقرة/54.

يستعـــرض أبو حيان معاني القتل في الاستعمال اللغوي و هي معـــانٍ متفق حولها، و إن كان هناك ثمة اختلاف بين المفسرين فهو متعلق باستعمـــال الفعل في هذا الحقل الدلالي المعجـــز، فيذكر أبو حيان تخريجـــات مختلفـــة للمفسرين. بعدها ينتقل إلى اختلاف القراءات و تخريـــج تلك القراءات و في كل هذا لم يكن

[1] اعجاز القرآن للباقـــلاني، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الرابعـــة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنـــان، ص66.

مجـــرد واصف؛ و إنّما يختار من بين تلك الأقـــوال و القراءات ما يناسب سياق الآيـــة و سنحاول في هذه النقاط الإلمام بالمراحل التي اتبعها أبو حيان في تعامله مع فعل القتل في الآية الكريمة.

❖**المرحلة الأولى:** المعنى اللغـــوي لفعل القتل:

يقول أبو حيان "القتل إزهـــاق الروح بفعل أحد من طعن أو ضـــرب أو ذبح أو خنق أو ما شابـــه ذلك. و أمّا إذا كان من غير فعل فهو موت هـــلاك"[1].

و هو ذات المعنى الذي وجدنـــاه في المعاجم العربية، ففي التهذيـــب (قتله) إذا أمـــاته بضـــرب أو سم أو علّة فهو قاتـــل و ذاك مقتول و النيـــة قاتلـــة[2]. و يفسر القتل عند معظـــم المفسرين بازهـــاق الروح يقول الطبرســـي: "القتـــل و الذبح و الموت نظائر و الفرق بينهما، أن القتـــل نقض بنية الحياة و الذبح فري الوداح، و الموت عن من أنبتـــه عرض يضاد الحياة و القِتلُ العدو و جمعه اقتـــال و القتـــال النفس"[3].

❖**المرحلة الثانيـــة:** المعنى الاصطلاحي لفعل القتل:

يقول أبو حيـــان: "ذهب ابن اسحـــاق إلى أن القتل في الآية الكريمة من الاستسلام للقتـــل و سمي كذلك على سبيل المجاز فتخلص في قولـــه فاقتلوا ثلاثة

[1] البحر المحيط، ج1، ص 367.

[2] معجم اللسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي المصري، ص 547- معجم تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنـــان، م6 ص 75.

[3] تفسير مجمع البيان للطبرسي، ج1، ص105.

أقوال: الأول بقتل أنفسهـــم، الثاني الاستسلام للقتل، و الثالث التذليل للأهـــواء، و الأول هو الظاهر و هو الذي نقله أكثر الناس"[1].

و بهذا يكون أبو حيـــان قد اختـــار من بين الاحتمالات الثلاث في تفسيـــر فعل القتل المعنى الموافق لسيـــاق الآية و لجمهور المفسرين و بالتالي فاستعمـــال الفعل ههنـــا استعمال حقيقي و ليس مجـــازيا.

❖ **المرحلة الثالثـــة:**

يخلص فيها أبو حيـــان إلى ما ذهب إليه بعضهـــم في قراءة الفعل "فأقيلوا" و أيضاً "فاقتالوا" بدل "أقتلـــوا" و في تخريجـــه للقراءتيـــن يؤكد على عـــدم صحتهما و عدم موافقتهمـــا لسيـــاق الآية يقول:

1- **قـــراءة "أقيلـــوا"**: قرأ قتادة و ابن عطيـــة و التبريـــزي و غيرهم "فأقيلوا" و هو أمر من الإقالة، و كأنّ المعنى أن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيـــم الذي تعاطيتمـــوه من عبادة العجـــل، و قد هلكت فأقيلوها بالتوبة و التـــزام الطاقة. و أزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهـــار الطاعات[2].

2- **قـــراءة "اقتـــالوا"**: قال الثعلبي قرأ قتـــادة: فاقتالوا أنفسكم و هو افتعـــل بمعنـــى استفعل أي فاستقيلوهـــا، و المشهور استقال لا اقتـــال و التصريف يضعف أن يكون من الاستقالة، فهذه اللفظة لا

[1] البحر المحيط، ج1، ص 367.
[2] المرجع نفسه، ص 368.

شك مسموعة بدليل نقل قتادة لها، و يكون مما جاء فيه بمعنى استفعـــل، و هو أحد المعاني التي جاءت لها افتعل، و ذلك اعتصم و استعصم، قال السلمي (فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا إليه بأسراركم و قلوبكـــم فاقتالوا أنفسكم بالتبـــري منها فإنّها لا تصلح لبساط الأنـــس[1].

* صيغة (تـــلا) في قولـــه تعالى ﴿و اتبعُـــوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمـــان﴾ البقرة/102.

يتبع أبو حيان المراحل ذاتهـــا التي استعان بها في تفسيـــر فعل القتل، مع اختلاف بسيط، إذ يذكر المعـــاني المختلفة لفعل التلاوة، و لا يصـــرح بالمعنى المراد في الآية. فأحال ذلك راجعـــاً إلى أمرين هاميـــن:

1- عدم وجود اختلاف بين المفسرين في معاني التـــلاوة التي ذكرت في القرآن الكريـــم.

2- إذا كان المعنى الفعل واضحاً في سيـــاق الآية، فإنّ أبا حيـــان يفضل السكوت على الإفصـــاح، و سنوضح ذلك من خلال هذه المقـــارنة البسيطـــة.

❖ معنـــى (تـــلا) في المعاجم: حدد الراغب التلاوة في اتبـــاع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة و تارة بارتســـام لما فيه من أمر و نهي و ترغيب و ترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك و هو أخص من القراءة، فكل تلاوة قـــراءة

[1] البحر المحيط، ج1، ص 368.

و ليس العكس، و عن عطاء على تحـــدث و تقص، و قيل ما يتكلم به كقولك: فلان يتـــلو كتاب الله أي يقرؤه و يتكلم به[1].

❖ معنـــى الفعل (تـــلا) عند أبي حيـــان: ذكر أبو حيـــان في تفسيره من معـــاني التلاوة ما يلي: "تـــلا يتلو اتبـــع، و تلا القرآن قرأ و تلا عليه كذب قاله أبو مسلم، و قال أيضاً تلا عنه صدق، فإذا لم يذكر الصلتين احتمـــل الأمريـــن"[2]. و في موضع آخر يفسر أبو حيان التلاوة بالقراءة في الآية الكريمة 121 من ســـورة البقرة ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوتـــه**﴾ يقول: "يتلونـــه حق تلاوته أي يقرؤونه و يرتلونه بإعرابه"[3].

❖ معنـــى الفعل (تـــلا) عند الزمخشـــري: يعرف الزمخشري التلاوة بالإتبـــاع في قوله تعالى في الآية 30 من سورة يونس ﴿**هنالك تتلو كلُّ نفس ما أسلَفَـــت**﴾: " و قرئ تتلو أي تتبـــع ما أسلفت لأن عمله هو الذي يهديـــه إلى طريق الجنّة أو إلى طريق النّـــار"[4].

❖ معنـــى الفعل (تـــلا) عند الفخر الرازي: ذكروا في تفسير (تتلو) وجوها أحدها: أن المراد منه التـــلاوة و الإخبار، و ثانيهـــا: قال أبو مسلم (تتلـــو) أي تكذب على ملك سليمـــان يقال تلا عليه إذا كذب، و تلا

[1] معجم تاج العروس، م10، ص52 – معجم لسان العرب، م14، ص104.
[2] البحر المحيط، ج1، ص318.
[3] المصدر نفســـه، ج1، ص 369.
[4] الكشاف للزمخشري، ج2، ص203

عنه إذا صدق، و إذا أبهم جاز الأمـــران، و الأقـــرب هو الأول، لأنّ التلاوة حقيقـــة في الخبر إلاّ أنّ المخبر يقـــال في خبره إذا كان كذبا إنّه تلا فلان، و إنّه قد تلا على فلان ليتميّز بينـــه و بين الصدق الذي يقـــال فيه روى على فلان، بل يقال روى عن فـــلان و أخبر عن فلان... و لا يمتنع أن يكون الذي كانوا يخبرون بـــه عن سليمـــان ممّا يتلى و يقرأ فيجتمع فيه كل الأوصاف"[1].

و عليه، فمعنى التلاوة في الآية قصد بها القراءة و لكن الشياطيـــن لم يكونوا صادقين في تلك القراءة بل كذبوا على ملك سليمان، و بالتالي هناك اختلاف بين ما أورده باختصار أبو حيان في تفسير الفعل و بين ما ذُكر في المعاجم العربيـــة أو ما ذكره جلّ المسافرين.

* الفعل (خـــدع) في قولـــه تعالى ﴿**يخادعـــون الله و الذين آمنـــوا و ما يخدعون إلاّ أنفسهـــم و ما يشعـــرون**﴾ البقرة/09.

يواصل أبو حيـــان حديثـــه عن الأفعال المجردة المفتوحة العين بالطريقـــة نفسها: يعرض أوّلاً المعنى المعجمـــي للفعل، ثم المعنى السياقـــي و بعدها يناقش مختلف القراءات الواردة في الفعـــل و ذلك في مراحـــل.

[1] التفسير الكبير الفخر الرازي الطبعة 3 دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنـــان، ج3، ص203.

❖**المرحلة الأولى:** المعنى المعجمـــي للفعل:

أورد أبو حيان معـــاني الفعل (خَـــدَعَ) يقول: "الخـــداع قيل إظهار ما في النفس و أصله الإخفـــاء، و منه سمّي البيت المفـــرد في المترل مخدعـــاً تستر أهل صاحب البيـــت فيه، و منه الأخدعـــان و هما العرقان المستبطان في العنق، و سمّي الدهـــر خادعاً لما يخفي من غوائلـــه، و قيل الخدع أن يوهم صاحبه خـــلاف ما يريده من المكروه من قولهـــم: ضَبٌّ خَادِعٌ و خَدِعٌ، إذا أَمَـــرَّ الحارث – و هو صائد الضب – يده على باب جحـــره أوهمه إقباله عليه ثم خـــرج من باب آخر، و هو راجع إلى معنـــى القول: و قيل أصله الفســـاد من قول الشاعـــر:

أَبْيَـــضُ اللَونِ لذِيـــذٌ طَعْمُـــهُ طَيِّـــبُ الريق إذا الريّقُ خَـــدَعْ*

أيْ فَسُدَ[1].

و هـــذا المعنـــى ليس بعيداً عمّا ذهب إليه الزمخشري يقول في تفسيـــر الخدع : "الخـــدع أن يُوهمَ صاحبـــه خلاف ما يريد به من المكروه من قولهم ضب "خـــادِعٌ و خدعٌ" إذا أمَرَّ الحارث يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر"[2].

❖**المرحلة الثـــانيـــة:** اختـــلاف القراءات:

ذكر أبو حيـــان للفعل خمس قـــراءات مختلفـــة و متباينـــة أوردها مع ذكر توجيـــه كل قـــراءة من تلك القراءات. نوضحهـــا في هذا الجـــدول:

[1] البحر المحيط، ج1، ص 180-181 * ذكـــره في لسان العرب و نسبـــه لسويد بن أبي كاهل يصف ثغر امرأة – انظر اللسان ج2، ص 1113، تهذيب اللغة، ج1، ص 159.

[2] الكشـــاف ج1، ص 170.

القـــــراءة	توجيهـــهـــا
يُخَـــادِعـــون	قراءة الحرميان و أبو عمرو و المعنى في الخداع هنا إنما هو الوصول إلى المقصود من المخدوع بأن ينفعل له فيما يختار و ينال منه ما يطلب على غرّة من المخدوع، فكأنّه ما خادع و لا كاد إلاّ نفسه بإيرادها موارد الهلكة، و يحتمل أن تكون المخادعة على بابها من اثنين فهم خادعون أنفسهم حيث منوها الأباطيل، و أنفسهم خادعتهم حيث منتهم أيضاً ذاك فكأنّها مجاورة بين اثنين أو يكون فاعل بمعنى فعل فيكون موافقا لقراءة و ما يخدعون[1].
يُخَـــادَعُـــون و يُخْـــدَعُون	و من قـــرأ و ما يُخَـــادَعُون أو يُخْدَعـــون مبنيـــا للمفعـــول فانتصـــاب ما بعد إلاّ على ما انتصب عليه زيد غُبُـــنَ رأيـــه[2].
يُخَـــدَّعُـــون	و في القـــراءة و ما يُخَـــدَّعُون فالتشديد إمّـــا للتكثير بالنسبـــة للفعلين أو للمبالغة في نفس الفعـــل إذ هو مصير إلى عذاب الله[3].
يُخَـــدْعُـــون	أصلها يختدعون فأدغم، و يكون افتعل فيه موافقا لفعل نحو اقتدر على زيد و قدر عليه و هو أحد المعاني التي جاءت لها افتعل[1]

ب-الفعل المجرد المكسور العين: ورد فَعِلَ المجـــرد الثلاثي بكثرة في كتـــاب الله سبحانه و تعالى و يستعمل هذا البناء بكثرة للتعبيـــر عن "الأعـــراض

[1] البحر المحيط، ج1، ص 187.
[2] المصـــدر نفســـه.
[3] المصـــدر نفســـه.
[1] المصـــدر نفســـه.

من العلل و الأحزان و أصدادها كسَقِمَ و مَرِضَ، و حَزِنَ و فَرِحَ، و جذل و أشر، و الألـــوان كـــأَدِمَ و شَهِبَ و سَوِدَ"[1].

و هذا الـــوزن أكثر استعمالا من فَعُلَ يكثر منه – كما قلنـــا – في الأعـــراض و الأدواء و العلـــل على حد قـــول سيبويـــه: نحو: مَرِضَ يَمْـــرَضُ، و وجِـــعَ يُوجَـــعُ، و الحـــزن نحو حَزِنَ يَحْزَنُ، و الرفعـــة أو الضِعَـــة نحو غَنِيَ يَغْنَـــى، و شَقِيَ يَشْقَـــى و الصفة الحميـــدة أو الحليلـــة نحو: حَـــوِرَ يَحْـــوَر، و الجهـــل أو العلـــم نحو: جَهِلَ يَجْهَل و فَهِمَ يَفهَم..."[2].

و يبـــدو أن المعـــاني التي ذكرها سيبويه و الأخفش دلّت كلّـــها على صفـــات و أضداد، جمعت بين المحسوس و المعقـــول، و هي صفات غير ثابتة أو غير دائمـــة في الموصوف كالوجع و الحزن و السفـــه و غيرها مثال ذلك ما جاء في كـــلام الله عزوجل.

﴿ و إذا مرضـــت فهو يشفيـــن ﴾ الشعـــراء/80.

﴿ و لو ترى إذ فَزِعُـــوا فلا فوت و أُخذوا من مكان قريب﴾ سبأ/51.

﴿ قد خَسِـــرَ الذين كذبـــوا بلقـــاء الله﴾ الأنعـــام/31.

﴿ وَسِعَ كُـــرْسيُّـــه السمـــوات و الأرض﴾ البقـــرة/255.

و غيرهـــا من الآيات التي ذكر فيهـــا المجرد المكسور العيـــن بالمعاني التي ذكرهـــا علماء اللغة، و يستوقفنـــا أبو حيان في سورة البقـــرة مع الفعـــل

[1] شرح المفصل لابن يعيش موفق الدين يعيش بن علي، صححه و علق علي حواشية و مراجعة مشيخة الأزهـــر، دار الطباعة المنيرة مصر، ج7، ص 157.

[2] الكتـــاب لسيبـــويه، شرح و تحقيق عبد السلام هـــارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1316.

(سَفِـــهَ) من قوله تعـــالى ﴿ **و مَنْ يَرْغَبُ عن مِلّةِ ابراهيـــم إلاّ من سَفِهَ نفسه**﴾ الآية 130 و يذكر معنـــى السّفـــهِ لغةً لينتقـــل إلى معنـــاه في سياق الآيـــة دون أن يشيـــر إلى أي اختـــلاف بين المفسرين. لذلك فإن أبا حيـــان اكتفـــى بإيضاح المعنـــى الذي جاءت به صيغـــة فَعِـــلَ في الآية يقول في معنـــى السفه لغـــة: "السّفه الخِفّـــةُ و منه قيل للثوب الخفيف النسج سفيه، و في الناس خِفّة الحِلْم: قاله ابن كِيسان، أو البهت و الكذب و التعمد خلاف ما يعلمه قاله مؤرج، أو الظلم و الجهـــل، قال قطرب، و السفهاء جمع سفيه و هو جمع مطرود في فعيـــل، الصحيح الوصف المذكر العاقل، الذي بينه و بين مؤنثه التـــاء، و الفعل منه سَفِهَ بكسر العين و ضمها و هو القياس لأحل اسم الفـــاعل، قالـــوا و نقِيضَ السّفه الترق و الطيش"[1].

و جـــاء في المعجم معنى السفه الحِلم، و أصلـــه من الخفـــة و الحركـــة، و قيل الجهل، و هو قريب بعضـــه من بعض، و سَفِـــهَ رأيه و نفسه بالكسر سَفْهاً و سَفَاهَـــةً و سَفَاهاً قاله اللحياني، كما قالوا سَفُه كَكَـــرُمَ و هما لغتان[2].

و قد استعمل الفعل في الآيـــة استعمالاً حقيقيـــا باتفاق مع جل المفسريـــن يقول أبو حيان: "معنى الآية أنّه لا يزهـــد و يرفع نفسه عن طريقة إبراهيـــم، و هو النبي المجمع على محبتـــه من سائر الطوائف، إلاّ من أَذَلّ نفســـه و امتهنها، و قال ابن عباس معنى سَفِهَ نفسه خَسِرَ نفسه، و قال أبو ورق عجز رأيه عن نفسه، و قال يمان حَمُقَ رأيه، و قال الكلبي قتل نفسه، و قال ابن بحر

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص 565.

[2] معجم لسان العرب م3، ص 497-498، معجم تاج العروس، م9، ص390.

جهلها و لم يعرف ما فيها من الدلائل، و حكى عن بعضهم أنّ معناه سَفِهَ حقَّ نفسه"[1].

و كل هذه المعاني متقاربـــة تدل على الهـــوان، لأنّ من رجع عن ملّة إبراهيـــم و عاد إلى الكفر و الضلال أهان نفسه و استخف بها و قادهـــا إلى الهلاك، و يبدو أن تفسيـــر يمّـــان سَفِهَ بحمُقَ المضمـــوم الفـــاء، و الدّالة على صيغتـــه على الضـــرورة و الثبات راجع إلى قراءة من قرأ الفعل "سَفُـــه" مضموم الفاء، و قد ذكر أبو حيان بأن ذلك معناه صار سفيهاً مثل فَقُـــه صار فقيهاً[2].

* الفعل (أذِنَ) من قوله تعالى ﴿**فإن لم تَفْعَلوا و لنْ تفْعَلوا فاذَنُـوا بحَرْبٍ من الله و رسُـوله**﴾ البقرة/279.

يفسر أبو حيـــان الإذن بقوله: "ظاهـــره فإن لم تتركـــوا ما بقـــي من الرّبـــا، و سمي الترك فعـــلاً، و إذا أمروا بترك ما بقي من الربا لزم من ذلك الأمـــر بترك إنشـــاء الربا على طريق الأولى و الأحـــرى"[1]. يعنـــي ذلك أنهم إن لم ينتهـــوا بترك الربا و هم يعلمـــون بتحريمه كفـــروا بجميع شرائع الإسلام فاستعمال الفعل استعمال حقيقي، فأَذِنَ بالشيء إذنـــاً و أذنـــاً و أذانـــة: عَلِمَ يقول أبو عبيدة آذنتـــك بحرب فآذنـــت به تأذن إذنـــا أي علمت"[2].

[1] البحر المحيط، ج1، ص 565.
[2] المصدر نفســـه، ج1، ص 565.
[1] المصدر نفســـه، ج2، ص 352.
[2] معجم لسان العرب، م13، ص9.

قرأ حمـــزة و أبو بكـــر في غير روايـــة البرجمي و ابن غـــالب عنه فآذنـــوا أمر من آذن بمعنى أعلم[1]... و نقل الفخـــر الرازي في تفسيره أن الرسول عليه السلام و علي بن أبي طـــالب – كرّم الله وجهه – قرأ كذلك بالمد و قراءة الجمهـــور فاذنـــوا بهمزة وصل و فتح الذال أمر من أذن الثلاثـــي[2] كقولـــه عز وجـــل: ﴿لا يتكلمـــون إلاّ مَنْ أذِنَ له الرحمن﴾ النبـــأ/38، و يقول الزمخشـــري "آذن منقول من أذن إذا عَلِمَ و لكنّه كثر استعماله فجرى مجرى الإنـــذار كقول ابن حلّـــزة * آذَنَـــتْـــنَا بِبَـــيْنِهَـــا أسْمَاءُ*"[3].

و توجيـــه القراءتين يوضحـــه أبو حيـــان:

قـــراءة فـــآذنـــوا	قـــراءة فـــاذنـــوا
تقديره فأعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب، و المفعـــول محذوف و قد ثبت هذا المفعول في قوله تعـــالى ﴿فَقُـــلْ آذَنْـــتُكُـــم على ســـواء﴾ الأنبيـــاء/109 و إذا أمروا بإعلام غيرهم علموا هم لا محـــالة، قال ففي إعلامهم علمهم و ليس في علمهم إعلامهم، فقراءة المد أرجح لأنّها أبلـــغ و آكـــد[1].	قال الطبـــري قراءة القصر أرجح تختـــص بهم و إنّما أمـــروا على قراءة المد بإعـــلامهم غيرهـــم[1].

[1] كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجوزي، تحقيق محمد أحمد الدهمـــان، ط1، مطبعة التوفيق، دمشق، سوريا، ج1، ص 236.

[2] تفسير التحرير و التنوير للإمـــام الطاهر بن عاشور الدار التونسيـــة للنشر/ م.و.ك الجزائر، 1984، ج2، ص 586.

[3] الكشـــاف، ج2، ص 586.

[1] البحر المحيط، ج2، ص 586.

[1] المصدر نفســـه.

و نظـــن أبا حيّـــان حين لم يعقب على هذه الآراء المتضاربـــة يذهب إلى ما ذهـــب إليه ابن عطيـــة و يجعل القراءتين عنـــده سواء، إذ المخاطب محصور: "لأنّـــه كل من لم يذر ما بقي من الربـــا، فإن قيـــل فاذنـــوا فقد عمهم الأمـــر، و إن قيـــل فآذنـــوا بالمد فالمعنـــى أنفسكم أو بعضكم بعضاً، و كأّن هذه القراءة تقتضـــي فسحـــاً لهم في الارتياد و التثبت فأعلموا نفوسكم هذا ثم انظروا في الأرجـــح لكم ترك الربا أو الحرب"[1].

ج- المجرد المضمـــوم العين: تستعمل هذه الصيغـــة للأوصاف التي جبل عليها الإنسان و التي تكون طبائع فيه. "فهذه الأوصاف مخلوقة، و تدل على الصفة التي طبع فيها صاحبهـــا، أي الحسن و القبـــح... و الكبر و الصغر، و الطـــول و القصـــر... و يلاحظ أن عينه قد صمت لأنها كانت خلقة و طبيعة ... لذا جُعِل الضم علامة للخلقة"[2]، مثال قوله تعالى:

﴿فبَصُـــرَت به، عن جُـــنُبٍ و هم لا يشْعُـــرُون﴾ القصـــص/11

﴿فمن ثَقُـــلت موازينـــه، فأولئـــك هم المُفْلِحُـــون﴾ الأعراف/08

﴿كَبُـــرَ على المشركين ما تدعوهـــم إليه﴾ الشـــورى/13

و لم يتعرض أبو حيـــان لواحد من أبنية هذه الأفعـــال بالمناقشة و التحليل إلاّ فيما يتعـــلق بالتركيب سعيا منـــه لإظهـــار انسجـــام النص و اتســـاقه.

[1] تفسير المحرر الوجيـــز، لأبي محمد بن عطيـــة، تحقيق عبد الله بن ابراهيـــم الأنصاري و السيد عبد العال السيد ابراهيـــم، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانيـــة، ج2، ص 492-493.

[2] أبنيـــة الفعل في شافية ابن الحاجب (ت646 هـــ) دراسة لسانية و لغوية، لعصام نورالدين المؤسسة الجامعيـــة لبنـــان، ط1، 1982، ص 133/132

د- الأفعـــال المزيـــدة: ذكر الفعـــل المزيد بكثـــرة بكامـــل القرآن الكريـــم، و المزيد هو ما زيد عن حروفـــه الأصليـــة بحرف أو حرفين أو ثلاث، و لقد تعرض أبو حيـــان إلى المزيد في القرآن الكريم و توقـــف مطولاً عند معـــاني حروف الزيادة، ليذكر الأقوال المتباينـــة التي ذكرت في معانيهـــا، فيناقشها و يرد بعضهـــا في حال عدم موافقتهـــا المعنى المراد من الآيـــة الكريمة، مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿**و على الذين يطيقونه طعام مسكيـــن**﴾ البقـــرة/184.

ذكر الفعل أطاق مرّة واحدة في القرآن الكريم و التلاثي منه ليـــس في القرآن[1]. و قد فسّر أبو حيان الفعل بالقدرة و الاستطاعة و هي معـــان متقاربة يقـــول: "الطاقة و الطوق القدرة و الاستطاعة، و يقال طـــاق أطاق كذا أي استطاعه و قدر عليـــه، قال أبو ذئب:

فَقُلْتُ لَهُ احْمِلْ فَوْقَ طَوْقِكَ إِنَّها مَطْبَعَةٌ مَنْ يَأْتِهَا لا يُضِيرُهَا*"[2]

و هي نفسهـــا المعاني التي ذكرها صاحب تاج العـــروس[1] و أكد عليها المفسرون[2]، و ينتقل أبو حيان إلى ذكر القراءات المختلفـــة التي قرئ بها الفعـــل[3].

[1] دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الخالق عظيمة/ دار الحديث القاهرة، ج1 ص 110، ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الجيل بيـــروت.

* هو من البحر الطويل (لأبي ذؤيـــب الهذلي)، ينظر هامش الصفحة نفسها من البحر المحيط.

[2] البحر المحيط ج2 ص 31.

[1] ينظـــر تاج العروس م6، ص427.

[2] يقول الطبرسي: " الطوق الطاقة و هي القوة يقال طاق الشيء يطوقه و طاقة و أطاق إطاقة إذ قوي عليه و طوّقه تطويقا ألبسه الطـــوق و هو معروف من ذهب كان أو فضة لأنه يكسبه قوة بما يعطيه من الجلالة و كل شيء استدار فهو طوق، و طوقـــه الأمير أي جعل كالطوق في عنقه، فَقُلْتُ لَهُ احْمِلْ فَوْقَ طَوْقِكَ إِنَّها مَطْبَعَةٌ مَنْ يَأْتِهَـــا لا يُضِيرُهَـــا.

ينظر مجمع البيـــان في تفسير القرآن لطبرسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص 272.

[3] البحر المحيط، ج2، ص 41-42.

❖قراءة يطيقـــونـــه: قراءة الجمهـــور من أطـــاق.

❖قراءة يَطُوقُـــونَـــهُ: قراءة حميـــد من أطوَقَ كقولهـــم أطْوَلَ في أَطَـــال و هو الأصـــل، و صحـــة حرف العلّة في هذا النحـــو شاذة من الواو و من اليـــاء و المسموع من أجود و أعول و أطول، و أغميـــت السماء و أخيلت و أغيلت المرأة و أطيب، و قد جـــاء الإعـــلال في جميعهـــا و هو القيـــاس و الصحيح كما ذكرنـــا شاذ عند النحويين، إلاّ أبا زيد الأنصاري فإنّـــه يرى التصحيح في ذلك مقيساً اعتبـــاراً بهذه الألفاظ الترة المسموع فيها الاعتلال و النقـــل على القياس.

❖قراءة يُطَـــوَّقُـــونَـــهُ: قراءة عبد الله بن عباس مبنيـــا للمفعـــول من طَـــوَّقَ على وزن قَطَّعَ.

❖قراءة يُطَـــوِّقُـــونَـــهُ: قراءة عائشة و مجاهـــد و طاووس و عمر و ابن دينار من اطَـــوَّقَ، و أصله تَطَوَّقَ على وزن تَفَعَّـــل، ثم أدغموا التـــاء في الطاء فاجتلبـــوا في الماضي و الأمر همزة الوصل، قال بعض النـــاس هو تفسير لا قراءة خلافاً لمن أثبتها قـــراءة.

❖قراءة يَطِيـــقُونَـــهُ: و هي مروية عن مجاهد و ابن عبـــاس، قرئ أيضاً هكذا لكن بضـــم ياء المضارع على البنـــاء للمفعـــول، ورد بعضهـــم و قال: هي باطلة لأنّـــه مأخوذ من الطوق قالوا: و لازمـــه فيه و لا محل لليـــاء في هذا المثال...

و توجيه هذه القراءة الأخيرة بقوله: "و إنّما ضعف هذا أو امتنع عند هؤلاء، لأنهـــم بنوا على أنّ الفعـــل على وزن تَفَعَّـــل فأشكل ذلك عليهم، و ليس كما ذهبـــوا إليه، بل هو على وزن تفعيـــل من الطوق كقولهـــم* يُديـــرُ المكانُ و ما

بها دَيَّـــارٌ* فأصله تطيقـــون، اجتمعت ياء و واو سبقت إحداهما بالسكون فأبدلت الواو ياء و أدغمت فيها الياء، فقيـــل تطيّـــق يتطيّق، فهذا توجيـــه هذه القراءة و هو توجيه نحوي واضح"[1].

و استناداً لرأي أبي حيان فإن كل هذه القـــراءات ترجع إلى معنـــى الاستطاعـــة و القدرة، و بالتالي فهي لا تخل بالمعنى الإجمالي للآية، و ذات الشيء يقوله عن القراءات المختلفـــة التي قرئ بها الفعل "تشـــابه" في قوله تعـــالى: ﴿إِنَّ الْبَقَـــرَ تَشَـــابَهَ عَلَينَـــا﴾ البقـــرة/70، لكنه يرى من الضروري التعرض لتلك القراءات زيادة في الفائـــدة فيورد تلك الوجوه مع تخريج كل قـــراءة.

الوجـــه الأول: قرأ الجمهور "تَشَـــابَهَ" جعلوه فعلاً ماضيا على وزن تَفَـــاعَلَ مسنداً لضمير البقـــر، على أن البقر مذكر.

الوجـــه الثـــاني: قرأ الحسن "يَتَشَـــابَهُ" بضم الهـــاء جعلوه مضارعـــاً محذوف التاء، و ماضيه تشابه و فيه يعـــود على البقر على أنّ البقر مؤنث.

الوجـــه الثالث: قرأ الأعوج بتشديد الشين جعله مضارعاً ماضيه "تَشَّـــابَهَ" أصله "تَشْشَـــابَهَ" فأدغم فيه ضميراً يعود على البقر و روي أيضاً عن الحسن.

الوجـــه الرابع: قرأ محمد المعيطي المعروف بذي الشامة "تشـــبه" علينـــا.

الوجـــه الخامس: قرأ مجاهد "تشـــبه" جعله ماضيا على تفعَّلَ.

الوجـــه السادس: قرأ ابن مسعود "يشّابه" بالياء و تشديـــد الشين جعله مضارعاً من تفاعـــل و لكنه أدغـــم التـــاء في الشين.

الوجـــه السابع: قرئ "مشتـــبه" اسم فاعل من تشبُه.

[1] البحر المحيط، ج2، ص 33.

الوجـــه الثامن: قرأ بعضهم "يتشابه" مضارع تشابـــه و فيه ضمير يعود على البقـــر.

الوجـــه التاسع: قرأ أبيّ "تشابهـــه".

الوجـــه العاشر: قرأ الأعمش "متشـــابه".

الوجـــه الحادي عشر: قرأ ألأعمش أيضا "متشابهـــة".

الوجـــه الثاني عشر: قرأ ابن أبي اسحـــاق تشابهـــه بتشديد الشين مع كونه فعلاً ماضيا و بتاء تأنيث آخره.

و هذه كلّها قراءات جوّزهـــا المفسرون لأنّها لا تخل بالمعنى و توجيههـــا ظاهر لذلك ذكرها أبو حيان، و إن كان يأخذ بقراءة الجمهور "تَشَـــابَهَ" ماضيها من تفاعل، غير أنّـــه يرفض قراءة "تشّابهـــت" بتشديـــد الشين و يستبعـــد أن يكون ابن أبي اسحـــاق قد قـــرأ بها لأن تشديد الشين راجع إلى إدغام التـــاء فيها، و الماضي ليس فيه تـــآآن على حد قول أبي حيـــان[1].

و يختم أبو حيـــان حديثه عن الفعل "تشابه" بتفسير الآيـــة قائلاً: "هذا تعليل لتكـــرار هذا السؤال إلى أنّ الحامل على اسقصاء أوصاف هذه البقرة، و هو تشابهـــا علينا فإنّـــه كثير من البقـــر يماثلهـــا في السن و اللون"[2].

مناقشـــة و تحـــليل:

[1] البحر المحيط، ج1، ص 419-420.

[2] المصدر نفســـه.

نستطيع القـــول بعد عرضنا لهذا العدد القليل من الأفعـــال، التي استوقفنـــا عندها أبو حيـــان؛ أنّ هذا الرجل لم يكن حاطب ليل! و إنّمـــا درايته الكافية بعلـــوم اللغة و الدين خول له تفسير آي القرآن الحكيم و التعامل مع لفظـــه بما يفرضه عليه سياق الآية، إذ الدور الذي يلعبه اللفظ في تحديد انسجـــام و اتساق الخطاب القرآني يفرض على المفسر العناية و الاهتمام. و التطرق إلى كل ما من شـــأنه أن يحقق تماسك وحدات النص، لذلك نلاحظ أنّ أبا حيـــان في تعامله مع الأفعال لم يقص جانبـــا من الجوانب اللغوية المتعلقة بالفعل دون التوقف عندهـــا بالمناقشة و التحليل. منتقـــلاً من الجزء إلى الكل؛ معنى ذلك أنّـــه يتعرض للفعـــل منفصلاً عن السياق الذي ورد فيه، فيتحـــدث عن مادته و معانيه اللغويـــة، التي ذكرت في المعاجـــم و استعملها الشعـــراء في قصائدهم، و كثيراً ما يرى أبو حيـــان ضرورة الاستدلال ببعضهـــا، ثم ينتقـــل إلى المسائل التي تثيـــر الخـــلاف بين المفسرين، سواء كان الأمر يتعـــلق بالقراءة أم بالمعنـــى الذي وظف له الفعل في الآيـــة، و ينتصر في الأخير لرأي جمهور المفسرين مع الدليل على أنّ هذا الرأي ما كان صوابـــاً إلاّ لأنّه يحقق انسجـــام النص القرآنـــي و يربط بين السابق و اللاحق من كلام الله.

و هكذا فإن الآليـــة المنهجيـــة التي اعتمدها أبو حيـــان في تفسير الأفعـــال تتعـــدى حدود البنـــاء النصي إلى إظهـــار دلالة الخطـــاب القرآني من خـــلال تلك الأفعال، و هي المنهجيـــة نفسها التي اعتمدها في تفسير الأسماء بأنواعها و الأدوات الواردة في القـــرآن الكريم.

2- تفسيـــره للأسماء:

تتبعنـــا أبا حيان في بداية تفسيـــره لكلام الله يتعرض للفظـــة "الله" و لفظة "الرحمن" في البسملـــة و يذكر مختلف الأقـــوال التي ذكـــرت في أصـــل لفظـــة "الله" و كذلك "الرحمن".

1- **حديثـــه عن لفظة "الله"**: يقول "الله" علمٌ لا يطلق إلاّ على المعبود بحق، مرتجـــل غير مشتـــق عند الأكثرين"[1]. و إن كان عنـــد البعـــض مشتقـــا و لكن اختـــلف في مادتـــه[2].

- قيل لام و ياء و هـــاء من لاه يليه ارتفع لذلك سميت الشمس إلاهـــة بكسر الهمزة و فتحها.
- قيـــل لام و واو و هـــاء من لاه يلـــوه لوهاً احتجـــب أو استتـــار و وزنـــه إذ ذاك فَعَلَ أو فَعِلَ.
- قيل الألف زائدة و مادته همزة و لام من أَلَهَ أي فَزِعَ قاله ابن اسحاق، أو أَلَهَ تَحَيَّـــرَ قاله أبو عمرو، و أَلَهَ عَبَـــدَ قاله النَّضر، أو أَلَـــهَ سَكَنَ قاله المبـــرد، و على هذه الأقاويل، يقول أبو حيان فحذفت الهمزة اعتبـــاطاً كما قيل في ناس أصله أناس أو حذفـــت للنقل و لزم مع الإدغام، و كلا القولين شـــاذ.
- قيل واو و لام و هـــاء من وَلَهَ أي طرب، و أبدلت الهمزة فيه من الواو نحو أشاح قاله الخليـــل و القنـــاد و هو ضعيف للزوم البدل.
- و قيل أيضا الجمع آلهـــة و تكون فعـــالاً بمعنى مفعـــول كالكتاب يراد به المكتوب.

[1] البحر المحيط، ج1، ص 124.
[2] المصدر نفسه.

و انطلاقا من هذه القراءات المختلفة يحدد أبو حيـــان أصل "أل" في لفظة "الله" يقول: "و أل في الله إذ قلنا أصله الإلاه قالوا للغلبة، إذ الإله ينطلق على المعبـــود بحـــق و باطل، و الله لا ينطـــلق إلاّ على المعبود بالحق، فصار كالنجم للثريـــا، و أورد عليه بأنّه ليس كالنجـــم لأنّه بعد الحذف و النقـــل أو الإدغام لم يطلق على كل إلـــه ثم غلب على المعبود بحق، و وزنـــه على أصله "فَعَّال" فحذفـــت همزتـــه "عال"، و إذا قلنا بالأقـــاويل السابقـــة فأل فيه زائـــدة لازمـــة، و شذ حذفهـــا في قولهم لاه أبوك شـــذوذ... و زعم بعضهـــم أن أل في الله من نفس الكلمة، و وصله الهمـــزة لكثرة الاستعمال و هو اختيـــار أبي بكر بن العـــربي، و السهيـــلي و هو خطـــأ لأن وزنـــه إذ ذاك يكـــون فعـــالاً، و امتنـــاع تنوينه لا موجب له، فدل على أن أل حرف داخل على الكلمة سقط لأجلها التنـــوين"[1].

يقدم لنا أبو حيـــان تحليلاً منطقيـــا لكل قراءة ليضع أمـــام القـــارئ صورة واضحة لمفهـــوم الاسم في السياق القـــرآني من خـــلال المعطيات اللغويـــة المختلفـــة التي تقدمها القراءات و يزيـــد عليها اعتقـــاد البعض أن لفظـــة الله أصلهـــا لاهـــا بالسريـــانية فعربت و صـــارت الله[2]. و من الغريب أيضاً ما ذهب إليه البعض من أن "الله" صفة، و ليس اسم ذات، لأن اسم الذات يعرف به المسمى و الله تعالى لا يدرك حسًّا و لا بديهـــة و لا تعـــرف ذاته باسمه، بل إنّما يعرف بصفاتـــه، فجعله اسمـــاً للذات لا فـــائدة في ذلك، و كان العلم قائمـــاً مقام الإشارة و هي ممتنعـــة في حق الله تعـــالى، و حذفت الألف الأخيرة

[1] البحر المحيط، ج1، ص 124.

[2] قالها أبو يزيد البخيلـــي، ينظر البحر المحيط، ج1، ص 125.

من "الله" لئـــلا يشكل بخط اللاه اسم الفاعـــل من لها يلهو، و قيل طرحت تخفيفا، و قيل هي لغـــة فاستعملـــه في الخطـــأ"[1].

على الرغم من كون هذا الكـــلام مطروحـــاً لا يأخذ به عقـــل متأمـــل و ينعته أبو حيـــان بالشذوذ مرّة و بغريـــب ما قيل مرّة أخـــرى و بالضعف أيضاً، أو يلجـــأ إلى استعمـــال لفظة "زعـــم" و هي طريقـــة تظهر رفضـــه لما جاء به البعض إلاّ أنّه لا يترك شـــاردة و لا واردة ذكرت في قـــراءة حـــرف من حروف القرآن الكريـــم إلاّ و ذكرها للإلمـــام بجوانب الموضوع. و للفائدة أيضاً كما سلف، و أن نبهنـــا على ذلك. و يبقـــى لنا أن نـــؤكد على نقطـــة مهمـــة هي أنّ أبا حيـــان ينطلق في تحـــليلاته و تـــأويلاته من النص ليعـــود إليه فكل الأدوات الإجرائيـــة التي توفرهـــا له علوم اللغـــة من الصـــوت إلى الجملـــة و التي برع فيها هي بمثـــابة سُبل تقوده إلى المبتغى المتحقق من خـــلال تفسيره لآي الذكر الحكيـــم.

و مـــرّة أخرى يتعـــرض للفظة من ألفاظ القرآن الكريـــم، إذ يقـــول في تفسيـــر "الرحمن" من سورة الفاتحة "فَعْـــلان من الرحمة، و أصل بنـــائه من اللازم من المبالغة و شذ من المتعـــدي و أل فيه للغلبة، كهي في الصعق فهو وصف لم يستعمل في غير الله، كما لم يستعمـــل اسمه في غيره و سمعنـــا مناقبه قالوا رحمن الدنيـــا و الآخرة، و وصف غير الله به تعنـــت الملحذين، و إذ قلت الله الرحمن ففي صرفـــه قولان ليسند أحدهما إلى أصل عـــام، و هو أن أصل الاسم الصرف،

[1] قالها أبو يزيد البخيلـــي، ينظر البحر المحيط، ج1، ص 125.

و الآخر إلى أصل خاص و هو أن أصل فعلان المنع لغلبتـــه فيه، و من غريب ما قيـــل أنّه أعجمي بالخـــاء المعجمة فعرب بالحـــاء قاله ثغلب"[1].

و هكذا فإن التـــلازم و التلاحم الموجودان بين اللفظ و السيـــاق القرآني دفع أبا حيـــان إلى التعامل مع ذلك اللفظ و فقا لهذا التلازم، لذلك قلنا أن المسيطر على منهجيتـــه في تفسير آي القرآن الكريم ذلك الانسجام و التناغم الذي نلمسه في وحدات النص المعجز.

و في موضع آخر يفسر أبو حيـــان لفظة "القنـــاطير" في قوله تعـــالى الآية 14 من سورة آل عمـــران ﴿**زُيِّـــنَ للنّـــاسِ حبُّ الشهـــواتِ من النســـاءِ و البنيـــنِ و القناطيرِ المقنطـــرة من الذهبِ و الفضة و الخيْلِ المسوّمَةِ و الأنعـــامِ و الحرثِ ذلك مَتـــاعُ الحيواة الدنيا و اللهُ عنـــده حُسْـــنُ المَئَـــابِ**﴾ يقول: "القنطـــار: فنعـــال نونه زائـــدة قاله ابن دريـــد: فيكون وزنـــه فنعـــالاً من قطر يقطـــر و قيل أصل وزنـــه فعـــلال و فيه خـــلاف أهو واقع على عدد مخصـــوص أم هو وزن لا يحد و لا يحصـــر"[1]. فمن قال فإنـــه عدد مخصـــوص رواه عن النبي صلى الله عليه و سلم و قد اختلف في تحديد هذا العدد:

1/- يقول معـــاذ و بن عمر و عاصم بن أبي النجود و الحســـن مروياً عن أبي في روايـــة: ألف و مائـــة أوقيـــة.

2/- قالـــه أبو هريـــرة: اثنـــا عشر ألف أوقيـــة.

[1] البحر المحيط، ج1، ص125.

[1] المـــصـــدر نفسه، ج2، ص 409.

3/- روى الحسن و رواه الجـــوفي عن ابن عبـــاس: اثنـــا عشر ألف أوقيـــة.

4/- روي عن ابن عبـــاس و عن الحسن و الضحـــاك: اثنـــا عشر ألف درهم أو ألف دينـــار ذهباً.

5/- قـــال ابن المسيـــب: ثمـــانون ألفـــاً.

6/- قـــال مجاهـــد: و روي عن ابن عمـــر: سبعـــون ألف دينـــار.

7/- قـــال الســـدئي: ثمانيـــة آلاف مثقـــال و هي مائـــة رطل.

8/- قـــال الكلبي: ألـــف مثقـــال ذهب أو فضـــة.

9/- قـــال قتـــادة: مائة رطل من الذهـــب أو ثمانـــون ألف درهم من الفضـــة.

10/- قـــال سعيد بن جبير و عكرمة: مائة ألف و مائـــة منّ و مائة رطل و مائة مثقـــال و مائة درهـــم، و غيرها من الأقـــوال التي يذكرهـــا أبو حيان دون أن يرفضهـــا لأنّها مروية عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و يخلـــص في النهـــاية إلى إبـــداء رأيه قائـــلاً: "و أصح الأقوال الأول، و القنطار يختلـــف باختـــلاف البلاد في قدر الأوقيـــة، و المقنطـــرة مفعللـــة أو مفيعلـــة من القنطار و معنـــاه المجتمعـــة كما يقول الألوف المؤلفة و البدرة المبدرة اشتقوا منها وصفاً للتوكيد"[1].

أمّا من قال بأنه وزن لا يحـــد و لا يحصر جعلـــه من قنطر الرجـــل إذا كان عنده قنـــاطير أو قنطـــار من المال، و قال الزجـــاج: هو مأخـــوذ من قنطـــرت الشيء عقدتـــه و أحكمتـــه، و منه سميت القنطـــرة لإحكامها، و قيل قنطرتـــه عبيتـــه شيئا على شيء و منه سمي القنطـــرة فشبه المـــال الكثير الذي يعبى بعضـــه على بعض بالقنطـــرة[2].

[1] البحـــر المحيط، ج2، ص 415.

[2] المصدر نفســـه، ج2، ص 409.

و لم يعقـــب أبو حيـــان على هذه الأقوال؛ فهو كعادته لا يترك شيئا قيل اللفظ إلا ذكره، و ينتهي في الأخير بإبداء رأيـــه و اختيـــار ما يناسب معنى الآية.

و قد يعـــزف أبو حيان عن ذكر المعنى المعجمـــي للفظـــة في كل استعمالاتهـــا كما ذكرت في المعاجـــم العربية لوضـــوح معنـــاها، و لأن الآيـــة تفرض تـــأويل اللفظة حسب ما يقتضيـــه السياق مثل ذلك تفسيـــره للفظـــة "التهلكـــة" في قوله تعالى في ســـورة البقـــرة، الآية 195 ﴿**و أنفقـــوا في سبيـــل الله و لا تُلقُـــوا بأيْديكـــم إلى التهلكـــة و احسنـــوا إنّ الله يحبُّ المحسنيـــن**﴾ يقول: "و في تفسيـــر "التهلكة" أقـــوال: **أحدهـــا**: ترك الجهـــاد و الإخلاد إلى الراحـــة و إصلاح الأموال، قالـــه أبو أيوب، **الثـــاني**: ترك النفقـــة في سبيـــل الله خوف العيلـــة، قاله حذيفـــة و ابن العباس و الحسن و عطـــاء و عكرمة و ابن جبيـــر، **الثـــالث**: التقحـــم في العدو بلا نكـــاية، قاله أبو قاســـم البلخـــي، **الرابـــع**: التصدق بالخبيـــث، قاله عكرمـــة، **الخـــامس**: الإسراف بإنفـــاق كل المـــال، قال تعـــالى ﴿**و الذين إذا أنفقـــوا لم يسرفـــوا و لم يقتـــروا**﴾ ﴿**و لا تجعـــل يدك مغلولـــة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط**﴾ قاله أبو عـــلي، **الســـادس**: الانهمـــاك في المعـــاصي ليـــأسه من قبول تـــوبته، قاله البـــراء و عبيـــدة السلماني، **الســـابع**: القنـــوط من التـــوبة، قاله قـــوم، **الثـــامن**: السفر للجهـــاد بغير زاد، قاله زيد بن أسلم، و قد كان فعـــل ذلك قوم فأدّاهم إلى الانقطـــاع في الطريق أو إلى كونهم عالة على الناس، **التـــاسع**: إحبـــاط الثواب، إمّا بالمن، أو الرياء و السمعة كقوله ﴿**و لا تبطلـــوا أعمالكم**﴾ و هذه الأقـــوال كلها تحتمـــل هذه الآيـــة،

و الظاهر أنهم نهـــوا عن كل ما يؤول بهم إلى الهلاك في غير طاعة الله تعـــالى..."[1].

3- تفسيـــره للحـــروف:

أما تفسيـــره للحروف، فهو يورد ما ذكـــره علماء اللغـــة عن تلك الحروف أو الأدوات في الاستعمـــال اللغوي ثم يتخيّـــر منها ما يوافق سيـــاق الآية و يناسب معناها، من ذلك حديثه عن الباء في ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ يقول: "بـــاء الجر تأتي لمعـــانٍ:

1- **الإلصاق:** حقيقـــة: مثل مسحـــتُ برأسي.
مجـــازاً: مثل مررت بـــزيـــدٍ.

2- **الاستعـــانة:** ذبحـــت بالسكين.

3- **القســـم:** مثل بالله لقـــد قـــام.

4- **السبب:** : ﴿**فبظلـــم من الذين هادوا حرّمنـــا**﴾ النساء/160.

5- **الحـــال:** مثـــل جـــاء زيد بثيـــابـــه.

6- **الظرفيـــة:** زيـــد بالبصـــرة.

7- **النقـــل:** قمـــت بـــزيد.

8- **زائدة للتوكيـــد:** شربـــن بمـــاء البحر[1].

9- **البـــدل:** فليـــت لي بهـــم قومـــاً أي بدلهـــم.

10- **المقابلـــة:** اشتـــريت الفرس بـــألف.

11- **المجـــاوزة:** ﴿**تشقق السماء بالغمام**﴾ الفرقان/25، أي عن الغمام.

[1] البحـــر المحيط، ج2، ص 78-79.

[1] هذا صدر بيت لأبي ذؤيـــب الهـــذلي، أنظر البحر ج1، ص 123.

12- **الاستعـــلاء: ﴿من إن تـــأمنه بقنطـــار﴾** آل عمـــران/75".

و يميـــل أبو حيـــان في الأخير لرأي الكوفييـــن و لجمهور المفسريـــن القائل بأن الباء للاستعـــانة نحو كتبت بالقلـــم.

و من معـــاني حروف الجر التي يوردها أبو حيـــان ينتقـــل إلى الحديث عن حرف من حروف العطـــف في قوله تعـــالى في الآية 19 من ســـورة البقـــرة **﴿أو كصيّب من السّماء فيه ظُلُمَاتٌ و رَعْـدٌ و برْقٌ يجْعَلُون أَصَابِعَهُـم فِي ءاذانِهِـم من الصواعِـقِ حَـذَرَ الموت و اللهُ محيطٌ بالكافرين﴾** يقول في تفسير "أو": "لها خمس معانٍ: الشك و الإبهام و التخييـــر و الإباحـــة و التفصيل و زاد الكوفيـــون أن تكون بمعنـــى الواو و بمعنـــى بـــل و كان شيخنـــا أبو الحسن بن الصائغ يقول أو: أو لأحد الشيئيـــن أو الأشيـــاء، و قال السهيلي: أو للدلالـــة على أحـــد الشيئيـــن من غير تعييـــن، و لذلك وقعت في الخبر المشكـــوك فيه من حيث إن الشك تردد بين أمرين من غير ترجيـــح، لا أنها وضعت للشك فقد تكـــون في الخبر و لا شك إذا أبهمـــت على المخاطب، و أمّا للتخييـــر فعلى أصلها لأن المخيّـــر إنّما يريد أحد الشيئين، و أمّا التي زعمـــوا أنّها للإباحـــة فلم تؤخذ لإباحـــة من لفظ "أو"، و لا من معنـــاها، إنّما أخذت من صيغـــة الأمر مع قرائـــن الأحـــوال، و إنّما دخلت لغلبة العـــادة في أن المشتغل بالفعـــل الواحد لا يشتغل بغـــيره و لو جمع بين المباحيـــن لم يعص، علمـــاً بأن "أو" ليست معتمـــدة هنا"[1].

[1] البحـــر المحيط، ج1، ص 218.

و هكذا فإن أبا حيـــان يضع أمامنا أقوالاً مختلفـــة في معاني أو في الآيـــة، و كل تفسير يربطـــه بالمعنى؛ فما وافـــق السياق أو جاز سكت عنه، و ما خالف السيـــاق رفضه و هو قولهـــم أن "أو" معناها الإباحـــة و ذلك حين استهـــل كلامهم بلفظ "زعـــم" بقوله "أما التي زعمـــوا أنها للإباحـــة" فهو دائمـــا لا يبتعـــد عن سياق الآيـــة، حتى لو تعلق الأمر تفسيره للحروف.

نستنتـــج في الأخير أنّ صفة اللغـــوي و المفسر و القارئ اجتمعت في شخص أبي حيـــان، الذي أظهر فطنـــة و ذكاءاً كبيريـــن في الطريقـــة التي عوّل عليها في التعامـــل مع العلامة اللغوية، و التي حيـــك بها ذلك النسيـــج اللغوي الرائـــع، فبراعتـــه و تمكنـــه من علوم اللغة المختلفـــة خول له القـــدرة على تفسير آي الذكر الحكيم بفطنة اللساني و فطنة الفقيـــه المتبحـــر في علوم الدين.

و لم يغفل أبوحيان المستوى الثالث من مستويات الدرس اللساني ألا و هو التركيب. و قد تناولهـــا من جوانب مختلفـــة كما سنرى.

2- المستـــوى التركيبـــي:

يعـــود اهتمام اللغوييـــن بالتركيب إلى الجهود الأولى للهنـــود من خلال كتاب بانينـــي الذي خصّ جزءاً كبيراً منه لدراســـة العلاقة الدلاليـــة الرابطـــة بين أجزاء الجملة مبرزاً أن الجملـــة لا يمكنهـــا أن تؤدي معنـــى خاصاً إلاّ إذا توفرت بها شروط ثلاث: ① التوقـــع (Intuition)،② الاختصاص (Spécialité)،③التقارب(Approximité) أو التجاور (Juxtaposition).

أمّا الإغـــريق فدراساتهـــم كلّها كانت مبنيـــة على المنطـــق، و اتخذوا من الجملـــة قضية من القضايا الفلسفيـــة، ثم أضحت الدراسات اللسانيـــة تعير الجملـــة عنايـــة بالغة راجعـــة إلى "طبيعـــة النسبـــة الحركية للجملة بوصفهـــا آلية جوهريـــة قادرة على توليـــد عدد لا حصر له من البنى اللسانيـــة زيادة على كونهـــا الرابط الضمني بين التمثيل الصوتي، و التمثيل الدلالي للنظام اللساني"[1].

و لقد تمثلت هذه الرعايـــة في بدايتها الجنينيـــة في النظريـــة السوسيريـــة التي أولت اهتمامـــاً بالغاً للبنيـــة (La structure)، من خلال الثنائيـــات التي كانت حجر الأســـاس في تشييـــد عدّة مدارس لسانيـــة في العالم، و من خلالها ميّـــز ذي سوسير بين نوعين من العلاقات في التركيب اللغوي.

* العلاقات الاستبداليـــة Les rapports paradigmatiques
* العلاقات الركنيـــة Les rapports syntagmatiques

حيث توصل دي سوسيـــر إلى أن الخطاب منطوقـــا كان أو مكتوبـــا خاضع بشكل إلزامـــي لما سمّـــاه بخطيـــة اللغة، فالوحدات المؤلفـــة للسلسلـــة الكلامية تتوالـــى و تتلاحق مؤلفـــة الخطاب. فقولك مثلا: أمطـــرت السماء؛ هذه السلسلة الكلاميـــة مؤلفة من وحدتيـــن دالتين أمطـــرت + السمـــاء و كل وحدة مؤلفـــة من متواليـــة صوتية اختيـــرت بعنايـــة فائقة لتـــأدية المعنى، فأمطـــرت مؤلفـــة من: أ + م + ط + ر + ت، و إذا ما حاولنا استبدال وحـــدة بأخـــرى في السلسلة الكلاميـــة نفسها يتغير حتماً المعنى.

1 مباحث في اللسانيـــات العامة، ص 99.

ثم جاءت النظريـــة التوزيعية لتثمين مسعى ذي سوسير مقصية من نظريتهـــا المعنى؛ فالعنـــاصر اللسانية إذن التي لها التواتـــر نفسه، في السياق نفسه يقال إنّ لها التوزيع نفسه، فهي بذلك بدائل توزيعيـــة[1] في نظر ليونارد بلومفيـــلد (Léonard BLOOMFILD) و من سار على نهجـــه.

أما الدراســـات التركيبيـــة الوظيفيـــة فقد ركـــزت على وظيفـــة العناصر المؤلفة للخطـــاب اللغوي، حيث لجـــأ أندري مارتينـــي (André MARTINET) في تحديد الوحدات الموجودة في السلسلـــة الكلاميـــة إلى التقطيـــع المزدوج، الذي يميّـــز اللغة البشرية عن غيرهـــا من الأنظمة الإبلاغيـــة و يتـــألف من تقطيع أولي يحدد من خـــلاله الوحدات المعجميـــة الدالة، و تقطيع ثانـــوي تحدد من خـــلاله الوحدات الصوتية غير الدالـــة.

و وسط التطور الذي عرفـــه العالم في مجال الدرس اللسانـــي عرفت النظريـــة التركيبية تطوراً ملحوظا في آليات وصف و تحليل التركيب مبنى و معنى، في أحضان النظرية التحويليـــة التوليديـــة، التي اكتملـــت صورتها على يد اللساني الأمريكي أفرام نوام تشومسكي (Avram Noam CHOMSKY). الذي كانت أولى إصداراتـــه كتابه المعنون بِـــ"البنـــى التركيبيـــة" 1957: و قد أوضح فيه أن التحليـــلات التقليديـــة للجمل غير كافيـــة من عدّة نـــواحٍ أهمها أنّها قصرت في أن نضع في اعتبارهـــا الفرق بين المستويين السطحي و العميق في البنيـــة النحويـــة، باعتمادها على المنهـــج الوصفي، فكان من الأهداف التي

1 الألسنية، علم اللغة الحديث لميشال زكريا، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1980، ص 15.

يسعى إلى تحقيقهـــا تشومسكي هو تطبيقـــه للمنهج التفسيـــري الذي يمدنا بوسائـــل لتحليل الجمل تدخل في الاعتبـــار المستوى الباطـــن للتركيب[1].

و يعد كتـــابه الثاني، "أوجـــه النظريـــة التركيبيـــة" الذي أصدره في 1965 نقطة تحـــول في مجال البحث اللساني اكتملت من خـــلاله النظريـــة التركيبـــة في رحاب النظرية التوليديـــة و التحويليـــة، مما فسح المجـــال واسعاً أمـــام الألسنييـــن الغرب إلى تعميـــق المنهج في الوصف و التحليل الدلالي لمختلف المركبـــات اللغويـــة.

أما اللغويون العرب فإنّ اهتمامهم بمختـــلف المركبـــات التي اشتمل عليهـــا الخطاب القرآني دفعهم إلى التمييز بين مركبين هامين هما الكلام الذي يعرفه ابن هشام بأنّه شـــكل نحوي و دلالي مفيـــد[1]. و الجملة و هي عبارة لغوية مؤلفـــة من مسنـــد و مسند إليه[2].

و لقد حـــلّل النحـــاة العرب الكلام من وجوه مختلفـــة[3]:

* طبيعـــة أركـــانه الأوليـــة.
* طبيعـــة كبـــره و صغـــره.
* طبيعـــة الدور الوظيفـــي الذي يقـــوم به.

1 مباحث في اللسانيات العامة، د. أحمد حساني، ص 118 – 119.

1 مغني لبيب عن كتاب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، طبعـــة حققـــه مازن مبارك و الدكتور محمد علي حمد الله، ج2، ص 42.

2 المصدر نفســـه، ج1، ص 491.

3 نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغـــة العربية، د. مازن الوعر، الطبعة الأولى، دمشق 1987، ص27.

و عليـــه صنّف الكلام إلى أربع تراكيب أساسية ① التركيب الإسمي، ② التركيب الفعـــلي،③ التركيب الشرطـــي، ④ التركيب الظرفـــي.

و لم يدخـــر العلماء العرب قدماؤهم و محدثيهـــم جهداً في دراسة و تحليل هذه المركبـــات بطريقة أخالهـــا أدق و أوضـــح من تلك التي قدمهـــا الألسنيـــون الغرب، و مؤلفاتهم تشهـــد لهذا الجهد العظيـــم الذي خدم اللغـــة العربية و خدم بوجـــه خاص النص القرآنـــي، حيث سهّل مهمـــة المفسرين في تنـــاول آي الذكر الحكيـــم بالوصف و التحليـــل، و لن نجـــد أفضل من البحر المحيط لنستـــدل به على ما قلنـــاه خاصة و قد سبق لنا و أن ذكرنـــا بأنّ معظم الباحثيـــن يصنفـــون أبا حيـــان ضمن النحـــاة و كتابه يقـــولون بأنه كتـــاب في إعراب القرآن، و هذا كلـــه لأنّه اهتـــم بهذا المستـــوى أكثر من اهتمامـــه بالمستويات الأخـــرى، لذلك نستوقـــف أبا حيان في أهـــم العوامل التركيبية التي تظهر بوضوح تنـــاسق و انسجـــام النص القرآني.

و لسنـــا ندعي تقصي كل تلك العوامل المتعـــددة التي امتـــلأت بها صفحـــات البحر المحيط، و لكن للضرورة العلمية سنكتفـــي بثلاث عوامل تركيبيـــة: العطف، الحذف، التقديـــم و التأخيـــر.

I- العـــطـــف:

يستخـــدم هذا المصطلح عند النحـــاة و البلاغيين العرب للتعبيـــر عن آلية الربط أو الوصل بين المفـــردات و أشباه الجمـــل و الجمل. و العطف عندهم عطفـــان: عطف بالحروف أو ما يطلق عليه اسم عطف النسق، و عطف البيـــان؛

و هو المقصور على الأسماء المفردة، و عرّف في البلاغـــة بباب الفصل و الوصـــل، يعرفـــه ابن القيم الجوزية بقوله: "هو العلم بمواضع العطف و الاستئناف و التهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطـــف في مواقعهـــا، و هو من أعظم أركان البلاغـــة حتى قال بعضهـــم حدّ البلاغـــة معرفة الفصل و الوصل"[1].

و قد كان لحـــروف العطف في النظم القرآني و في كتب التفسيـــر شأن خاص لأنّ القرآن، من حيث هو جنـــس فنّي و متميّـــز، لم يتوّج دائمـــاً في تقطيع الكلام داخـــل الآية الواحـــدة أو فيما بين الآيـــات و السور المسالك المعروفـــة في الربط بين مقاطع الكلام، و كان من مسائـــل الخلاف بين المفسرين ضبط الحدود و توضيـــح العلاقات بين أجـــزاء في النظم لم يكن دائمـــاً من اليسيـــر البث في أمرهـــا[1].

مثال ذلك ما جاء في الآيات الأولـــى من سورة البقـــرة، حيث ذكر الله صفـــات المؤمنين و أعقبهـــا بذكر جزائهـــم بقوله تعـــالى: ﴿**أولئك على هـــدى من ربّهـــم و أولئك هم المفلحـــون**﴾ البقـــرة/05، يقول الزمخشـــري: "و قد أصيب بترتيبهـــا (أي الجمل الأربع الأولى) مفصل البلاغـــة و موجب حســـن النظم حيث جـــيء بها متناسقـــة هكذا من غير حرف نســـق و ذلك لمجيئهـــا متآخيـــة آخذاً بعضهـــا بعنق بعض"[2].

1 قضايا اللغة العربيـــة في كتب التفسير للهادي الحطلاوي، ص522، نقلا عن الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن و علم البيـــان لابن الجوزية، بيـــروت، د. ت. ص 257.

1 المرجع نفسه، ص522، نقلا عن الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن و علم البيـــان لابن الجوزية، بيـــروت، د. ت. ص 521-522.

2 الكشاف للزمخشـــري، ج1، ص 120-123.

و قد توقف أبو حيـــان مطوّلا عند قـــوله تعـــالى: ﴿**أولئك على هـــدى من ربّهـــم و أولئك هم المفلحـــون**﴾ يقول: "أولئـــك مع ما بعـــده مبتـــدأ و خبر في موضع خبر الذيـــن، و يجوز أن يكون بدلاً و عطف بيـــان، و يمتنـــع الوصف لكونـــه أعرف... و لما أخبـــر عنهم بخبـــرين مختلفيـــن كرر أولئك ليقع كل خبر منهمـــا في جملة مستقلـــة، و هو آكـــد في المدح إذ صار الخبر مبنيـــا على مبتـــدأ، أو هـــذان الخبـــران هما نتيجتـــا الأوصاف السابقـــة، إذ كانت الأوصاف منها ما هـــو متعلقـــهُ أمر الدنيا و منها ما متعلقهُ أمر الآخـــرة، فأخبر عنهـــم بالتمكن من الهدي في الدنيـــا، و بالفوز في الآخرة، و لّما اختـــلف الخبران كما ذكرنـــا أتى بحرف العطف في المبتـــدأ، أو لو كـــان الخبر الثاني في معنـــى الأول لم يدخـــل العاطف لأنّ الشيء لا يعطـــف على نفســـه ألا ترى إلى قولـــه تعالى ﴿ **أولئك هم المفلحـــون**﴾ بعد قولـــه ﴿ **أولئك كالأنعـــام** ﴾ كيف جـــاء بغيـــر عاطف لا تفاق الخبريـــن اللذين للمبتدأيـــن في المعنـــى، و يحتمـــل هم أن يكون فصلاً أو بدلاً..."[1].

فالإنسجـــام، إذن، محقق بين الجمـــل أو الآيـــات دونمـــا حاجة إلى رابـــط، في أكثر من موضـــع غير ما ذكره، فمثـــلاً، عندما ذكر الله سبحـــانه و تعالى صفات المؤمنيـــن و جزاءهـــم أعقبه بذكر صفات الكافريـــن و جزاءهم دون أن يستعمـــل الرابط بين الآيـــات مع أنّ المعنى مختلف و ذلك بقولـــه تعالى: ﴿**أولئك على هـــدى من ربهـــم و أولئك هم المفلحـــون إنّ الذين كفـــروا سواء عليهـــم أأنذرتهـــم أم لم تنذرهـــم لا يؤمنـــون**﴾ فعدم وجـــود الرابط بين الآيتيـــن لا يخـــل بالمعنـــى إذ المتلقـــي كان يترقـــب

1 البحـــر المحيـــط، ج1، ص 168- 169.

حديـــث القرآن عن الكافـــرين، لكنـــه لم يتوقـــع الحديـــث عن الفئـــة الثالثـــة و هي فئـــة المنافقيـــن الذين جاء ذكرهـــم في ثلاث عشـــرة آيـــة، لذلك جيء بحرف العطـــف للربط بين الآيات السابقة و ما تلاهـــا. يعلق أبو حيـــان على هذا الأسلوب بقولـــه: "لما ذكر من الكتـــاب هدى لهم و هم المتقـــون الذين جمعوا أوصـــاف الإيمان من خلوص الإعتقـــاد، و أوصاف الإسلام من الأفعـــال البدنية و الماليـــة، و لما ذكر ما آل أمرهم إليه في الدنيـــا من الهدى و في الآخرة من الفـــلاح، ثم أعقب ذلك بمقابلهـــم من الكفار الذين ختم عليهم بعد الإيمـــان، و ختم لهم بما يؤولـــون إليه من العـــذاب في النيـــران، و بقي قسم ثالث أظهروا الإســـلام مقـــالاً و أبطنـــوا الكفر اعتقاداً، و هم المنافقـــون أخذ يذكر شيئـــا من أحوالهم و (من) في قوله ﴿ **و من النـــاس**﴾ للتبعيض"[1]. و في إعـــراب شبه الجملـــة ﴿ **و من النـــاس**﴾ خبراً مقدمـــاً ﴿**لمن يقـــول**﴾ يقول أبو حيان أنّه من باب التفصيل المعنـــوي لأنه تقدم ذكر المؤمنيـــن ثم ذكر الكافـــرين، ثم – عقب بذكر المنافقـــين – فصار نظير التفصيل اللفظي في قولـــه ﴿**و من الناس من يعجبك**﴾ ﴿**و من النـــاس من يشتري نفســـه**﴾ البقرة/207، فهو في قوة تفصيل الناس إلى مؤمـــن و كافر و منافق[2].

و لقد كثـــر في القرآن عطف الجملـــة الاسمية على الجملة الفعلية و العكس و في هذا التلوين بين الفعلية و الاسمية في أكثر من موضـــع بلاغة نظم و اتســـاق في المعنى لم تعرف الأساليب العربيـــة مثيلاً لها من ذلك قولـــه تعالى في سورة الأعراف الآيـــة 193 ﴿**و إن تدعُـــوهُم إلى الهدى لا يتبعُـــوكُم سواءٌ**

1 البحـــر المحيـــط، ج1، ص 181-182

2 المصـــدر نفســـه.

﴿عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتـــون﴾ حيث عطفت الجملة الاسميـــة ﴿أنتم صامتـــون﴾ على الفعلية ﴿أدعوتموهـــم﴾ بدل قـــوله ﴿أدعوتموهم أم صمَتُم﴾، غير أن الأسلوب القرآني مال إلى التلويـــن بين الجملتين لأسباب يذكرهـــا أن ابو حيـــان "و ليس من عطف الاسم على الفعـــل إنّما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية، و أما البيت – يقصد قول الكســـائي[1]:

سواءٌ عليك النَّفر أمْ بِـــتَّ لَيلَـــةً بأَهْل القِبَـــابِ من نُميْر بن عامر

فليس من عطف الاسم على الفعل، بل من عطف الجملة الفعليـــة على الاسم المقدر بالجملـــة الفعليـــة إذ أصل التركيب: "سواء عليك أنفـــرت أم بت ليلة" فأوقـــع النفر موقع "أنفـــرت"، و كانت الجملة الثانيـــة اسميـــة لمراعـــاة رؤوس الآي، و لأنّ الفعـــل يشعر بالحـــدوث و اسم الفاعل يشعـــر بالثبـــوت و الاستمرار، فكانوا إذا دهمهم أمر معضـــل فزعوا إلى أصنامهـــم، و إذا لم يحدث بقوا ساكتين، فقيـــل: لا فرق بين أن تحدثـــوا لهم دعاء و بين أن تستمـــروا على صمتكم فتبقـــوا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم، و هي الحالة المستمرة"[2].

و في موضع آخر يقـــول تعالى ﴿**و اتـــلُ عليهم نبـــأ ابنيي آدم بالحقّ إذ قرّبَـــا قُربَانـــاً فتُقُبِّـــل من أحدهما و لم يُتَقَبَّـــل من الآخر قال لأقْتُلَنَّـــك قال إنَّمَا يتقَبَّـــل اللهُ من المتَّقيـــن(27) لَئِنَ بَسَطْتَ إليَّ لتقْتُلنـــي ما أنا بِبَاسطٍ يدي إليك لأقتُلَكَ إنِّي أخـــافُ اللهَ رَبَّ العالمين(28)**﴾ المائدة/27-28؛ فقد بدأ المقتـــول خطابه مع أخيـــه القاتل

1 البيت من الطويل ينظر معاني القرآن للفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار بيروت، لبنان 1955، ج1، ص401.
2 البحر المحيط، ج4، ص 439.

بالجملة الاسميـــة في قولـــه ﴿و ما أنا بِبَاسطٍ﴾ مبالغة في تأكيـــد نفي القتل عن نفسه[1] كما ذهب إلى ذلك الزمخشري بقولـــه: "فإن قلت: لم جاء الشرط بلفظ الفعل و الجزاء بلفظ اسم الفاعل، و هو قوله ﴿لَئِنَ بَسَطْتَ﴾ ﴿ما أنا بِبَاسطٍ﴾ قلت ليفيـــد أنّه لا يفعـــل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيـــع"[2].

إلا أن أبا حيـــان يذهب بتفسيـــر الآية إلى أمر آخـــر هو أن قولـــه ﴿ما أنا بِبَاسطٍ﴾ ليس جزاء، بل هو جـــواب للقسم المحذوف قبل اللام في ﴿لئـــن﴾ المؤذنـــة بالقســـم، و الموطئـــة للجواب لا للشرط، و جواب الشـــرط محذوف لدلالـــة جواب القسم عليـــه، و لو كـــان جواباً للشرط لكان بالفـــاء، فإنّـــه إذا كان جواب الشـــرط منفيا بما فلا بد من الفـــاء[3]. على ما اتفـــق عليـــه علماء النحـــو[4]؛ مما يجعلنـــا نميـــل لرأي أبي حيـــان في كون الجملـــة جوابـــاً لقسم محذوف حلّ محـــلّ جواب الشرط.

و في موضع آخر نجد تلوينـــا آخر في الأسلوب يعطف فيـــه اسم الفاعـــل على الفعل بأداة الربط الواو في قـــوله تعالى في سورة الأنعـــام/ 95 ﴿إن الله فالق الحب و النّـــوَى يُخْرِجُ الحيّ مِن الميّـــت و مُخْـــرِجُ الميّـــت مِنَ الحيّ ذلكم الله فأنّـــى تؤفكـــون﴾ .

1 تلوين الخطاب في القرآن الكريم، دراسة في علم الأسلوب و تحليل النص، د. طه رضوان طه رضوان، دار الصحافة للتراث طنطا، مصر ط1، 2007، ص 265.

2 الكشاف ج1/ 624.

3 البحر المحـــيط، ج3، ص 477.

4 ينظر شرح ابن عقيـــل على ألفية ابن مالك لبهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمذاني، حققه و بوبه و فسر غامضه و غلق على شروحه و إعرابه شواهده حنا الفاخوري، ط1، 1989، دار الجيل بيروت، ج2، ص 375.

و قد اختـــلف علماء التفسيـــر في تـــأويل العطف الموجود بين اسم الفاعل ﴿مُخْـــرِجُ الميّـــتِ﴾ و الفعل ﴿ يُخْرِجُ الحيَّ﴾ يقول أبو حيـــان: "عطـــف قولـــه (و مخرج الميت) على قـــوله ﴿فالق الحب﴾ اسم فاعـــل على اسم فاعـــل و لم يعطفه على (يخرج) لأن قوله (فالق الحب و النوى) من جنس إخراج الحي من الميـــت لأنّ النامي في حكم الحيوان، ألا تـــرى إلى قوله ﴿يحيي الأرض بعد موتهـــا﴾ فاطـــر/09. فوقع قولـــه ﴿يُخْرِجُ الحيَّ مِن الميّـــتِ﴾ من قولـــه ﴿فالق الحـــب و النـــوى﴾ موقع الجملة المبينـــة"[1].

و ذهب الزمخشـــري[2] إلى ما ذهب إليه أبو حيـــان، غير أنّ للإمام الطاهر بن عـــاشور رأيا مخالفا لسابقيـــه يقول: "و جيء في قولـــه ﴿و مُخْـــرِجُ الميّـــتِ مِنَ الحيِّ﴾ اسماً للدلالـــة على الدوام و الثبات فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعليـــن متجدد و ثابـــت أي: كثير و ذاتـــي، و ذلك لأنّ أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينـــه فكان في الأسلوب شبه الاحتبـــاك"[3].

و الملاحـــظ أنّ ما ذهب إليه أبو حيـــان و الزمخشري كون قولـــه (يخرج الحيّ من الميت) بمثابـــة الجملة المبينـــة لقوله (فالق الحب) مستبعـــد، لأنّ الجملة الأولى لا تحتـــاج إلى تبييـــن، حتى و إن كان النـــامي في حكم الحيـــوان لكنه مختـــلف عنه، ففي ذكر النبـــات ثم الحيـــوان تثبيـــت و تأكيد لقدرة الله سبحانـــه و تعالى في الخلق، و لعلّ ما يقوي رأي الإمـــام الطاهر بن عـــاشور هو

1 البحر المحيط، ج4، ص189.

2 ينظر الكشـــاف، ج2، ص47.

3 التحرير و التنوير للإمام الطاهر بن عاشور، الدار التونسيـــة للنشر، تونس، 1984، الطبعة الأولى، ج7، ص 389.

كون إخراج الميت من الحي أبلغ في إظهـــار القدرة من إخراج الحي من الميت، فكان إخراج الميت من الحي بمثابـــة التكملة لقولـــه ﴿يُخْـرِجُ الحيَ مِنَ الميتِ﴾ فصار كلا الإخراجين لكثرة دورانهمـــا في حياة النـــاس كالشيئين المتلاحقين أو المتلازميـــن فكان اختيـــار العطف على الفعل أولى[1].

II- الحـــــذف:

يعد أسلوبـــاً من الأساليب البلاغيـــة في اللغة العربيـــة يميل إليـــه العرب للإختصار لعلم المخـــاطب به، إذا كان في الكلام ما يدل عليـــه، و قد يشكل الكـــلام و يغمض بسبب الاختصـــار و الإضمار مما يدفع بالمتكلـــم إلى إعمال العقل لاستشعـــار خبايا النص و الوصول إلى المعنـــى المراد دون أن يـــخل بتماسك النـــص و اتساقـــه، يقول الجرجـــاني في هذا النص: "هو بـــاب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيـــه بالسحّر فإنّك ترى به ترك الذِكـــر، أفصح من الذكر، و الصمت عن الإفادة، أزيَدَ للإفادة، و تَجِدُك أَنْطَـــقْ ما تكون إذا لم تَنْطِـــق، و أتمّ ما تكـــون بياناً إذا لم تُبِـــنْ و هذه جملة قد تنكُرهـــا حتى تخبَـــر، و تدفعها حتـــى تنظُـــر"[2].

و لقد كثـــرت في القرآن الكريم ظاهـــرة الحذف، ممّا دفع بالمفسريـــن إلى التـــأويل لاستظهار المعنى، من ذلك حذف الحرف، و اللفظ و اللفظتين، و الجملة و حتى العبارة.

1 تلوين الخطاب في القرآن الكريم دراســـة في علم الأسلوب و علم النص، لطه رضوان طه رضوان، ص 269.

2 دلائل الإعجاز للإمام عبد القـــاهر الجرجاني، شرحه و علق عليـــه د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنـــان، الطبعة الثالثة، 1999، ص 121.

فمن حـــذف الحرف ما جـــاء في قوله تـــعـــالى في ســـورة الضحـــى ﴿و الضُّحَـــى(01) و اللَّيْلِ إِذَا سَجَـــى(02) ما ودَّعَـــكَ ربُّكَ و مـــا قَلَـــى(03) و لَلآخِـــرَةُ خيرٌ لكَ من الأُولَى(04) و لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّـــكَ فتَـــرْضَى(05) أَلَمْ يَجِـــدْكَ يَتِيمـــاً فَئَـــاوَى(06) وَ وَجَدَكَ ضَالّاً فَهَـــدَى(07) وَ وَجَـــدَكَ عَائِـــلاً فَأَغْـــنَى(08) فأَمَّا اليَتِيـــم فلا تَقْهَـــر(09) و أَمَّا السَائِلَ فلا تَنْـــهَـــر(10) وَ أَمَّا بِنِعْـــمَةِ رَبِّكَ فحَدِّث(11)﴾ إذ حذف ضميـــر المخاطب (ك) من الأفعـــال (قـــلى)، (فأوى)، (فهـــدى) و (فأغنـــى) و السياق يستوجب إظهـــاره لا إضمـــاره يقول أبو حيان: "... إذ يعلـــم بأنه ضمير المخاطـــب و هو الرسول عليه الصـــلاة و السلام"[1].

بالإضافة إلى أن حذف الكاف ناسب الفاصلة التي انتهـــت بها هذه الآيات و هي الألف المقصـــورة، فلو أثبتت الكاف فقدت السورة ذلك التناغم و الإيقاع الصوتي المعجز الذي يستولي على العقـــول و القلوب معـــاً كما أسهم حذف كاف الخطاب من الفواصل المشـــار إليها سابقـــاً، مجيء قرائن هذه الفواصل على إيقاع مشكل من تنـــاوب وحدات من مقطـــع قصير و مقطع طويل مع وحـــدات من مقطعيـــن طويليـــن في ضبط الترجيح الدوري المولّـــد للإيقـــاع العام لهذه السورة"[2].

1 البحر المحيط، ج8، ص481.

2 العدول عن مقتضـــى الظاهر في الخطـــاب القرآني – مقاربـــة أسلوبيـــة- د. عبد الخـــالق رشيد، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة، جامعة وهران، الجزائر، سنة 2006-2007، ص 52، مخطوط.

و يحـــاول الدكتور عبد الخـــالق رشيد أن يعطي لهذا الحذف بعداً دلاليـــاً يقول "أن" كاف الخطـــاب قد أسقطت من الفعـــل "قلـــى" لما في قلى من إحســـاس بالبغض و الإبعـــاد، و ما كان الله عزوجل ليقليَ رسوله الكريم، فهو حبيبه و مصطفـــاه و محتبـــاه... و قد أثبتت كـــاف الخطاب في فعل التوديع، إذ ليس فيه ما قلى من أحاسيس البعد و الطّرد! بل إنّ التوديع لا يكـــون إلاّ مع أمل العودة"[1].

و هذا الذي ذهب إليه لا يمكـــن قياسه على باقي الأفعـــال التي حذفت منهـــا كاف المخاطب (آوى) (هـــدى) (أغنـــى) و هي أفعـــال لا تحمل الإحســـاس بالبغض و الإبعـــاد أو صفـــات مقيتـــة أخرى قد تمس بمكـــانة الحبيب المصطفى عند الخالق عزوجل، و إنّما معانيهـــا من الرحمة و الهدي و الغنى ما يجعلنا نفترض من منطلـــق هذا التحليل الدلالي للآية نفتـــرض ضرورة وجـــود الكـــاف ملازمة لهذه الأفعـــال لتـــأكيد المعنى المراد من هذه الســـورة.

نستنتـــج في الأخير، أن سورة الضحـــى مثلها مثل معظم الســـور المكية امتاز نسيجهـــا الأسلوبي بقصر آياتها المتشابهـــة إيقاعيا، المبهرة في النظم و البيان المعجز إذ الغـــاية من الإسلام في أوّله بمكة هو الإقنـــاع و الإبـــلاغ و الإعجـــاز و التحدي على حين أنّ القـــرآن النازل بالمدينـــة ربّما طالت آيـــاته و تباعـــدت إيقاعاتـــه حيث أصبحت الغايـــة تشريعيـــة و توجيهيـــة في الغـــالب[2]؛ فمن مميـــزات الخطاب في السور المكية هو ترداد مقاطـــع متماثلـــة، حيث تأتـــي في

1 العدول عن مقتضـــى الظاهر في الخطـــاب القرآني – مقاربـــة أسلوبيـــة- د. عبد الخـــالق رشيد، ص53.

2 نظـــام الخطـــاب القرآني، د. عبد المـــالك مرتـــاض، ص48.

متواليـــة متناغمـــة و متناسقـــة و متآلفـــة، و هذا بالفعل ما لمسنـــاه في سورة الضحى لذلك جـــاء حذف كاف الخطـــاب لمناسبـــة الفواصل خاصة و أن حذفهـــا لا يخـــل بالمعنـــى.

و في موضع آخر يقول عزوجـــل في سورة طـــه الآية 53 ﴿**قال فمـــن ربكمـــا يا موســـى**﴾. حيث حذفـــت لفظة هـــارون من النداء و اكتفـــى بموسى مع أنّ الاستفهـــام شمل ضمير التثنيـــة على أن الكـــلام موجـــه لموســـى و هارون معاً و مقتضـــى الظاهر يستلـــزم في مثل هذا الموقف موافقـــة أسلوب النداء لما بُني عليـــه السيـــاق و هو ضمير التثنيـــة، أو الاكتفـــاء بالاستفهـــام دون اللجوء إلى النـــداء[1]، يقول أبو حيـــان: "خاطبهمـــا معاً و أفرد بالنـــداء موســـى. قال ابن عطيـــة: إذا كان صاحب عظـــم الرسالـــة و كريم الآيـــات، و قال الزمخشري[2]:لأنه الأصل في النبـــوة و هارون وزيره و تابعـــه، و يحتمل أن يحملـــه خبثـــه و دعارته على استدعـــاء كلام موســـى دون كلام أخيـــه، لما عـــرف من فصاحة هارون و الرثـــة في لســـان موسى، و يدل عليـــه قوله في سورة الزخـــرف الآية 52 ﴿**أم أنا خيـــرٌ من هذا الذي هو مهيـــن و لا يكـــاد يبيـــن**﴾"[3].

و بعيـــدا عن كل هذه الاحتمالات و التخريجـــات الدلالية، يمكننـــا أن نقـــول بأن الحذف في الآية و مخالفـــة السياق هو نسيج أسلـــوبي يفضي إلى

1 العدول عن مقتضـــى الظاهر في الخطـــاب القرآني، د. عبد الخـــالق رشيد، ص 53.
2 الكشاف للزمخشـــري، ج2، ص 67.
3 البحر المحيط، ج6، ص232.

تناســـب فواصل هذه السورة بدليـــل، أن معظم آيـــات سورة طه تنتهـــي بألف مقصـــورة. و إن كان ما ذهب إليه الزمخشـــري من أن فرعـــون تعمد تخصيـــص موسى بالنداء بأسلوب مستفـــز له جعلـــه يرد عليه بأبلـــغ جواب يصفـــه الزمخشري بقولـــه: "لله در هذا الجواب ما أخصره و ما أجمعـــه و ما أبينـــه لمن ألقى الذهن و نظر بعيـــن الإنصاف و كان طالباً للحق"[1].

يقول تعـــالى ﴿**و اللائي يئسْنَ مِنَ المحيـــض من نسائكم إن ارتبتُـــم فعِدَّتُهُـــنَّ ثلاثـــة أشهُـــرٍ و اللائي لم يَحِضنَ و أولات الأَحْمَـــالِ أجَلُهُـــنَّ أن يضَعْنَ حَمْلَهُـــنَّ و منْ يَتَّـــقِ الله يَجْعَـــلْ له من أمْـــرِهِ يُسْـــراً**﴾ الطلاق/04.

فاعـــراب قوله ﴿**و اللائي لم يَحِضنَ**﴾ معطوف على قولـــه ﴿**و اللائي يئسْنَ**﴾ أي مبتـــدأ قدروا خبره جملـــة من جنس خبر الأول أي: عدّتُهُـــنَّ ثلاثـــة أشهر، و الأولى عند أبي حيّـــان أن يقدر مثل أولئـــك أو كذلك فيكون المقدر مفرداً[2].

و في موضع آخر يقول تعالى في سورة الأنعـــام/111 ﴿**و لو أننا نزلنـــا إليهم الملائكـــة و كلمهم الموتى و حشرنا عليهـــم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنـــوا**﴾، يقول أبو حيـــان : "و قال الزجـــاج: و قال الفـــراء: هو متعلق بما قبله، و المعنى: و هم يكفـــرون بالرحمن (و لو أن قُرآنا سيّرت به

1 الكشاف للزمخشـــري، ج3، ص 67.
2 البحر المحيط، ج5، ص382.

الجبـــال) و ما بينهما اعتـــراض، و على قول الفراء يترتب جواب لو أن يكـــون لّما آمنوا، لأنّ قولهـــم (و هم يكفرون بالرحمن) ليس جواباً، و إنّمـــا هو دليل على الجواب"[1]. فكلا التقديرين جائـــزين خاصة لوجود ما يـــدل عليه من ظاهر الكلام، و لا يخـــالف سيـــاق الآية.

من ذلك أيضـــاً قوله تعـــالى في ســـورة النور/20 ﴿**و لولا فَضْلُ الله عليكـــم و رحمتهُ و أنّ الله رءوف رحيـــم**﴾، جواب لولا محذوف أيضاً في هذه الآيـــة يقدره أبو حيـــان بقولـــه لعاقبكم[2]. و قيل تقديره لعذّبكم[3]، فالمحـــذوف جملة من فعـــل و فاعل و مفعـــول به، كذلك في قوله تعالى في سورة الإســـراء/23 ﴿**و قَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تعْبُـــدُوا إلاّ إيّـــاه و بالوالدين إحساناً إمّا يَبْلُغَـــنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاهُمَا فَلاَ تَقُـــلْ لهما أُفٍ و لا تَنْهَرهُما و قُلْ لهُمَا قَوْلاً كريمـــا**﴾، يقول أبو حيـــان: "قال (الحوفـــي) الباء متعلقـــة بقضى و يجـــوز أن تكـــون متعلقـــة بفعـــل محـــذوف تقـــديره و أوصى بالوالدين إحساناً مصدر: أي تحسنوا إحســـاناً... و على هذا الاحتمال الذي ذكرنـــاه يكون قوله (و بالوالدين إحسانا) مقطوعاً من الأول"[4].

1 البحر المحيط، ج5، ص382.

2 المصدر نفســـه، ج6، ص 403.

3 تـــأويل مشكل القرآن لابن قتيبه شرحـــه السيد أحمد صقر الطبعة الثالثة 1981 المكتبة العلمية، ص 214.

4 البحر المحيط، ج6، ص23

III- التقـــديم و التـــأخيـــر:

و يقصد بـــه نقل اللفظ عن موضعـــه بنيـــة التـــأخير دون تغيير حكمـــه؛ كأن تقدم خبـــر المبتـــدأ على المبتـــدأ و المفعول على الفاعل، أو بنيـــة تغيير حكمـــه كأن تساوي المبتدأ و الخبـــر في التعريف فتقـــول زيدٌ المنطلق و المنطلق زيـــدٌ. فزيد في الجملة الأولى مبتـــدأ و في الثانية خبر، و المنطلق في الجملة الأولـــى خبر و في الثانيـــة مبتـــدأ، يعلق الجرجـــاني على هذا الأسلوب البلاغي بقولـــه: "هو بابٌ كثير الفوائد، جَمُّ المحاســـن، واسع التصرّف، بعيد الغـــاية، لا يزال يفْتَـــرُّ لك عن بديعـــةٍ، و يُفْضِي بِكَ إلى لطيفَـــةٍ. و لا تَزَالُ ترى شِعـــراً يَرُوقُـــكَ مسمَـــعُه، و يَلْطف لديك موقعُـــه، ثم تَنْظـــر فَتَجِـــدُ سَبَبَ أن راقَـــكَ و لُطـــف عِنْدَكَ أنْ قُـــدِّمَ فيه شـــيءٌ و حُوِّل اللفظ عن مكـــانٍ إلى مكـــانٍ"[1].

و بديـــع هذه الصور من التقديـــم و التأخير جـــاء بها القرآن؛ بحيث لا يمكننـــا أن نتصور استقامـــة المعنى و قوة تـــأثيره على المتلقـــي دون تلك الصور المختلفة، إذ يعدّ أكثر الآليـــات الإجرائيـــة توظيفاً في اللغة، و يعتمـــد بأشكالها المختلفـــة كإجراء أسلوبي لتحقيق أبعـــاد فنيـــة، و مقاصد دلاليـــة[2]، مثل ذلك ما جـــاء في ســـورة الفاتحـــة قولـــه تعـــالى في الآيـــة 05 ﴿**إيّـــاك نَعْـــبُـــدُ و إيّـــاك نستعيـــن**﴾، يقول أبو حيان: "(إيّـــاك) مفعـــول مقدم، و الزمخشري يزعم أنّـــه لا يقدم على العـــامل إلاّ للتخصيـــص فكأنّـــه قال ما نعبُـــدُ إلاّ

1 دلائل الإعجاز للجرجـــاني، ص 96.

2 العدول عن مقتضـــى الظاهر في الخطـــاب القرآني، -مقاربـــة أسلوبيـــة- د. عبد الخـــالق رشيد، ص 69.

إيّـــاك، و التقديم عندنا إنّما هو للإعتناء و الاهتمـــام بالمفعول، و سب أعرابي آخر، فأعرض عنه و قال إيّاك أَعْنِـــي، فقال له: و عنك أعـــرض فقدما الأهم"[1].

و المخـــاطب في إيّـــاك هو الله تعالى! إذ لما ذكر أنّ الحمد لله المتصـــف بالربوبيـــة و الرحمة و الملك لليوم المذكـــور، أقبل الحامـــد مخبراً بأثر ذكـــره الحمد المستقر لـــه منه و من غيره أنّـــه و غيره يعبده و يخضـــع له[2]. ثم أنّ النسيـــج الإيقـــاعي للآية ينتهـــي إما بحرف النـــون أو الميم، فنـــاسب أسلوب التقـــديم التناغـــم الموجود بين آي هذه الســـورة.

و تكررت ذات الصورة في ســـورة البقرة الآيـــة 40 يقول تعـــالى: ﴿يا بَنِي إسرائيـــل اذْكُـــرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَـــمتُ عَليكُمْ و أَوْفُـــوا بعَهْـــدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم و إيَّـــايَ فارهَبُـــون﴾، يقول أبو حيـــان: "الفاء في قولـــه (فارهبون) دخلت في جـــواب أمر مقدّر و التقدير "تنبّهُـــوا فارهبون"، و قد ذكر سيبويـــه في كتابه ما نصه: نقـــول "كل رجل يأتيـــك فاضرب" لأنّ يأتيك صفـــة ههنـــا كأنّك قلت "كل رجل صالح فاضرب" انتهـــى"[3]. و يكون إذ ذاك إياي معمولاً بالفعـــل ارهبـــون و قد حاز تقديـــم المعمول على العامل عند البصريين و هو عند الزمخشري من باب الاختصاص يقـــول: "و (إيّاي فارهبون) فلا تنقضوا عهـــدي، و هو من قولـــك "زيـــداً رهبتـــه" و هو أوكد لإفادة الإختصـــاص من ﴿إيّـــاكَ نَعْبُـــدُ﴾[4]. و وافقه الإمـــام الطاهر بن

1 البحر المحيط، ج1، ص 141.
2 المصـــدر نفســـه.
3 المصدر نفســـه، ج1، ص 331.
4 الكشـــاف، ج1، ص 131.

عاشور يقول: "فتقـــديم المفعول هنا متعيـــن الاختصاص ليحصل من الجملة إثبـــات و نفـــي، و اختير من طرف القصر طريق التقديـــم دون ما و إلاّ، ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبـــة الله تعالى، و يكون النهي عن رهبـــة غيره حاصلاً بالمفهـــوم فإنّهم إذا رهبوا الله تعـــالى حرصوا على الإيفـــاء بالعهد، و لما كانت رهبتهـــم إخبارهم تمنعهم من الإيفـــاء بالعهد، أدمج النهي عن رهبـــة غير الله مع الأمر برهبـــة الله تعالى في صيغة واحدة"[1]. و يقدم الطاهـــر بن عاشور شرحاً مستفيضاً لرأي الزمخشـــري في كون تقديم المفعـــول مع اشتغـــال فعله بضمير آكد في إفادة التقديـــم الحصر من تقديم المفعـــول على الفعل غير المشتغل بضميره، فإياي ارهبـــون آكد من نحو إياي ارهبوا[2].

إلاّ أن ما ذهب إليه صاحب التحرير و التنـــوير فيه نوع من التداخـــل بين الاختصاص و الحصر و قد أوضح السيوطي الفرق بينهمـــا بقولـــه: "و يفهم كثير من النـــاس من الاختصاص الحصر، و ليس كذلك و إنّما الاختصاص شـــيء و الحصر شيء آخـــر، و الفضـــلاء لم يذكروا في ذلك لفظة الحصر، و إنّمـــا عبروا بالإختصاص و الفرق بينهما أنّ الحصـــر نفي غير المذكور و إثبـــات المذكـــور، و الاختصـــاص قصد الخاص بالجهة خصوصـــه، و بيان ذلك أنّ الاختصـــاص افتعال من الخصوص"[3].

نستنتج ممّا سبق أنّ "إيّـــاي" في سياق هذه الآيـــة مفعـــول به قـــدم عن فعله للعناية، و لاختصاصه بالرهبة، و لا نفهم من هذا الأسلوب الحصر كما

1 تفسير التحرير و التنويـــر، ج1، ص 454.
2 المصدر نفســـه، ج1، ص 454-455.
3 الإتقـــان في علـــوم القرآن للسيـــوطي، ج2، ص68.

نفهمـــه من قوله تعـــالى ﴿إيّـــاك نَعْبُـــدُ﴾، لأن القائليـــن لا يعبـــدون غير الله تعالى، و عندمـــا كان في الحصر معنى زائـــداً هو نفي ما عـــدا المذكـــور، جاز لنـــا أن نقول "إيّـــاك" قدّم للاختصـــاص، و الحصـــر كما ذهب إليـــه الزمخشـــري و أخذ به السيـــوطي و صاحب التحريـــر و التنـــوير، لكنّـــه رأي لا يطـــرد في كل الآيـــات، لذلك قلنا إنّه امتنـــع في قولـــه ﴿و إيّـــاي فارهبون﴾، و عليه فأبو حيان قد أصاب حين عارض الزمخشـــري في تفسيره لهذه الآية.

و في موضع آخـــر يقول تعالى في ســـورة القمر الآيـــة 24 ﴿فقـــالوا أبشراً منّـــا واحداً نتبعـــه إنا إذاً لفي ضـــلالٍ و سعر﴾، حيث قرئـــت بالرفع على الابتداء، و لفظـــة (واحد) مرة بالرفـــع على أنّها صفـــة، و مرة بالنصب على أنهـــا حال، و في هذه الأحوال لا يكون هنـــاك تقديم للفظـــة، إلاّ في قراءة من قـــرأ (أبشـــراً) بالنصب يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف أنكـــروا أن يتبعوا بشراً منهـــم واحداً قلت: قالوا (أبشراً) إنكـــاراً لأن يتبعـــوا مثلهم في الجنسيـــة، و طلبوا أن يكونوا من جنس أعلى من جنس البشر و هم الملائكـــة، و قالوا (منـــا) لأنّه إذا كان منهم كـــانت المماثلة أقـــوى، و قالوا (واحداً) إنكـــاراً لأن تتبع الأمّـــة رجلاً واحداً، و أرادوا واحداً من أبنائهـــم ليس بأشرفهـــم و لا أفضلهم، و يدل عليـــه (أألقـــي الذكر عليه من بيننـــا) أي: أأنزل عليه الوحي من بيننا و فينا من هو أحق منـــه بالاختيـــار للنبـــوة"[1]. و قد استحسن أبو حيـــان رأي الزمخشـــري و رفض رأي من قـــرأ بالرفع. إذ

1 الكشـــاف، ج4، ص39.

بعد أن ذكـــر رأي الزمخشـــري علق عليه بقولـــه: "و هو حســـن على أن فيه تحميـــل اللفظ ما لا يحتملـــه"[1] يؤكـــد ذلك الجرجـــاني بقوله: "و ذلك لأنهـــم بنوا كفرهم على أنّ من كان مثلهم بشـــراً لم يكـــن بمثابـــة أن يُتَّبـــع و يُطَاع، و يُنتهَـــى إلى ما يأمُـــر و يصـــدَّق أنَّـــهُ مبعوث من الله تعـــالى. و أنهم مأمـــورون بطاعتِهِ، كما جاء في الأخـــرى: ﴿**إن أنتـــم إلاّ بشَـــرٌ مِثْلُنَـــا تُرِيـــدُون أن تَصُدُّونَـــا**﴾، ابراهيـــم/10، و كقوله عزوجل ﴿**ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُـــم يُـــرِيدُ أنْ يَتَفَضَّـــل عليكم و لو شـــاء الله لأنـــزلَ ملائكـــةً**﴾، المؤمنون/24، فهذا هو القـــول في الضرب الأول، و هو أن يكون يفعـــل بعد الهمزة لفعل لم يكن"[2].

و في محاولـــة حصرنا لمواضيع التقديم و التـــأخير في القرآن الكريم، تبيّـــن لنا أن هذا الباب باعتبـــاره كنزاً من كنوز البيـــان، جاء في صورة متعددة، و ما ذكرنـــاه من أمثلـــة يقع من باب مخالفة ظاهر التركيـــب، و من أسرار التقديـــم و لطائفـــه ما هو متعلق بالنسيـــج الأسلوبي للآيـــة كما يوضح ذلك أبو حيـــان: "ذكر أهـــل البيان أن التقديـــم يكون باعتبـــارات خمسة: تقديـــم العلة و السبب على المعلـــول و المسبب كتقديـــم الأموال على الأولاد في قوله تعالى ﴿**إنّما أموالكم و أولادكم فتنـــة**﴾ التغابن/15، فإنـــه إنّما يشـــرع في النكـــاح عند قدرتـــه على المؤونـــة فهي سبب إلى التزوج، و النكـــاح بسبب للتنـــاسل، و العلّة كتقدم المضيء على الضوء، و ليس تقدم زمـــان لأن جرم الشمس لا ينفـــك عن الضوء، و تقدم بالذات كالواحـــد مع الاثنيـــن وليس

1 البحر المحيـــط، ج8، ص 178.

2 دلائل الإعجـــاز للجرجـــاني، ص106-107

الواحـــد علة للاثنيـــن بخلاف القسم الأول، و تقدم بالشـــرف كتقدم الإمـــام على المـــأموم، و تقـــدم الزمان كتقدم الوالـــد على الولد بالوجـــود، و زاد بعضهـــم سادساً و هو التقـــدم بالوجـــود حيث لا زمـــان"[1].

و مما يندرج ضمن هذه الأسباب تقـــديم القلب على السمع و البصـــر في سورة البقـــرة الآية 07 ﴿**خَـتَمَ الله على قلوبهـم و على سمعهـم و على أبصارهم غشـوة**﴾ و تأخيـــره في سورة الجاثيـــة الآية 23 ﴿**و خَـتَمَ على سمعه و قلبـه**﴾ يقول أبو حيـــان في تفسيـــر الآيـــة الأولى "و تقديـــم القلوب على السمع من باب التقديم بالشرف و تقديـــم الجملـــة التي إنتظمتهـــا على الجملة التي تضمنت الأبصار من هذا البـــاب أيضاً"[2].

و يبـــدو أن سبب التقـــديم في الآية يتجـــاوز السبب الذي ذكره أبو حيان إلى تحليل دلالي يفرضـــه سيـــاق الآية. و علاقتهـــا بما يجـــاورها من الآيات؛ "فتقـــديم القلب على السمـــع و البصـــر، لأنّ الحواس خدمة القلـــب، و موصلة إليه، و هو المقصود، ثم قدم السمع على البصـــر، لأنّ السمع أشـــرف، و لذا وقع في وصفـــه تعـــالى ﴿**سميـع عليم**﴾ الحج/61 بتقـــديم السمع. و أما تأخيـــر القلب عن السمع في قوله تعـــالى ﴿**و ختم على سمعـه و قلبه**﴾ الجاثيـــة/23، فلأن العنـــاية هناك بذم المتصاميـــن عن السماع، و منهم الذين كانوا يجعلون القطن في آذانهم، حتى لا يسمعـــوا، و لهذا صدرت السورة بذكرهم قوله تعـــالى ﴿**ويل لكلّ أفّـاك أثيم**(07)، **يسمع آيات الله تتلى عليـه ثم**

1 البحر المحيـط، ج1، ص 177-178.

2 المصـــدر نفســـه، ج1، ص 177.

يصر مستكبراً كأن لم يسمعهـا﴾ الجاثيـة/07-08"[1]. و لا ندري لماذا لم يتعرض أبو حيـان لهذا التقديم الموجود في الآية و المخالف لما رأينـاه في سورة البقـرة.

و من أسباب التقـديم أيضاً ما جاء رعايـة للفاصلة، كقولـه تعالى في سورة الحـاقة، الآيات 30-31-32 ﴿**خُـذُوه فَغُلُّـوه**(30) **ثم الجحيـم صَلُّـوه**(31) **ثم في سِلْسِلَـةٍ ذَرْعُـهَا سَبْعُـون ذِراعـاً فاسْلُكُـوهُ**(32)﴾ و لا يفهـم من هذا التقـديم الحصر أو الاختصـاص، و لم يفصح أبو حيـان عن سبب التقـديم ههنـا، و إكتفـى بالرد على الزمخشـري القائل بالحصر في الآية على أن المعنـى لا يصلى غير الجحيـم، و لا يسلك غير تلك السلسلـة، يقـول: "و إنّمـا قدّره لا تصلـوه إلاّ الجحيم لأنـه يزعم أن تقديـم المفعـول يدل على الحصر، و قد تكلمنـا معه في ذلك عند قولـه ﴿**إيّـاك نعبـد**﴾ و ليس ما قالـه مذهباً لسيبـويه و لا لحذّاق النحـاة"[2]...

و لم يصرح أبو حيـان برأيه إن كان يقصد الاختصـاص أو مناسبة رؤوس الآي. في حين أنّـه لمّا قـارن بين تقديـم المفعول في قولـه ﴿**إيّـاك نعبـد**﴾ و بين تقديمـه في هذه الآية فإنـه يرى أن الأسلوب واحد في الآيتيـن! بمعنـى أنه يجعـل تقديم المفعول من باب الاختصـاص، و قد سبق

1 أسرار التقديم و التأخير في لغة القرآن الكريم للدكتور محمود السيد شيخون مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، الطبعة الأولى، 1403هـ-1983م، ص 87-88.

2 البحر المحيط، ج8، ص 319، ينظر أسرار التقديم و التـأخير في لغـة القرآن الكريم للدكتـور، محمود السيد شيخـون، ص 75.

لنـــا الحديث عن الآيـــات المكية و تميز أسلوبها بقصد الآيات المتناغمـــة و المتآلفة و متناسقـــة في إيقـــاع واحد معجز.

كانت هذه بعض النمـــاذج التي انتقينـــاها من البحر المحيط، و القرآن الكريـــم غني بمثل هذه الأساليـــب البلاغية و غيرهـــا، التي تعكس بحق إعجـــاز كتاب الله الكامن في الطبيعـــة الخطية للغة العربيـــة، و التي تخضع خضوعـــاً إلزاميا للنظام اللساني العربي بكل مظاهـــره و ضوابطـــه، فالعوامـــل التركيبيـــة التي توقفنـــا عندها من عطف و حـــذف و تقديم و تـــأخير ليست غريبـــة عن الأسلوب العربي، و لكن عندما حيك بها كـــلام الله تعالى صارت أكثر بيـــانا للمعنـــى، بل أصبحت صوراً من صور إعجاز القـــرآن الكريم الذي حـــدد بدقة لا متنـــاهية تعاقب و تسلسل العلامـــات اللغويـــة في نسق تركيبـــي فريد لم يشهد العرب مثيـــلاً له سواءاً في كلامهم المسجـــوع أم في نظمهم لأشعـــارهم. و هذا سيتضح جليـــاً في كيفيـــة تعامل أبي حيـــان مع الخطاب القرآني لنقف على انسجـــام كلام الله الذي يتجـــاوز الصوت، و المفردة، و التركيـــب إلى الخطاب الذي يعـــد جسداً واحـــداً لا يحتمـــل و لا يقبل التجـــزئة.

الفصل الثاني:

مظاهر تماسك و انسجام الخطاب القرآني

القـــرآن الكريـــم دستـــور بني البشـــر، يشتمـــل على الشريعة و العقيدة و الإيمان، و التـــوحيد: فهو دليـــل عمل صالح لكل زمـــان و مكان لجميـــع المسلمين، خزينـــة علم الله، كتاب مكنـــون في لوح محفـــوظ، فهو حبـــل الله المتصـــل الذي يربـــط الأرض بالسمـــاء و يربط العبـــد بالمعبـــود، هو العـــروة الوثقى لا انفصـــام لها، هذه الصفـــات التي انفرد بهـــا كتاب الله فسحت المجـــال أمام الإنســـان للبحث و النظر في حقـــائق الوجود، غير أن ما توصـــل إليه الباحـــث من علوم و معـــارف و ما أدركـــه من حقـــائق فهو في حدود ما تسمـــح به إمكانيات عصره، لذلك تبقـــى معرفتـــه لهذا الكون نسبيـــة؛ فلا يحق له و لا لغيـــره ممن سبقـــه أو تـــلاه احتكار المعرفة و الحقيقـــة بل يجب أن يكـــون على يقيـــن بأن ما يعتقـــده صوابـــاً يحتمـــل الخطأ، و ما يقولـــه الآخر خطـــأ يحتمل الصواب.

و هذه مســـألة استوعبهـــا علمـــاؤنا و عملوا بهـــا، فها هو أبو حيـــان في تعاملـــه مع الخطـــاب القرآني يستنـــد إلى مجموعـــة من المفاهيـــم الأسلوبيـــة التي استوحـــاها من كتب علمـــاء التفسير و الفقـــه و الأصول، إذا رأى صوابـــاً في آراء أصحابهـــا، و إن كان في كثير من المواضيـــع يختلـــف معهـــم في الطرق أو المناهـــج الموصلة إلى الحقائـــق الكونيـــة المبثوثـــة في الخطاب أو النص القرآنـــي، الذي علم المسلميـــن أصول البحث العلمي حين دعـــاهم إلى البحث في الإنســـان و البحث في الكون بحثا علميـــا دقيقـــا مؤسســـاً على أدوات البحث العلمي[1].

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني، مظاهر الاتســـاق و الانسجـــام، لخديجة ايكـــر، ص 112.

و ذلك ظاهـــر في قوله تعـــالى في سورة البقـــرة، الآيـــة 164 ﴿إنّ في خلـــق السموات و الأرض و اختـــلاف الليل و النهّـــار و الفلك التي تجـــري في البحر بما ينفـــعُ النـــاسَ و ما أنزلَ الله من السّماء من ماءٍ فأحيـــا به الأرضَ بعد موتهـــا و بث فيهـــا من كل دابّـــةٍ و تصريف الرّيـــاح و السّحـــاب المسخّر بين السّمـــاء و الأرض لآيـــاتٍ لقوم يعقلـــون﴾، و يقـــول في سورة العنكبـــوت الآيـــة 20 ﴿قل سيـــروا في الأرض فانظـــروا كيف بدأ الخـــلق ثم اللهُ ينشـــئُ النشـــأةَ الآخِـــرة إنّ الله على كل شيء قديـــر﴾.

و عليـــه فالقـــدرة على كشف أسرار هذا الخطـــاب المعجز تتفـــاوت بتفاوت القـــدرات العلميـــة لدى البشر؛ إذ أن قدرتهـــم على التعـــامل مع الخطاب القرآنـــي فهمـــاً و إدراكـــاً و استنباطاً ليست على مستـــوى واحد، لذلك فالاختـــلاف في الوصول إلى خبايـــا هذا الخطاب واردة في كتـــب التفسير و الفقـــه، و تعاملنـــا مع تفسيـــر البحر المحيط لا يجعلـــه خارج إطـــار النسبيـــة العلميـــة التي ارتـــأينا أن نتطـــرق إليها في هذا التقديـــم، رغبـــة منّا في معرفـــة الأدوات المعـــرفية و المنهـــج العلمـــي الذي تبنـــاه و انفـــرد به أبـــو حيـــان في تعاملـــه مع الخطاب القرآنـــي، و معرفـــة أيضاً المستـــوى اللسانـــي الذي ركـــز عليه حتـــى يؤكد تناسق و انسجام هذا الخطـــاب.

غير أننـــا حين شرعنـــا في الحديـــث عن هذه المســـألة واجهتنـــا إشكاليـــة تنحصـــر في تســـاؤل مهم هو هل القـــرآن نص أم خطـــاب أم هو الإثنيـــن معـــاً؟. و للإجـــابة عن هذا التســـاؤل كان جديـــراً بنا أن نقف

عنـــد مفهـــوم كل من النص و الخطـــاب عند القدمـــاء و المحدثيـــن بغض النظـــر عن توجهـــاتهم، خاصة إذا علمنـــا بأن القدمـــاء استخدمـــوا مصطلـــح الخطاب في حديثهـــم عن القـــرآن، و المحدثون يستعملـــون مصطلـــح النص مرة و مصطـــلح الخطاب مرّة أخـــرى، و قد يستخدمـــون المصطلحيـــن معاً كما فعلـــت الدكتـــورة خديجـــة ايكـــر بقولهـــا النص/ الخطاب القرآنـــي على أن كلام الله، قد انفـــرد بخصـــائص النص و الخطـــاب على حد سواء.

I- مفـــهـــوم النـــص:

جـــاء في لسان العـــرب النص استقصـــاء المعنـــى و في حديث هرقـــل: ينصهـــم أي يستخـــرج رأيهم و يظهـــره، و منـــه قول الفقهـــاء نص القـــرآن و نص السنـــة: أي ما دل ظاهـــر لفظهمـــا عليه من الأحكـــام[1]. و ورد أيضا بمعنـــى الظهور و الارتفـــاع و الانتصـــاب: "النص رفعـــك الشيء و نصصت الشيء رفعتـــه، و منه منصـــة العروس و هو ما تظهـــر عليـــه لترى. واصـــل النص أقصى الشيء و غايتـــه و نص كل شيء منتهـــاه"[2]. و استخـــدم علمـــاء الفقـــه مصطلح النص للدلالـــة على ما يحتمـــل إلاّ معنـــى واحداً قبل ما لا يحتمـــل التـــأويل؛ معنـــى هذا أن النص هو ذلكـــم المعنـــى المتبـــادر من ظاهر النـــص، و يقصـــد به الدلالـــة التي يفيـــدهـــا البنـــاء اللغـــوي الشكـــلي[3]. و نستخـــلص من الاستعمـــالات الواردة في كتـــب الفقـــه و السنـــة أنّ

[1] لسان العـــرب: ابن منظـــور (ت 711 هـــ)، باب النون مادن (نصص) ج6 ص 4442/4441.

[2] المصـــدر نفســـه.

[3] لسانيـــات الخطاب القرآني، لخديجة ايكر، ص 151.

مفهـــوم النص عند الأصوليـــن محصـــور في الآيـــة القرآنيـــة و الحديث النبـــوي الشريف، فيقـــال نصوص القـــرآن و السنـــة، و يشمـــل هذا المعنـــى الظاهر و النص المفســـر و المحكم بمعانيهـــا الاصطـــلاحية[1].

أما علمـــاء النحو فالأمـــر بالنسبـــة لهم يختلف، و قد أشـــرنا في حديثنـــا عن التركيـــب أن أولـــى انشغـــالات النحاة كانت منحصـــرة في وضع تعـــاريف محددة لمجمـــوعة من المصطلحـــات كانت متداولـــة هي: الكلمـــة، و القول، و الكـــلام، و الحرف، و الاســـم و الفعل. و جل المؤلفـــات النحويـــة تشتمل على هـــذه التعـــريفات المتقاربـــة في مجملهـــا إلاّ فيمـــا يتعلق بالكـــلام و الجملة، فمنهم من يجعلهـــا بمعنـــى واحد كابن جنـــي (ت 302 هـــ) يقول: "و أمّـــا الكلام فكل لفـــظ مستقـــل بنفسه، مفيـــد لمعنـــاه، و هو الذي يسميـــه النحـــاة الجمل، نحو: زيـــد أخـــوك، و قام محمـــد... فكل لفظ استقـــل بنفســـه، و جنيـــت منه ثمـــرة معنـــاه فهو كلام"[2]. غير أن ابن هشـــام يفـــرق بينهمـــا و يجعـــل الكـــلام أعم من الجملة إذ معنـــاه القول المفيـــد بالقصـــد، أما الجملـــة فلا تعـــد أن تكون فعـــل + فـــاعل أو مبتـــدأ + خبر، و لا يشتـــرط فيهـــا الإفـــادة[3]. و عليـــه فإن النص يمكـــن أن يكون جملـــة، و لكن لا يمكن لكل جملة أن تشكل نصـــاً[1]. زيـــادة على ذلك فإن ابن هشـــام يقسم الجملـــة إلى صغرى و كبـــرى و لا يعـــد

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني، لخديجة ايكر، ص 151.

[2] الخصائص لأبي الفتـــح عثمان بن جنـــي، ج1، ص17، تحقيق محمد علي النجـــار، عالـــم الكتـــب، لبنـــان ط3، 1403 هـــ/1983م.

[3] مغني اللبيـــب عن كتب الأعـــاريب لابن هشـــام الأنصـــاري تحقيق مـــازن المبـــارك، ص 490.

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني، لخديجة ايكر، ص 152.

الجملـــة الكبرى كيـــاناً مستقـــلاً، معنـــى ذلك أنه لا يعتبـــرها وحدة لســـانية يمكن أن توصف لســـانيا، كما ذهب إلى ذلك بلومفيـــلد، بل يجعلهـــا جملة صغـــرى إذا وردت في النص. و هذا فعـــلاً، تصور مبكـــر لمعنى النص باعتبـــاره أكبر وحـــدة لسانيـــة يمكن أن تكـــون محل الدراسة اللسانيـــة[1].

و انحصـــرت الدراسات اللسانية الحديثة في تحـــديد مفهوم اللغة و اللسان و الكـــلام، انطـــلاقا من ثنـــائيات فاردينـــارد دي سوسيـــر، التي فسحـــت المجال أمام الألسنييـــن في العقـــود التاليـــة إلى مناقشـــة هذه المفـــاهيم من زوايـــا متعـــددة: دلاليـــة تواصليـــة و تركيبيـــة؛ ممّـــا يؤكد وعي الألسنييـــن بضـــرورة دراســـة اللغة في إطارها الكلي الزمنـــي و التداولـــي، و من خلال استعمـــالاتها المتعـــددة المؤديـــة لوظـــائف مختلفـــة، حددهـــا بإمعـــان اللساني الروســـي ياكوبسون Roman Jakobson.

و عليـــه وردت عن الألسنييـــن تعاريف مختلفـــة للجملـــة تحدد في مضمونهـــا مفهوم النص؛ فبلومفيـــلد Leonard Bloomfield يعرفهـــا على أنها صورة لسانيـــة أكبر بموجب أي تركيـــب نحوي[2].

و يعـــرف جون لاينـــز John Lyons الجملـــة على أنهـــا أكبر وحـــدة توصف نحويـــاً[1]. غير أنّ النحـــو الجملي يبقـــى قاصـــراً أمام عـــدّة

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني مظاهـــر الاتســـاق و الانسجـــام، لخديجة ايكر، ص 153.

[2] المرجع نفسه، ص 154، نقـــلا عن

Linguistique générale John Lyons, P133 traduction F dubois–Charlier Larousse-Paris-.1970.

ظواهر لسانيـــة منها العـــوائد و التقـــديم و التـــأخير و المضمرات و العلاقـــات الرابطة بين الجمـــل و الاشتغـــال و غيرها... لذلك كان الانتقـــال حتميـــا من النحو الجملي إلى ما اتفـــق العلمـــاء على تسميتـــه بالنحو النصي، و انتقـــل بذلك الدرس اللســـاني إلى مجـــال أوســـع من الجملـــة هو لســـانيات النص أو علـــم النص بجميـــع أبعـــاده.

و قد حـــاول عندئـــذ العلمـــاء وضع تعـــريف دقيـــق لمصطلـــح النص، لكنهـــم لم يتمكنـــوا من ذلك، فكمـــا وجدت تعـــاريف مختلفة و متنـــاقضـــة للجملة، وجدت أيضـــاً تعاريف مختلفـــة متعلقـــة بالنص. و فشل الألسنيـــون في وضع تعـــريف واضح محدد معتـــرف به[2]. فقد ذهـــب هارتمـــان Hartman إلى تحديد النص على أنّـــه، أي قطعـــة ما ذات دلالة و ذات وظيفـــة، و بالتـــالي هي قطعة مثمـــرة من الكلام[3]. و هذا تعـــريف يشبـــه تعريف لويس يلمسلف Louis Hjlmeslev الذي يعتبـــر كل قول أو عبـــارة كيفمـــا كانت مكتـــوبة أو منطوقـــة، طويلة أو قصيـــرة، قديمـــة أو حديثـــة، أو بالأحرى كل مادة لغـــوية قابلـــة للدراسة نصًّـــا[1]. و هو تعـــريف يمتـــاز بالعموم و الشموليـــة و الضبابيـــة لأنّه لا يعطينـــا تصوراً دقيقـــا لمفهـــوم النص

---

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني مظاهـــر الاتســـاق و الانسجـــام، د خديجـــة ايكـــر، ص 154، نقـــلا عن
La grammaire du texte en pays de langue allemande –J-F-Bourdin – P133.

[2] ينظـــر بلاغـــة الخطاب و علم النص للدكتـــور صلاح فضل، الشركة المصريـــة العالميـــة للنشر لونجمـــان 1996، الطبعة الأولى، دار نوبـــار للطباعة، القاهـــرة، ص 295.
علم لغة النص المفاهيـــم و الاتجـــاهات د. سعيـــد حسن بحيـــري، مكتبة لبنـــان، ناشـــرون الشركة المصريـــة العالميـــة للنشر 1997 الطبعـــة الأولى، دار نوبـــار للطباعـــة، القـــاهرة، ص101.

[3] علم لغـــة النص المفاهـــيم و الاتجـــاهات د. سعيـــد حسن بحيـــري، ص 101-102.

[1] لسانيـــات الخطاب القرآني، ص 154 نقلا عن:
Dictionnaire de Linguistique : Jean dubois. P486, édition Larousse, Paris 1989.

كما ذهبـــت إليه جوليـــا كريستيفـــا Julia Kristiva التي تـــرى أن "النص أكثر من مجرد خطـــاب أو قول؛ إنّه موضوع لعديد من الممـــارسات السيميولوجيـــة التي يعبّـــر بها على أساس أنّها ظاهـــرة غير لغـــوية، بمعنـــى أنها مكونـــة بفضل اللغة، لكنهـــا غير قابلة للانحصـــار في مقولاتها..."[1]. معنى ذلك أن علاقـــة النص باللغة هي من قبيـــل إعـــادة التوزيـــع عن طريـــق التفكيـــك و إعادة البنـــاء؛ باعتباره بنـــاء نظريـــا تحتيـــا مجرداً لما يسمـــى عادة خطـــاباً منسقـــاً على حد قول فان ديك Vandick[2]. فالنص إذن وحـــدة كبـــرى شاملة لا تضمهـــا وحدة أكبر منهـــا؛ أي هو كيـــان واحد أجزاؤه متصلـــة لا يمكن فصلهـــا عن بعضهـــا البعض. هذه الفكـــرة أدت إلى إطـــلاق مصطلح "المنغلق على ذاتـــه" بمعنـــى المكتفي بذاتـــه[3]. مما يبعـــد فكـــرة برينكـــر Brinker القائلة بأن النص هو تتـــابع مترابط من الجمـــل؛ هذا لا يعنـــي أن النص يوصف من خلال الجملة و إنما المؤكـــد من هذا التعـــريف كون الجملـــة تعد جزءاً من الكل الذي هو النـــص، و يذهب السيميولوجـــي الروسي لوتمـــان Lotman yuri إلى تحديد مفهـــوم النص من خـــلال تصوراتـــه الكليـــة عن الفن معتمـــداً على عناصر أساسيـــة هي[4]:

1- **التعـــبيـــر**: انطلاقـــاً من الفكـــرة القائلـــة بأن النص هو ممـــارسة فعليـــة للكلام فهـــو بذلك تحـــقيق لنظام معيـــن و تجسيد مادي له.

[1] بلاغـــة الخطاب و علم النص، د. صلاح فضل، ص294.

[2] لســـانيـــات الخطـــاب، ص 156.

[3] علم لغـــة النص لسعيـــد حسن بحيـــري، ص 104، بلاغة الخطاب و علم النص، د. صلاح فضل، ص 299.

[4] المصدر نفســـه، ص 116-117.

2- **التحـــديد:** لكل نص أدبـــي كان أو فنـــي حدود لدلالات غير قابلـــة للتجزئـــة، كأن يكون قصـــة أو قصيـــدة أو وثيقـــة، ممّا يعنـــي أنّه يحـــقق وظيفـــة ثقافيـــة محددة و ينقـــل دلالتهـــا الكاملـــة، و يعـــرف بذلك القـــارئ النص من خـــلال مجموعـــة من السمـــات التي تميـــزه عن غيـــره.

3- **الخـــاصة البنيـــويـــة:** ترتبـــط بديهيـــا بخاصيـــة التحديد، لأننـــا إذا افترضنـــا بأن النص مؤلـــف من متواليـــة جمليـــة محـــددة، فإننـــا نلمـــس بالضرورة تشكيلهـــا لبنيـــة فنية متسقـــة؛ فالنـــص لا يكون نصاً إلا إذا كـــان متسقا بمعنـــى أنه يشكل منظومـــة مكونـــة من بنيـــات و عناصر، تربـــط بينهـــا عناصر الربـــط الشكلية و الدلالية التي تجعـــل منه بنـــاء متماسكـــاً[1]. و بالتالي فإننـــا يمكننا إجمال العناصر اللسانيـــة التي يعرف من خلالهـــا اتساق النص و انسجـــامه فيما يلـــي[2]:

أ- الإحـــالـــة: هي مجموع الروابط التي تربط السابق باللاحق و تحقق العلاقـــات القائمـــة بين مكونـــات النص كالضمـــائر و أسمـــاء الإشـــارة و أسماء التفضيـــل و أداة التعـــريف.

ب- التعـــويض: أو التقديـــرات و تشمل المحذوفـــات بكل أنواعها.

ج- الوصـــل: و هي علاقـــات دلاليـــة تتحقق بواسطـــة أدوات العطـــف و الاستثنـــاء و الجملة الاعتـــراضية و جملـــة الصلة.

[1] لســـانيـــات الخطاب القرآني لخديجـــة ايكـــر، ص 156.

[2] ينظر بلاغة الخطاب و علم النص، د. صلاح فضل، ص من 14-24، و ينظر لسانيات الخطاب القرآني لد. خديجة ايكر، ص 157.

د- الاتســـاق المعجمـــي: و يشمل الحالات التي يعـــاد فيها لفـــظ معجمـــي أو يتوارد فيهـــا لفظـــان معجميـــان متعالقـــان دلاليـــا.

و هكذا أضفـــت جهود الألسنييـــن الجادة في تحـــديد مفهـــوم النص إلى النظر ليس فقط، إلى طبيعـــته النحويـــة بل تجاوز الأمر جوانبه الدلالية و التداولية التي تقوم على مفاهيـــم منطقيـــة، تنطلـــق من كون الجملـــة قضيـــة، و يعد النص بذلك مجموعة قضايا تعكس العلاقات الباطنيـــة؛ قد لا تعكسهـــا التراكيب اللغويـــة الفعليـــة للنص[1]. و وسط هذه الأعمـــال العلميـــة ظهر ما يسمـــى نحو النص أو لسانيـــات النص و علم اللغة النصـــي و نظريـــة النص.

لذلك، فإن أي وصف أو تحـــليل لغوي قـــائم بالدرجـــة الأولى على النص؛ باعتبـــاره –كما سبق و أن أشرنـــا- نظاماً لغويـــاً متكامـــلا و مستقلا يهـــدف إلى تحقيق التواصـــل بين صاحب النص و المتلقـــي[2].

من هذا المنطـــق اعتمد علمـــاء التفسيـــر على علوم اللغة و الفقـــه للوقوف على معنى النص القرآنـــي مع استحضـــار أسبـــاب النزول، و كل الظـــروف المحيطـــة بالتنـــزيل؛ حتى تكون القراءة القرآنيـــة مستوفيـــة لشروطهـــا، فلا يحيـــد المتلقـــي عن المعنـــى المقصود من النص القرآنـــي الذي لا يشبـــه النص الأدبـــي و لا الفني و لا العلمـــي و لا الثقـــافي؛ إنّمـــا هو نص معجـــز غير مرتبط بزمـــان أو مكـــان، منزل من الله سبحـــانه و تعـــالى، هو

[1] علم لغة النص لد. سعيد حسيـــن بحيـــري، ص 110.
[2] لســـانيـــات الخطاب القرآني، لخديجة ايكر، ص 163.

نص فيـــه من الانسجـــام و الاتســـاق بين جزئيـــاته المؤلفـــة له ما يجعلـــه كيـــانـــاً واحـــداً، يصعـــب على المتـــلقي و إن كان عالمـــاً متبحـــراً في علم النص أن يفـــكك عناصره و يعـــيد بنـــاءه ليصـــل إلى المعنـــى المراد منـــه. كمـــا أمرنـــا بذلك الله عزو جل يقول في كتـــابه العزيز ﴿**أفـــلا يتدبَّـــرُون القرآن و لو كـــان من عند غير** الله **لوجـــدوا فيه اختـــلافاً كثيـــراً**﴾ النســـاء/82، و قولـــه أيضـــا ﴿**أفـــلا يتدبَّـــرُون القرآن أم على قلـــوبٍ أقفـــالها**﴾ محمـــد/24.

و لقد توقفنـــا في الفصل الأول من هذا البـــاب عند العنـــاصر الأساسيـــة المساهمـــة في انسجام النص القرآنـــي و اتســـاقه من حيث الصـــوت و المفردة و كذلك التركيـــب كما أوضحهـــا أبو حيـــان في تفسيـــره، و إن كان فهم النص و تحليلـــه -كما أشرنـــا إلى ذلك سلفـــا- يتجـــاوز التحليـــل اللســـاني المرتبـــط بالصـــوت و المفـــردة إلى العلاقـــات الرابطـــة بين هذه الأجـــزاء، و التمعـــن في هذه العـــلاقات الدالـــة على إعجـــازه، ثم إن الوصول إلى هذه الدلالات لا يتوقـــف عند شكل النص، و إنّما يتجـــاوزه إلى مقاصـــد الخطاب القرآنـــي و دلالاتـــه الخفيـــة المساهمـــة بشكـــل فعال في البنـــاء الحضـــاري للأمة الإسلاميـــة. و قبل أن نتـــوقف عند المقاصد الدلاليـــة للنص أو الخطـــاب القرآني لا بـــأس أن نلتمـــس معاني الخطاب عند القدمـــاء و المحدثيـــن.

II - مفـــهـــوم الخطـــابـــ:

جـــاء في لسان العرب: "الخطـــاب و المخـــاطبـــة مراجعة الكلام، و قد خاطبـــه بالكـــلام مخاطبـــة و خطابـــاً... و المخاطبـــة مفاعـــلة من الخطـــاب و المشاورة"[1]. و يرى ابن فارس أن الخطـــاب هو كلام بين اثنيـــن يقال خاطبـــه يخاطبه خطابـــاً[2].

و وردت لفظـــة "خطـــاب" مرتين في القرآن الكريم في ســـورة ص في الآيتيـــن 20 و 23[3] يقـــول تعـــالى ﴿**و شَدَدْنـا مُلْكَـهُ و ءاتينـاه الحكمـة و فَصْـلَ الخطـابـ**﴾ و قـــولـــه ﴿**إنَّ هذا أخـي لَـهُ تِـسْـعٌ و تسعُـون نعجـةً و لي نعجـةٌ واحدةٌ فقَـالَ أكْفِلْنِيهَـا و عَـزَّنِي في الخطـابـ**﴾. يقول ابن عطيـــة في تفسيـــر قوله تعـــالى ﴿**و فَصْلَ الخطـابـ**﴾ : "إنـــه كان إذا خاطب في نازلـــة فصل المعنـــى و أوضحه و بينه لا يأخـــذه في ذلك حصر و لا ضعـــف، و هذه صفـــة قليل من يدركهـــا، فكـــأن كلامه عليه السلام فصـــلا، و قد قال تعالى في صفـــة القـــرآن ﴿**إنَّـهُ لقَولٌ فَصْلٌ**﴾ طارق/13، و يزيـــد محمد على هذه الدرجـــة بالإيجـــاز في العبـــارة و جمع المعـــاني الكثيـــرة في اللفظ اليسيـــر، و هذا الذي تخـــصص عليه السلام به في قـــوله: أعطيت جوامـــع الكلم فإنّهـــا في الخلال التي لم يوتهـــا أحد قبلـــه"[1].

---

[1] لســـان العـــرب لابن منظـــور، ج2، ص 1195/1194.

[2] مقاييس اللغة لأحمد بن فـــارس بن زكريـــاء (ت 395 هـــ) تحقيق عبد الســـلام هـــارون، مـــادة (خطب) ج2 ص 198، مطبعـــة البابي الحلبي، القـــاهرة، ط2، 1969م.

[3] المعجـــم المفهرس لألفـــاظ القرآن الكريـــم وضعـــه محمد فـــؤاد عبد الباقـــي، ص235.

[1] المحـــرر الوجيـــز لمحمد بن عطيـــة، ج14، ص 18.

و ليس بعيـــداً عن هذا المعنـــى يفسر أبو حيـــان قولـــه تعالى ﴿ **و فَصْلَ الخطـــابِ**﴾ يقول: قال علي و الشعبـــي : (إيجـــاب اليمين على المدعـــى عليه و البينة على المدعـــي)، و قال ابن عبـــاس، و مجاهـــد و الســـدي: (القضـــاء بين الناس بالحـــق و إصابتـــه و فهمـــه)، و قال الشعبي : (كلمـــة أما بعد لأنه أول من تكلـــم بها و فصل بين كلاميـــن)"[1].

و يعطينا الزمخشـــري تعريفـــاً مفصلاً و شامـــلاً لمفهـــوم الخطاب من خلال تفسيـــره للآيـــة ﴿ **و فَصْلَ الخطـــابِ**﴾ يقول: "البيّـــن من الكـــلام الملخـــص الذي يتّبينـــه من يخـــاطب به لا يلبـــس عليـــه، و من فصل الخطـــاب و ملخصه أن لا يخطـــئ صاحبـــه مظان الفصل و الوصـــل فلا يقف في كلمـــة الشهـــادة على المستثنـــى منه، و لا يتـــلو قولـــه ﴿ **فويلٌ للمصلّيـــن**﴾ الماعون/04 إلا موصولاً بما بعده و لا ﴿**و الله يعلـــمُ و أنتـــم**﴾ البقـــرة/216 حتى يصـــله بقولـــه ﴿**لا تعلمـــون**﴾ و نحو ذلك. و كذلك مظـــان العطف و تركه و الإضمار و الإظهـــار و الحذف و التكرار... و أردت بفصـــل الخطاب الفـــصل من الخطـــاب الذي يفصل بين الصحيـــح و الفـــاسد و الحق و الباطـــل و الصواب و الخطـــأ. و هو كلامه في القضايا و الحكومـــات و تدابير شؤون الملـــك و المشورات... و يجـــوز أن يراد بالخـــطاب القصد الذي ليس فيـــه اختصـــار مخل و لا إشبـــاع ممل، و منه ما جاء في صفـــة كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم (فصـــل لا نـــزر و لا هذر)"[1].

[1] البحـــر المحيـــط، ج7، ص 374.

[1] الكشـــاف للزمخشـــري، ج3، ص 365.

و هكـــذا يتضح لنا من خـــلال التعاريف السابقـــة الذكـــر، أن علمـــاءنا قد تفطنـــوا منذ وقت مبكـــر إلى مفهوم الخطـــاب، و إلى ما انفـــرد به الخطـــاب القرآني خاصة، لنستنتـــج من نظرتهـــم هذه: أن الخطـــاب هو منجـــز لغوي مقصـــود مؤسس على العناصر اللسانيـــة الأساسيـــة، التي تم التطـــرق إليهـــا في الفصل الثـــالث من هذا البحـــث، و التي من شـــأنهـــا أن تحقـــق تمـــاسك الخطـــاب و انسجـــامه. إلاّ أن هذا الانسجـــام لا تتحـــقق وحـــدته بالاعتمـــاد على البنيـــة اللغويـــة السطحيـــة، بقدر ما يكـــون تـــاويا وراء بنية الخطاب العميقة و الكلية التي تستحضر العناصر التواصليـــة و التداولية[1]. فالخطـــاب إذن منطوقـــا أو مكتوباً لا يمكن أن يتم إلاّ بين المخاطِب و المخاطَب، و عنصر التلقـــي ههنـــا مهم جـــدًّا؛ فالمخاطب يُحمِّل نص خطابـــه معـــان يهدف إلى إيصالها إلى المتلقي أو المستمع أو المخـــاطب. و يقـــوم المتلقـــي بدوره بحل شفـــرة هذا الخطاب بتفسيره و تأويله للوصول إلى تلك المعـــاني مما يجعـــل عمليـــة التواصل بينهمـــا متحققـــة، يقـــول أبو البقـــاء الكفـــوي (ت1094هـــ) في تعريف الخطـــاب: "الخطاب: خاطبـــه و هذا الخطاب له لا خاطب معه و الخطـــاب معه إلا باعتبـــار تضميـــن معنى **المكـــالمة**. و هو الكـــلام الذي يقصـــد به الإفهـــام، و لفظ المخـــاطب لم يوضع لمخاطب يتوجـــه إليه الخطاب بلفظ المخـــاطب، بخـــلاف أنت بل هو، و كذا لفظ المتكلم موضوعان لمفهومهمـــا لا لذاتهمـــا في الأحكام.

و الخطـــاب: اللفظ المتواضـــع عليه المقصـــود به إفهـــام من هو متهـــيء لفهمـــه، احتـــرز باللفظ عن الحركات و الإشارات المفهمة بالمواضعة و بالتواضع

[1] لســـانيـــات الخطاب القرآنـــي، لخديجة ايكر، ص 135.

عليـــه عن الألفـــاظ المهملـــة، و بالمقصـــود به الإفهـــام عن كـــلام لم يقصـــد به إفهـــام المستمـــع فإنـــه لا يسمى خطابـــاً، و بقولـــه: لمن هو متهيء لفهمـــه عن الكـــلام لمن لا يفهـــم كالنائـــم.

و الكـــلام يطلق على العبـــارة الدالة بالوضـــع على مدلولهـــا القائم بالنفـــس، فالخطاب إما الكلام اللفظـــي أو الكلام النفسي الموجـــه نحو الغيـــر للإفهـــام، و قد جـــرى الخـــلاف في كلام الله هل يسمـــى بالأزل خطابـــاً قبل وجـــود المخاطبيـــن تنزيـــلاً لما سيوجـــد منزلـــة الموجود أولاً؟ فمن قال: الخطاب هو الكـــلام الذي يقصـــد به الإفهـــام سمى الكلام في الأزل خطابـــاً، لأنّـــه يقصد به الإفهـــام في الجملة. و من قال: هو الكـــلام الذي يقصد به إفهـــام من هو أهل للفهـــم على ما هو الأصل لا يسميـــه في الأزل خطـــاباً... و من يريـــد أن يـــأمر أو ينهـــى أو يخبـــر أو يستخبـــر أو ينـــادي يجد في نفســـه قبل التلفـــظ معناها ثم يعبـــر عنه بلفـــظ أو كتـــابة أو إشارة، و ذلك المعنـــى هو الكلام النفسي، و ما يعبـــر به هو الكـــلام الحسي، و مغايرتهمـــا بنيـــة إذ المعبـــر به قد يختـــلف دون المعنـــى"[1].

لقد تضمـــن كلام الكفوي عناصـــر و مميزات الخطـــاب المتمثلـــة أهمها في لفـــظ "**المكـــالمـــة**" الدال على أن الخطـــاب ما هو إلاّ مرسلـــة لغويـــة Message تتم بين متكلـــم و متلقي، بينهمـــا قنـــاة واصلة لهذه المرسلـــة: فإن كانت مشافهـــة فالهواء في الغـــالب هو القنـــاة الموصلـــة و إن كانت

[1] لسانيـــات الخطاب القرآنـــي، لخديجـــة ايكر، ص 137-138. نقـــلاً عن الكليـــات "معجم في المصطلحـــات و الفروق اللغـــوية" أبو البقـــاء أيوب بن مـــوسى الحسينـــي الكفـــوي (ت1094هـــ)، تحقيق عدنـــان درويش و محمد المصري، ج2، ص 286/285، منشورات وزارة الثقـــافـــة، دمشق ط2، 1982.

مدونـــة فالكتـــابة هي القنـــاة الموصلـــة، و قد حددهـــا رومان ياكبســـون بهذا الشكـــل.

هذه الميـــزة هي الفاصلة بين مفهـــوم النص و مفهـــوم الخطـــاب؛ بل تجعـــل الخطاب أعم من النص لذلك يقال "نص الخطـــاب" و علماؤنـــا حين أطلقـــوا لفظ "الخطاب" على القرآن الكريم لم يخطئـــوا قط، ثم أن قولـــه بأن الخطاب هو كلام يقصد منـــه الإفهـــام؛ يعنـــي أنّـــه خاضع خضوعـــاً إلزاميـــاً لما سمـــاه فاردينـــو دي سوسيـــر بخطية اللغة التي نجملهـــا في القوانيـــن الصوتيـــة و الإفرادية و التركيبية، أي أن الخطاب ذو بنيـــة خاصة به من منظـــور بول ريكـــور Paul Ricoer ليست هي بنيـــة التحـــليل البنيـــوي، أي ليست بنيـــة الوحدات المنفصلة المعزولـــة عن بعضهـــا، بل بنيـــة التحـــليل التأليفـــي، أي التوسع و التفـــاعل بين وظيفتـــي تحديد الهويـــة و الإسنـــاد في الجملة الواحـــدة[1]. زد على ذلك أن عملية الإفهام تحقق عنصر التواصل و المسألة ههنـــا – كما سبق- تتجـــاوز الجانب الشكلي للخطـــاب إلى مستويـــن الأسلوبي و التـــداولي، و قد تنبـــه الكفـــوي إلى عمليـــة إنتـــاج الخطـــاب

[1] بول ريكـــور، نظريـــة التـــأويل الخطاب و فائض المعنـــى ترجمـــة سعيد الغانمـــي المركز الثقـــافي العـــربي دار البيضـــاء، المغـــرب، الطبعـــة الأولـــى، 2003، ص 13.

الذي يبـــدل فيـــه المتكـــلم قصار جهـــده؛ فهو في البدايـــة يكون تصوراً لمعـــان تختلـــج في ذهن المتكلـــم و بعد صقلهـــا تخرج للمتلقـــي كلامـــاً منجـــزاً دالاً و ليس بالضرورة أن يكون الكـــلام المتصـــور هو الكلام المنجـــز في الواقـــع اللغـــوي، تقـــودنا هذه الفكـــرة إلى ما توصل إليـــه أفرام نـــوام شومسكـــي Avram Noam Chomsky قرونـــاً بعد ذلك ليخـــرج بالنظريـــة التوليديـــة و النحو التحـــويلي، فالخطـــاب، إذن، "لا يتـــم إنجـــازه إلاّ بعد تصوره، و من ثم فإن الخطاب خطابـــان، خطاب متصـــور هو الذي نصطلـــح عليه بالكلام النفســـي و خطاب منجـــز و هو ما اصطلـــح عليـــه بالكـــلام الحسي أي الفعـــل اللغوي المنجـــز مبينـــا أن الخطـــاب المتصور ليس بالضرورة هو الخطـــاب المنجز"[1].

غير أن الحديـــث عن الخطـــاب كونـــه كلامـــاً منجـــزاً إراديـــاً من متكلـــم و متلقـــي في زمان و مكـــان واحد يشتركـــان فيه، هو الحديث عن الخطـــاب البشري في عمومـــه لكن القرآن الكريـــم كلام الله الأزلـــي المطلق المتعـــالي الحاضر في كل زمان و مكـــان، غير موجه إلى فئـــة من النـــاس بعينهـــا في زمن بعينه و مكان بعينـــه، و إنما هو كلام موجـــه إلى الناس كافـــة بغض النظر عن زمـــان و مكان تواجدهـــم و عن مستواهـــم في استيعاب و فهم معانيـــه؛ مما يجعـــل درجـــة الوصول إلى دلالات السيـــاق و مقصودية الخطاب القرآني تتفـــاوت بين النـــاس.

[1] لســـانيات الخطـــاب القرآنـــي، لخديجـــة ايكـــر، ص 139.

لقد تـــأكد من خـــلال كل هذه التعاريـــف، أن مفهوم الخطـــاب يختـــلف كل الاختـــلاف عن مفهـــوم النص. و إن كان بعض العلمـــاء المحدثيـــن لا يميزون بين المفهـــومين كما فعـــل فان ديك Van Dijk[1] و غيره، و الكل يجمـــع على أن الخطـــاب ما هو إلا متتـــالية جمليـــة أو سلسلـــة متتـــاليـــة من الجمـــل المترابطـــة و المتماسكـــة دلاليـــا، قصد اهتمـــام المتلقي و التـــأثير فيه، يعرفـــه بيير زيمـــا Pierre Zima بأنه وحـــدة فوق جمليـــة تولد من لغـــة جماعيـــة، و تعتبـــر بنيتهـــا الدلاليـــة كبنيـــة عميقـــة جزءاً من شيفـــرة، و يمكـــن تمثيـــل مسارهـــا التركيبـــي-النحـــوي، بواسطـــة نموذج تشخيصـــي (ســـردي)[2].

و بالتـــالي فإن اتجـــاه الألسنييـــن إلى دراســـة الكـــلام باعتبـــاره ممارســـة فرديـــة نابعـــة من فكر مبـــدع خاص بالمتكلـــم موجـــه إلى المتلقي يضفـــي بهـــم – ضمنًـــا- إلى الاهتمـــام بالخطاب المحقق لهذا التـــواصل بين المتكلم و المتلقـــي، الذي يفتـــرض منـــه أن يعمـــل فكره ليستـــخرج المعـــاني المبثـــوتة في الخطاب أو النص، ليتـــم نقله من وضع الخاص لدلالة ما و العـــودة به إلى طابعـــه اللامتنـــاهي، على القارئ أو المتلقـــي أن يتخيّـــل أنّ كل منظر يخفـــي دلالـــة خفيـــة، فعـــوض أن تقـــول الكلمـــات فإنّمـــا تخفي ما لا تقـــول...[1] فالنص إذن هو المنجـــز اللغـــوي المكتـــوب أما الخطاب فهو المنجـــز اللغوي المنطـــوق، و قد جمـــع القرآن الكريم بين الصفتين فهو إذن

[1] علم لغـــة النـــص المفـــاهيـــم و الاتجـــاهات، د. سعيـــد حسنـــي بحيـــري، ص 221.

[2] لســـانيات الخطـــاب القرآنـــي، لخديجـــة ايكـــر، ص 144.

[1] أمبـــرتو إيكر التـــأويل بين السيميائيـــات و التفكيكيـــة، ترجمة و تقـــديم سعيـــد بنكـــراد، المركـــز الثقـــافي الغـــربي، الطبعـــة الأولـــى، ص43.

خطاب يمثـــله علم القراءات القرآنية و نص يمثلـــه الرسم تتحـــقق من خـــلاله عمليـــة التواصل الناجحـــة بشروطهـــا:

① **المرســـل**: الله جـــلّ و عـــلا.

② **المتلقـــي**: النـــاس أجمعيـــن في كل زمـــان و مكـــان.

③ **الخطاب ذاتـــه**: القرآن الكريـــم، كلام الله المتصف بصفتـــه، المتعـــالي عن الزمان و المكـــان، المعجـــز بلفظـــه و أسلوبـــه.

④ **الحضور**: حضـــور صاحب النص قراءة و كتـــابة فحيثمـــا قرئ القرآن أو تُلي فثم وجـــه الله.

و هكذا فإن علماءنا قد تفطنـــوا منذ رهـــط من الزمن إلى دلالـــة المصطلحين، و إطلاقهـــم لفظ الخطـــاب على القـــرآن الكريم فيه من الصواب ما يؤكد كل التعـــاريف التي رأينـــاها عند العلماء القدمـــاء و المحدثيـــن على حد ســـواء. و قد تكـــون الدكتورة خديجـــة ايكر صائبـــة حين استخدمـــت المصطلحيـــن معاً تـــأكيداً على أن القرآن الكريم جمـــع بين الصفتيـــن. لكننـــا نرى أن علمـــاءنا قد أصابـــوا في استخـــدامهم مصطلح الخطـــاب باعتبـــاره أعم من مصطلـــح النص، لتفـــرد القرآن الكريم و تميـــزه عن غيـــره من النصـــوص البشريـــة.

لذلك، فإن التعـــامل مع الخطاب القرآنـــي يفرض علينـــا توظيـــف كل الوسائل اللسانية و غيرها لاستنبـــاط المعاني المبثـــوثة في الآيـــات القرآنية. و لقد حاولنا في هذا البحث أن نحاور أبا حيـــان و نناقشـــه نقاشـــاً علميّـــا و منهجيا معتمـــدين على الآليـــات العلميـــة التي تقدمهـــا لنا اللسانيـــات، بدءا بالصوت

إلى المفـــردة ثم الجملـــة، و حتى يكتمـــل هذا الحـــوار العلمي، استوقفنـــا أبا حيـــان عند أهـــم جزء في تفسيـــره، و هو الكيفيـــة التي تعـــامل بهـــا مع الخطـــاب القرآني الذي يحمـــل دلالات عدة. و وجـــوه للتـــأويل متشعبـــة، بحيث غدا نصًـــا متشظي الدلالات، متســـع المعنى، مفتـــوحاً لطرق الاستنبـــاط و التأويل الموضوعين المرتبطين بطبيعة النص القرآني من حيث بنيته و أنظمته و رؤاه و مستـــودعه المعرفـــي و الإنســـاني[1]. فالخـــائض في غمـــار الخطاب القرآنـــي، عليه أن يكون متسلحـــاً بمختلف العـــلوم يقظـــاً ذكيـــا مالكـــاً لناصيـــة اللغة العـــربية و هي فعـــلا، الصفـــات التي تميـــز بها علمـــاؤنا الذين انطلقـــوا من اتجـــاهات شتـــى في بيـــان دلالـــة النص القرآني بأبعـــاده المختلفـــة، النصيـــة و الإرشـــادية و البلاغيـــة و الإعجـــازية، و اللغويـــة النظامية، و الفقهية الشرعية، و المجمل و المفصل، و المحكم و المتشابه، و الناســـخ و المنســـوخ، و القصص و العبر و العظـــات، و نحو ذلك.

و عليـــه فإن التفسيـــر و التأويل آليتـــان لابد منهمـــا لتفكيك و تدارس البنيـــة الدلاليـــة للخطاب القرآنـــي و التي تصب فيهـــا مجمـــوعة من الآيـــات بتظافـــر مستمـــر عبر متواليـــات قد تطـــول أو تقصر حسب ما يتطلبـــه الخطاب من إيجـــاز أو إطنـــاب أو شرح و تمطيط[1]. فالخطـــاب القرآني إذن، مبنـــي بطريقـــة محبـــوكة تدل على انسجـــامه و اتســـاق الأجـــزاء المؤلفـــة له. و تفسيـــر آيـــاته يبقـــى محفـــوفا بالمخـــاطر، و اللجـــوء إلى التـــأويل أمر

[1] إشكاليـــة فهم النص القرآني محمد شحرور نموذجا مقال للدكتـــور محمد سالـــم سعـــد الله، عضو رابطـــة الأدب الإسلامي العالمية، مجلـــة رابطة أدباء الشام، تعنـــى بقضايا الأدب و الإنســـان، تصدر في لندن و بريطانيـــا.

[1] لســـانيات النص مدخل إلى إنسجـــام، الخطـــاب لمحمـــد الخطـــابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991 ص 180.

ضروري تدفعنـــا إليه صعـــوبـــة الوصول إلى معـــاني الكثيـــر من النصوص القرآنيـــة، إن لم نقل جميعهـــا.

و المتصفـــح لتفسيـــر البحر المحيط يجـــد نفســـه أمام ضروب من التـــأويل قلمـــا نجد مثيـــلا لها في كتب التفاسيـــر، للأسبـــاب التي ذكرنـــاها سلفـــاً أهمها كون أبي حيـــان قد اختـــار الحيـــاد في مذهبـــه خدمـــة لكتـــاب الله. و إن كان يجاهـــر بظاهريـــته التي تـــأبى التـــأويل، غير أن عدم اعتمـــاد التـــأويل في الوصول إلى البنيـــة الدلاليـــة للخطـــاب يعد تـــأويلاً على حد قول الهـــادي الجطـــلاوي. لذلك كان لابد أن نعـــرف موقف أبي حيـــان من التـــأويل قبل الخـــوض في منهجـــه في التعـــامل مع النص القرآنـــي.

مـــوقف أبي حيـــان من التـــأويل:

تعرضنـــا إلى مفهـــوم التأويل في مدخـــل هذا البحـــث عندمـــا حاولنـــا معرفـــة العلاقـــة التي تربط علم التفسيـــر بالتـــأويل، غير أنّه صادفتنـــا مجموعـــة من المفاهيم الغربيـــة و العربيـــة، القديمـــة و الحديثـــة متداخلـــة و متشابكة و مختلفـــة في تحديدهـــا لعلـــم أو الفـــن التأويل و تحديد الفـــرق بينـــه و بين علم التفسيـــر.

مـــفهوم التـــأويل عنـــد الغـــربييـــن:

ليس هنـــاك فرق كبيـــر بين مفهـــوم التـــأويل عند العرب و مفهـــوم التـــأويل أو الهرمينوطيقـــا عند الغـــرب.

فالهرمينوطيقـــا كلمـــة يونانية Heurmeneuein بمعنى "يفسر" و الاسم منـــه Hermeneia بمعنـــى "تفسيـــر"، و اللفظـــة عند اليونانييـــن مرتبطة بالإلـــه هرمـــس Hermes رسول آلهـــة الأولمب الرشيـــق الخطو، الذي كان ينقـــل الرسائل من زيـــوس كبير الآلهة و يترل بها إلى مستـــوى البشر[1]. فهي، إذن، فن فهـــم و تأويل النصـــوص، و اتســـع مفهوم اللفظة في القـــرن الثامـــن عشر ليشمـــل مناهج فهم النصوص الدينيـــة و الدنيـــوية بمعنـــى التفسيـــر الذي يضطلع بكشـــف شيء ما خبـــئ و مستـــور و سرّي، شيء مضمـــر باطـــن في قلب النص يَنُّـــدُ عن الفهـــم العـــادي و القراءة المعهـــودة[2].

و عرف التـــأويل بمعنى القول أو التـــلاوة، و كذلك جاء بمعنـــى الشرح أو التفسيـــر، و بمعنـــى الترجمـــة أيضاً؛ ذلك أن المترجـــم هو وسيط بين عـــالميـــن مختلفيـــن لا عالميـــن متناظريـــن أو مترادفيـــن[3]، و أخذ مفهـــوم المصطلـــح أبعـــاداً أخرى عند المحدثيـــن، فبعد ما كـــان مرتبطـــاً بالكتـــاب المقـــدس أصبحت الهرمينوطيقـــا مرتبطـــة بالمنهـــج اللغوي الفيلولوجـــي في تفسيـــر النص المقـــدس.

و يؤكـــد شلاير مـــاخر Schleirmacher (1768-1834) على أن الهرمنيوطيقـــا علم أو فـــن الفهم[1].

[1] "فهم الفهم" مدخل إلى الهرمنيوطيقـــا نظرية التـــأويل من أفلاطون إلى جادامر د. عادل مصطفـــى، ص17.
[2] المرجـــع نفســـه، ص 18.
[3] المرجـــع نفســـه، ص 38.
[1] المرجـــع نفســـه، ص 49.

و يرى فيلهـــم دلتـــاي W. Dilthey (1833-1911) أنهـــا الأساس المنهجـــي للعـــلوم الإنسانيـــة[1]. و هذا المفهـــوم هو الذي جعل العلمـــاء ينظـــرون إلى الهرمينوطيقـــا من المنظـــور اللغـــوي؛ حيث إنهـــا الطريقـــة التي تطلعنـــا على الوجـــود بواسطـــة اللغة على حد قـــول البروفيســـور هانز جـــورج جادامير Hans-George Gadamer تلميـــذ الفيلســـوف مارتن هيدجـــر Martin Heidgger (1889-1976) و يقـــول بـــول ريكور Paul Ricoer: "إننـــا نعنـــي بالهرمينوطيقـــا نظرية القـــواعد التي تحكم التـــأويل، أي تـــأويل نص معيـــن أو مجموعـــة من العـــلامات التي يجوز اعتبـــارها نصًّـــا"[2].

من هذا المنطـــلق أصبحت الهرمينـــوطيقـــا، بعد ذلك، مطابقـــة لفعل التـــأويل باعتبـــار العمليـــة التـــأويليـــة في جوهـــرها تتمثـــل لا في الإيضـــاح العلمي لما هو مصّرح به في النص، بل في التفكيـــر الإبداعـــي الذي يسلط الضوء على المعنـــى المضمر لا الصريـــح الباطن لا الظاهـــر[3]". مما يتفـــق و المراحل التي حددهـــا هيدجـــر في تأويل نص شعري ما يقـــول: "يقـــع تأويلنـــا في ثلاث مراحـــل، و في كل مرحلـــة منها سوف ننظـــر إلى القصيدة كلّهـــا من زاوية مختلفـــة.

① في المرحلـــة الأولى سوف تقـــدم المعنـــى الباطن للقصيدة، ذلك المعنـــى الذي يمسك صريح الألفاظ و يحفظـــه و يعلو فوقـــه.

[1] فهم الفهم" مدخل إلى الهرمنيوطيقـــا، د. عادل مصطفـــى، ص49.

[2] المرجـــع نفســـه، ص 53.

[3] المرجـــع نفســـه، ص 187، نقـــلا عن Salmer, hermeneutics, pp 157-158.

② و في المرحلـــة الثانية سوف نتفقّـــد التتابـــع الكامل للفقـــرات الشعرية Strophes و ردودهـــا Antistrophes و نحدد المنطقـــة التي تكشفهـــا القصيـــدة و تبينهـــا و تضيئهـــا.

③ و في المرحلـــة الثالثة نحاول أن نتخـــذ موقفنـــا في مركز القصيـــدة، بحيث يمكننا الاطـــلاع على حكمهـــا فيما يُكونـــه الإنسان، وفقـــا لهذا الخطـــاب الشعري"[1]. بحيث يتمكـــن المتلقـــي من خلال هذا المنهـــج التـــأويلي أن يفهـــم ليس الخطاب فحسب، و إنمـــا يمكنـــه أن يفهـــم غاية المؤلـــف من الخطاب أو على الأقل يقترب من المعـــاني التي يريدهـــا المخـــاطب؛ أي يقتـــرب من حقيقـــة الموضوع الذي يثيـــره النص؛ فالمتلقـــي يضع نفســـه أمـــام النص في حـــالة تلقـــي خبـــرة لا معرفـــة[2]. و شغـــوفة بمعرفـــة حقيقـــة الموضوع تجعلـــه متهيئـــا مسبقـــا لكشف عالم جديد خبـــيء في النص المقـــدس و الأدبي أيضـــاً.

و عليـــه فقد اتســـع مفهـــوم الهرمينوطيقا لتشمـــل التفسير و التـــأويل معاً و نتعـــدى حدود النص المقدس إلى النص الأدبي و تهتم بالمتلقـــي و طريقـــة فهمه للنص، أو ما أسمـــاه المحدثـــون إشكالية الفهـــم المسبـــق.

[1] فهم الفهم" مدخل إلى الهرمنيوطيقـــا، د. عادل مصطفـــى، ص 185.

[2] "المرجـــع نفسه، ص 187، نقـــلا عن Salmer, hermeneutics, pp 157-158.

مـــفهوم التـــأويل عنـــد العـــرب:

لقد سبـــق و أن أشرنـــا إلى مفهـــوم التـــأويل لغة في المعـــاجم العربيـــة و إلى مفهومـــه الاصطلاحـــي عند العلمـــاء العرب، و الثابـــت في الذهن أن التـــأويل كما كان مرتبطا بالنص المقـــدس عند الغرب، فهو مرتبـــط بالنص القرآنـــي عند العرب. و قد ميّز بعض العلمـــاء بين التـــأويل و التفسير و طابق البعض الآخـــر بينهمـــا، لكن الصحيح أن التفسيـــر – كما أجمـــع عليه الباحثـــون– مرتبط بالواضـــح البيّن من النص أو الخطـــاب، أمّا التـــأويل فهو المصطلـــح الذي يعبّـــر به عن عمليـــات ذهنيـــة على درجة عـــالية من العمق في مواجهـــة النصـــوص و الظواهر، و في كتاب سيبويه دليل على ذلك، فهو يكثـــر من استخـــدام كلمة "تـــأويل" إزاء العبارات التي يحتاج تحليلها إلى بعض العمق، و في مقابل ذلك يستخـــدم كلمة تفسيـــر للدلالـــة على الوضوح[1].

بالتـــالي فإن التـــأويل مرتبط بخصائص التركيب اللغوي للنص بما فيها من إبهـــام و تعميم و مجـــاز، يقول الغـــزالي في تعريفـــه للتأويل: "هو عبـــارة عن احتمـــال يعضـــده دليل يصيـــر به أغلب على الظن من المعنـــى الذي يدّل عليه الظاهـــر... و يشبـــه أن يكون كل تـــأويل صرفـــاً للفـــظ عن الحقيقـــة إلى المجـــاز، و كذلك تخصيص العموم يرّد اللفظ عن الحقيقـــة إلى المجـــاز"[1]. فالقـــارئ إذن، ليس مجـــرد متـــلق سلبي، أو مستهلـــك خاضع لسلطـــة النص، و إنّما هو خالق النـــص، و بهذا تصبح القـــراءة عمليـــة إنتاجيـــة، لا عمليـــة

[1] الهرمينوطيقـــا و التـــأويل، التـــأويل في كتاب سيبويـــه لنصر حـــامد أبو زيـــد، ص 89، دار قرطبـــة للطباعة و النشر، الطبعة الثانيـــة، دار البيضـــاء، 1993.

[1] قضايا اللغة في كتب التفسيـــر للهادي الحطـــلاوي، ص 223، نقـــلا عن المستصفـــى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلميـــة، بيروت، ط2، 1983، ص 386.

تلق دون فعـــل[1]، و يصبح لدى القـــارئ الواحد للنص الواحد آراء و أحكـــام تتعـــدد بتعـــدد المناسبات المتـــاحة لإعـــادة قراءة النص نفســـه، و التـــأويل، من هذا المنطـــلق، عمليـــة ذاتيـــة تتـــأثر بالتفـــاوت البديهـــي بين البشر في مؤهـــلاتهم و طاقـــاتهم و دائـــرة معارفهم . فلا تتوقف عند توضيـــح معنى أو شرح لفـــظ أو تحـــليل أو تفسيـــر، و إنّما التـــأويل هو فعالية أدبية و فكريـــة ينهض بها المتلقـــي بعد القراءة الدقيقـــة للنص، و لا يستطيعهـــا إلاّ من امتـــلك ذهناً عميقـــاً، و عقـــلاً راجحـــاً[2]. يقـــول ابن قتيبـــة في مقدمـــة كتابـــه (تـــأويل مشكل القـــرآن): "فألفـــت هذا الكتاب جامعاً لتـــأويل مشكل القرآن، مستنبطـــاً ذلك من التفسيـــر بزيادة في الشرح و الإيضـــاح، و حاملاً ما لم أعلم فيـــه مقالاً لإمـــام مطلع على لغات العرب، لأري به المعاند موضع المجاز و طريق الإمكان، من غير أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل"[1]. فالمؤول إذن يجتـــاز الدلالة الظاهرة للكشف عمّا يسكت عنه القول و يشكل باطنه.

و قد كان تقليـــداً عند العلمـــاء التعريف بمصطلح التفسيـــر و التـــأويل و مناقشة الفرق بينهمـــا، غير أن أبا حيـــان في مقـــدمة تفسيـــره تحدث بإسهـــاب عن علم التفسيـــر و شروط المفســـر لكنـــه في المقـــابل أعرض عن ذكر التـــأويل و لم يشر إلى مفهومه، باعتبـــار أنّه ظاهـــري المذهب يجـــاهر بظاهريتـــه التي ترفض التـــأويل. "و بمقتضـــى اعتنـــاقه لهذا المذهب فإنـــه في المسائـــل الأصولية المتعلقـــة بتـــأويل اللفظ بين التعميـــم و التخصيـــص يتخذ مبـــدأ ثابتـــا لا يتراجـــع فيه، أساســـه نصّي لغـــوي يميـــل فيه إلى تعميـــم

[1] التلقـــي و التـــأويل لمحمد غرام، دار الينابيـــع للطباعة و النشـــر، دمشـــق، ط1، 2007، ص 38.
[2] المرجـــع نفســـه، ص 201.
[1] تـــأويل مشكل القرآن، لابن قتيبـــة، ص 77.

الدلالـــة حيث التعميم في اللفظ، و لا يركـــن، مثلمـــا يفعل العديد من المفسريـــن أمثال الطبـــري، إلى إسقـــاط المذهب بأن يخصص اللفظ المعجم فيما يتمـــاشى و مبـــادئ المذهب و أغراضـــه، و كأن أبا حيان النحوي يتعـــالى على أن ينتســـب إلى مذهب سوى المذهب النصّي اللغـــوي"[1].

حيث ينطلـــق أبو حيـــان في تفسيـــره لكتاب الله من مادة النص اللغـــوية أو البنيـــة التركيبيـــة للنص، و يفضـــل تفسيـــر القرآن على الحقيقـــة و لا يجنـــح إلى التـــأويل إلاّ إذا دعت الضرورة إلى ذلك، أي أنّـــه لا يقـــول في النص إلاّ بما قامت اللغـــة دليلا عليـــه؛ فإن أبـــى النص الإفصـــاح عن المعـــاني المستفـــادة من عناصـــره اللغـــوية المؤلفة له، يستعيـــن أبو حيـــان بالتـــأويل و يتغـــلغل في باطـــن النص ليكتشـــف المعنى الخفـــي المستتـــر وراء لغـــته، إذ تكمن وظيفـــة المفســـر أو المحـــلل في قسمـــين: تفسير على الظاهـــر و تـــأويل على الباطن، و قد جمع أبو حيـــان بين المنهجيـــن في تعامله مع الخطاب القرآني. مما يـــؤكد على أن المذهب الظاهـــري على الرغم من التـــزام أبي حيـــان به ليس متواجـــداً في البحر المحيط، كمذهـــب فقهـــي تأويلي بقـــدر ما هو منهـــج في قراءة النص و التعـــامل معه. و هـــدف أبي حيـــان في تفسيـــر اللفظ و تحـــديد الإعـــراب هو تدعيـــم الاجتهـــاد بالحجة المـــادية من النص نفســـه أو من قواعـــد اللغة العربيـــة[1]. فلم يكن أبو حيـــان متعصبـــاً لمذهبـــه، و تطبيقه للمنهـــج التأويلي في أكثر من موضع في كتـــاب الله و دليل على ذلك، كما سيتضح لنـــا من خـــلال هذه الأمثلـــة:

[1] قضايا اللغـــة في كتب التفسيـــر للهـــادي الحطـــلاوي، ص 188.

[1] المرجـــع نفســـه، ص 73.

1- غيـــاب العائد في الضميـــر:

يقـــول أبو حيـــان في تفسير قولـــه تعـــالى الآيـــة 61 من ســـورة النحـــل ﴿و لو يؤاخـــذُ اللهُ النّـــاسَ بِظُلمهم ما تـــرك عليهـــا من دابّـــةٍ و لكن يُؤَخِرُهـــم إلى أجَـــلٍ مُسَمًّـــى فإذا جـــاء أجَلُهـــم لا يستـــأخِـــرُون ساعة و لا يستقـــدمون﴾ "و الضمير في (عليهـــا) عائد على غير مذكـــور، و دل على أنّـــه الأرض قوله (من دابـــة) لأنّ الدّبيب من النـــاس لا يكون إلاّ في الأرض. فهو كقولـــه ﴿فأثـــرن به نقعـــاً﴾ العـــاديات/4، أي بالمكـــان لأنّ (و العاديـــات) معلوم أنّها لا تعـــدو إلاّ في مكان، و كذلك الإثـــارة و النقـــع، و الظاهر عموم (من دابة) فيهلـــك الصالح بالطـــالح..."[1].

و المفهـــوم من تفسيـــر أبي حيان أن غيـــاب العائـــد في قوله (عليهـــا) تدفـــع المفسر إلى إعمال العقـــل و التدبر في سيـــاق الآيـــة، و استخـــدام التـــأويل، حتى لا تفقـــد الآيـــة اتساقهـــا و انسجامهـــا، و لرفـــع هذا اللبس جعـــل العائد مضمنـــا في قولـــه تعـــالى ﴿من دابّـــةٍ﴾ و الدبيب، على حد قـــوله، لا يكون إلاّ في الأرض، و الهـــاء بذلك تعـــود على الأرض. و هكذا اكتفـــى أبو حيـــان بلفظة (من دابـــة) ليحـــدد العـــائد الذي هو الأرض.

و في موضع آخـــر يقدر أبو حيـــان العائد في الضمير على ما يقتضيـــه الظاهر من سيـــاق الآية و ذلك في قوله تعـــالى في سورة البقرة الآية 213 ﴿كانَ النّاسُ أُمّةً واحِـــدَةً فبَعَـــثَ اللهُ النبيـــنَ مُبَشّريـــن و مُنْـــذرينَ و أنْزَلَ مَعَهُـــم الكِتَـــابَ بالحَقِّ لِيَحْكُـــم بَيْن النّـــاس فيما اخْتَلَـــفُوا

[1] البحر المحيـــط، ج5، ص 490.

﴿فيـه و ما اختـلف فيـه إلاّ الذين أوتُـوهُ من بَعْدِ ما جَاءتْهم البَيِّنَـاتُ بَغْياً بينَهُـم فَهَـدَى الله الذين ءامَنُـوا لما اختَلَفُـوا فيه من الحَـقِ بإذنـه، و اللهُ يهـدي من يَشَـاءُ إلى صِرَاطٍ مُستقيـم﴾ يذهب الجمهـور على أنّه يعود على الكتـاب مجازاً، و رأي الزمخشـري أنه يعـود على النبي صلى الله عليه و سلم، أما رأي أبي حيـان –و هو الظاهر من الخطاب – أنّه يعود على الله تعالى في قوله ﴿فبعـث الله﴾ مبتعداً عن التكلف[1].

و المتأمل في البناء الكلي لسياق الآيـة يرى بوضوح أنّ الضمير عائـد على الله جلّ و علا، أما تـأويل قول الجمهـور بأنه عائد على الكتـاب فتقـديره أي ليحكم الكتـاب بين الناس و نسبـة الحكم إليه مجـاز كما أسند النطق إليه في قوله ﴿هذا كتابنـا ينطق عليكم بالحق﴾ الجاثيـة/29، و لأنّ الكتاب هو أصل الحكم فأسنـد إليه رداً للأصل، و تـأويل ما ذهب إليه الزمخشـري من أن الفاعـل هو النبي صلى الله عليه و سلم تقـديره: ليحكم الله أو الكتـاب أو النبي المنزل عليه[1].

و يرد أبو حيان على التـأويل رافضاً رأي الزمخشري مثبتا بالدليل و الحجة تأويله بقولـه: "و إفـراد الضمير يضعـف ذلك على أنه يحتمل ما قاله فيعـود على إفـراد الجمع أي: ليحكم كل نبي بكتابـه و لا حاجة إلى هذا التكلف مع ظهور عـود الضمير على الله تعـالى، و يبيـن عـوده على الله تعـالى قراءة الجحـدري فيما ذكر مكي (لنحكم) بالنون و هو متعيّـن عوده على الله تعالى،

[1] البحر المحيـط، ج2، ص 145.

[1] المصـدر نفسه.

و يكون ذلك إلتفاتـــاً إذ خرج ضمير الغائب في أنـــزل إلى ضمير المتكلم..."[1] فالمعنـــى إذن: ليحكم بين الناس في الدين الذي اختلفـــوا فيه بعد الاتفاق، و قيل يحتمـــل أن يكون الذي اختلفـــوا فيه محمد صلى الله عليه و سلم أو دينـــه أو هما أو كتابه؛ فهذا يدل على أن الاتفـــاق كان حصل قبل البعث و الإنزال و بدلالـــة العقول إذ النظـــر المستقيم يؤدي إلى الحق، و يكون آدم بعث إلى أولاده و كانوا مسلميـــن، و بالولادة على الفطرة و بأن أهـــل السفينة كانوا على حق، و يظهر أن هذا القول الأرجح في اعتقـــاد أبي حيـــان[1]، و بغض النظر عن المغزى الحقيقي من الاتفـــاق المذكـــور في الآية، فإن النسيج الأسلوبي الذي بنيت عليـــه هذه الآية يقتضـــي بالضرورة، عـــود الضمير على الله تعـــالى.

تـــأويل اللفـــظ بغير الظـــاهر:

و هو آليـــة أسلوبية تستدعـــي توظيف لفظـــة أو عبـــارة في سيـــاق لا يستقيـــم معنـــاه إلاّ بتأويل اللفظ على غير معنـــاه الظاهري، مثال ذلك قوله تعـــالى ﴿**يأيها الناس اعبُـدُوا ربَّكُم الذي خلقكم و الذيـن من قبلكم لعلَّكُم تتقـون**(21) **الذي جَعَل لكم الأرض فِراشـاً و السمّاء بنـاءً و أنْـزَلَ من السّماءَ ماءً فأخـرج به من الثمرات رزقـاً لكُم فلاَ تجْعَلُوا لله أنْـداداً و أنتم تعلمـون**(22)﴾ البقـــرة/21-22، يقول أبو حيـــان في تأويل الآية (22) من سورة البقرة: "و قدم ذكر الأرض على السمـــاء و إن كان أعظم في القدرة و أمكن في الحكمة و أتم في النعمة و أكبر في المقـــدار، لأنّ السقف و البنيـــان فيما يعهد لابد له من أساس و عمد مستقـــر على

[1] البحر المحيـــط، ج2، ص 145.

[1] المصدر نفســـه، ص 144-145.

الأرض، فبدأ بذكرهـــا إذ على متنهـــا يوضع الأساس و تستقر القواعـــد، إذ لا ينبغـــي ذكرا السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقـــر عليها قواعـــده، أو لأنّ الأرض خلقها متقـــدم على خلق السمـــاء، فإنه تعالى خلق الأرض و مهّد رواسيها قبل خلق السماء قال تعـــالى ﴿قل أئنكـــم لتكفـــرون﴾ فصلت/09، إلى آخـــر الآيات، أو لأن ذلك من باب الترقي بذكر الأدنى إلى ذكر الأعـــلى"[1]، و أردف قائلاً بأنـــه سبحانـــه جعل الأرض فراشاً مثل الأم التي يفترشها الزوج، و شبه السمـــاء بالأب، فالله إذن هو الخالق لهذا الولد و مخرجـــة من بطن أمه[1]، و هذا الذي ذهب إليه من أقوال الإشاريـــن الذين لا يأخذون بظاهر النص و إن كان ما ذهبـــوا إليه في تأويل الآيـــة يقتضيـــه السياق مما جعل أبا حيـــان يستأنس لهذا التفسيـــر و يذكره دون تعـــليل أو تعليق.

و قد يذكـــر اللفظ في غير موضعـــه كقوله تعـــالى في سورة الدخـــان الآية 49 ﴿ذُق إنَّك أنـــت العَـــزيز الحكيـــم﴾ و هذا على سبيل التهكـــم و الهـــزء، لمن كان يتعـــزز و يتكـــرم على قومـــه و قد نزلت في أبي جهل، الذي تعالى و استكبـــر و خاطب النبـــي بقولـــه: و أن ما بين لابيتهـــا أعز مني، و لا أكرم فنزلت تهكما و إزدراءاً به[2]. يقول أبو حيـــان ﴿ذُق إنَّك أنت العَـــزيز الحكيم﴾ أي: على قولك، و هكذا كما قال جرير:

أَلَـــمْ تَكُنْ في رسوم قد رسَمْتَ بها مَنْ كان مَوْعِظَة يا زهرة اليمـــن*

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص 241.

[1] المصدر نفســـه.

[2] ينظر البحر، ج8، ص40، و ينظر العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني د. عبد الخالق رشيد، ص 158.

* من البسيط، أنظر ديوانـــه (675)

يقولهـــا لشاعر سمى نفســـه به في قوله:

أَبْلِغْ كُـــلَيْبًا و أَبْلِـــغْ عنك شاعِرهَا أَنِّي الأَعَـــزُّ و أَنِّي زَهْرَةَ اليَمَـــن.

فجـــاء به جرير على جهـــة الهـــزء"[1].

2- الإلتفـــات:

من أهم الظواهـــر المرتبطـــة بالخطاب القرآنـــي و هي أكثـــر فنون البـــلاغة انتشـــاراً في القرآن الكريـــم. يقول ابن حمـــزة العلـــوي: "و اعلـــم أن الالتفـــات من أجلّ علوم البلاغـــة و هو أمير جنـــودها و الواسطـــة في قلائـــدها و عقودها"[1]، و هو من الأساليب الدالـــة على إعجـــاز القرآن الكريـــم، و للإلتفـــات أوجه كثيـــرة منها الانتقـــال من التكلم إلى الغيبـــة أو من الخطاب إلى الغيبـــة أو العكس. من ذلك تفسيـــر أبـــي حيـــان للآية 21 من سورة يونـــس يقول تعـــالى ﴿**و إذا أذقْنَـــا النَّـــاس رحْمَةً من بعـــدِ ضرّاءٍ مَسَّـــتْهُـــم إذا لهم مَكْـــرٌ في ءاياتِـــنَا قُلِ اللهُ أَسْـــرَعُ مَكْراً إنَّ رُسُلَنَـــا يَكْتُبُـــونَ ما تَمْكُـــرُون**﴾ يقـــول أبو حيـــان: "... و قرأ الحســـن و قتـــادة و مجاهـــد و الأعرج و رويت عن نـــافع (يمكـــرون) على الغيبـــة جريا على ما سبق و قرأ أبو رجاء و شيبة و أبو جعفر و ابن أبي اسحاق و عيسى و طلحـــة و الأعمش و الجحـــدري و أيوب بن المتوكل و ابن محيـــصن و شبل و أهـــل مكة و السبعـــة بالتاء على الخطاب، مبالغـــة لهم في الإعـــلام بحال

[1] البحر المحيط، ج8، ص46.

[1] تلوين الخطاب في القرآن الكريم د. طه رضوان ص67، نقلا عن الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز ليحي بن حمزة العلوي (669 هـــ-749هـــ) راجعه و ضبطه و دققه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـــ، 1995م، ص265.

مكرهم و التفـــاتا لقوله (قل الله) أي: قل لهم، فناسب الخطـــاب، و في قوله (إن رسلنـــا) إلتفـــات أيضاً، إذ لم يـــأت إن رسله، و قال أيوب بن المتوكـــل في مصحف أبي (أيّها النـــاس إنّ الله أسرع مكراً و إنّ رسلـــه لديكم يكتبـــون ما تمكـــرون) و ينبغـــي أن يحمـــل هذا على التفسيـــر لأنه مخالف لما أجمـــع عليه المسلمـــون من سواد المصحف، و المحفـــوظ عن أبي القـــراءة و الإقراء بسواد المصحـــف"[1].

فلو أخـــذنا بالقراءة الأولـــى (يمكـــرون) يكون الضمير عائـــد على الناس، ممّا ينفـــي وجود الإلتفـــات، غير أن الجـــاهل بتفـــانين اللغة العربيـــة قد يقـــع في اللبس بين كون الضمير في (يمكـــرون) عائد على النـــاس؛ بحيث يرتبـــط السابـــق باللاحـــق، مما يحقق انسجـــام الخطاب أو بقـــوله (رسلنـــا)، و هذا خطـــأ فادح قد يقـــع فيه من كان جـــاهلاً بأسلـــوب القرآن الكريـــم و إن كان من الناحيـــة التركيبيـــة صحيح. أمـــا القراءة الثانيـــة و التي اختـــارها أبو حيـــان (يمكـــرون) فيها من أوجـــه الإعجاز ما يدل على تناســـق الخطاب القرآني المانـــع من شك أو ريب. إذ الانتقـــال من الغيبـــة إلى الخطـــاب يحقق الصلة الموجـــودة في فعل الأمر (قل) الموجـــه للرسول صلى الله عليه و سلم و النـــاس هم بمثابـــة المتلقـــي لهذا الخطاب فكان الأرجح مخاطبتهـــم بصفـــة المخاطب لا الغائب، ثم أن الالتفـــات الموجود في (إن رسلنـــا) حيث أسند ضميـــر المتكلم إلى (رسل) بدل ضمير الغـــائب نوع آخر من الانسجـــام المتماشي و البنيـــة العامة للخطـــاب، يقول أبو حيـــان عن هذا الإلتفـــات: أن جملة (إن رسلنـــا) من كلام الرســـول عليه الصـــلاة و الســـلام

[1] البحر المحيـــط، ج5، ص 140.

و الضمير في (رسلنـــا) راجع على الله عزو جل[1]. مثل ذلك قولـــه تعالى في الآية 220 من سورة البقـــرة ﴿**و يسـألونك عن اليتـامى قل إصـلاح لهم خيـرٌ و إن تخـالطوهم فإخوانكـم و** الله **يعلمُ المفسِدَ من المصلح و لو شاءَ الله لأعْنَتَـكُم إنّ الله عزيز حكيـم**﴾ يقول أبو حيـان عن الإلتفـات في هذه الآيـة "و هو إلتفـات عن الغيبـة في قولـه ﴿**و يسألـونك**﴾ إلى الخطـاب في قولـه ﴿**و إن تخـالطوهم**﴾ و حكمـة هذا الإلتفـات ما في الإقبـال بالخطاب على المخاطب ليتهيـأ لسماع ما يلقى إليه، و قبوله و التحرز فيـه"[1]، و يظهـر في هذا الإقبـال كمال العنـاية بالمخـاطبين، حيث تكررت الإحـالة إليهم ثلاث مرات في قولـه ﴿**و إن تخـالطوهم**﴾ و ﴿**و لو شاءَ الله لأعْنَتَـكُم**﴾ و لو جـرى الخطاب على نسق واحد لم تتحقق هذه الفائدة و ذلك إذا كان نظـم الآيـة (و إن يخـالطوهم فاخوانهـم و الله يعلـم المفسد من المصلح و لو شاء الله لأعنتهم) و ذلك باتحـاد صيغـة الإحالة في النص كله[2].

و قولـه تعـالى في سورة آل عمران الآيـة 55 ﴿**إذ قـالَ** اللهُ **يا عيسـى إنّي مُتَوَفّيـك و رَافِعُـكَ إلـيَّ و مُطَهّـرُك من الذين كَفَـرُوا و جاعلُ الذين اتّبَعُـوكَ فوقَ الذين كَفَـرُوا إلى يوم القِيَـامَةِ ثمَّ إلَيَّ مَـرْجِعُـكُم فَأحْكُـم بَيْنكُـم فيمَـا كنتُـم فيه تختلفـون**﴾ يقول أبو حيـان "و هذا عندي من الإلتفـات: لأنه سبق ذكـر مكذبيـه و هم اليهـود، و ذكر من آمن به من الحـواريين، و أعقـب ذلك

[1] البحر المحيـط، ج5، ص 140.

[1] المرجـع نفسه، ج1، ص 171.

[2] تلوين الخطـاب في القرآن الكريـم، د. طه رضـوان طه رضـوان، ص78.

قولـــه ﴿و جاعلُ الذين اتّبَعُـــوكَ فوقَ الذين كَفَـــرُوا﴾، فذكر متبعـــيه و الكافريـــن، فلو جـــاء على نمط هذا السيـــاق لكان التركيـــب ﴿ثمّ إليّ مَـــرْجِعُـــكُم﴾ و لكنـــه التفت إلى سبيـــل الخطاب للجميـــع ليكون الإخبـــار أبلـــغ في التهديد و أشـــد زجـــراً لمن يزدجـــر"[1].

3- تغيـــر الدلالـــة الزمنيـــة للأفعـــال:

كثيـــراً ما يواجهنـــا في الخطاب القرآنـــي التغييـــر الزمني أو العـــدول عن زمن إلى آخـــر. كأن يقصـــد من السيـــاق المضارع و يعبـــر عنه بصيغـــة الماضـــي و هكذا، و في هذا النوع من العـــدول ما يجعـــل الأسلوب القرآنـــي ينفرد بخصـــائص قلما نجـــدها في الأسلوب اللغـــوي العربي. من ذلك قولـــه تعـــالى في سورة الحج الآيـــة 63 ﴿ألـــم تر أن الله أنـــزل من السّمـــاء ماءً فتصبـــح الأرض مخضرّةً﴾ يقول أبو حيـــان "... و هنا لا يتقـــدر أن ترى إنـــزال المطر تصبح الأرض مخضرة، لأن اخضرارهـــا ليس مترتبـــاً على علمك أو رؤيتـــك، إنما هو مترتـــب على الإنـــزال، و إنّما عبر بالمضارع، لأن فيـــه تصويراً للهيئـــة التي الأرض عليها و الحالة التي لابست الأرض، و الماضي يفيـــد انقطـــاع الشيء، ... و الظاهر تعقـــب اخضـــرار الأرض إنـــزال المطر..."[1]. فالفعـــل المضارع (نضج) تحمل دلالـــة الماضي على الرغـــم من أنّهـــا تفيد الاستمرار و التجـــدد[2].

---

[1] البحر المحيـــط، ج2، ص 498.

[1] المرجـــع نفســـه، ج6، ص 356.

[2] الزمن في القرآن الكريم، رسالة دكتـــوراه دولـــة للدكتـــور بكري عبد الكـــريم، ص 109، مخطوط.

و في قولـــه تعـــالى في سورة النحـــل الآيـــة 01 ﴿أَتَـــى أَمْرُ اللهِ فَلَا تستعجلـــوه﴾ يربط أبو حيـــان بين زمن الفعـــل و قولـــه (أمرُ الله)، فلا يتعـــرض إلى الحديث عن زمن الفعـــل أتـــى، و يترك القارئ يستشـــف زمن الفعـــل من السياق الذي ورد فيه، و يذكر أقـــوال المفســـرين المتبـــاينـــة في تحديد أمر الله منها[1].

1- إنَّ المـــراد بالأمـــر ههنا نصـــر رسول الله صلى الله عليـــه و سلـــم و ظهـــوره على الكافرين و ظفـــره بأعدائـــه و انتقـــامه منهم.
2- أن الأمر هنـــا مصدر أمر، و المـــراد به فرائضـــه و أحكامـــه.
3- أن يـــراد بالأمر عقـــاب الله لمن أقـــام على الشرك و تكذيب رسول الله.
4- أن يكون الأمر بعض أشـــراط الســـاعة.
5- أن يكون المعنـــى أتت مبـــادئه و إمـــارته.

و يتعيـــن من هذه التفاسيـــر زمن الفعـــل في سيـــاق الآية: فإذا أخـــذنا بالتفسيـــر الأول يكون زمن الفعـــل يتراوح بين المضي القريب و المستقبـــل القريب، و إذا أخذنـــا بالتفسير الثانـــي يكون زمن أتى ماضيا لفـــظاً و معنـــى، غير أن أبـــا حيان يرفض هذا التفسيـــر "لأنـــه لم ينقـــل عن أحد من الصحابـــة أنّه استعجـــل حكماً من الأحكـــام من قبل أن يفـــرض عنهم"[2]. أما التفسيـــر الثالث فيصـــرف الفعـــل إلى المستقبـــل القريب الدنيوي، و التفسيـــر

[1] البحر المحيـــط، ج5، ص 458-459.
[2] المصـــدر نفســـه، ص 459.

الرابع يحتمـــل فيه أن يكون الفعـــل ماضيا على الحقيقـــة، و يكون المعنـــى، أتـــى أمر الله وعـــداً، فلا تستعجلوه وقـــوعاً، و أخيراً ينصرف الفعـــل (أتـــى) إلى المستقبـــل الأخروي البعيـــد إذا كان المعنـــى أتت مبادئـــه و إماراتـــه[1].

4- تـــرتيب الخطـــاب:

يتحـــقق انسجـــام الخطاب القرآني من تسلســـل الأحداث و ارتباطهـــا بشكل منظـــم، مما يســـاعد المفسر على تـــأويل النص، و قد اهتـــم المفســـرون بترتيب الخطـــاب، لرفع اللبس عن المعنـــى و تـــأويل ما أشكل في النص القرآني من ذلك قولـــه تعالى في الآيـــة 189 من سورة البقـــرة ﴿**يســـألونك عن الأهلّـــة قُل هي مواقيت للنـــاس و الحج**﴾ يقول أبو حيـــان : "(...) نزلت على ســـؤال قوم من المسلميـــن النبي صلى الله عليه و سلم عن الهـــلال، و ما فائـــدة محاقـــه و كمالـــه، و مخالفتـــه للشمس، قال ابن عباس و قتادة و الربيع و غيرهـــم، و روي أن من ســـأل هو معـــاذ بن جبل و ثعلبـــة بن غنم الأنصـــاري قالا: يا رسول الله ما بال الهـــلال يبدو دقيقـــا مثل الخيـــط ثم يزيد حتى يمتلـــئ ثم لا يزال ينتقـــص حتى يعـــود كما بـــدأ لا يكون على حالة واحـــدة؟ فنزلـــت، و مناسبة هذه الآيـــة لما قبلهـــا ظاهرة، و هو أنّ ما قبلهـــا من الآيـــات نزلت في الصيـــام، و أنّ صيـــام رمضان مقـــرون برؤيـــة الهلال، و كذلك الإفطـــار في سؤال، و لذلك قال صلى الله عليه و سلم "صوموا لرؤيتـــه و افطـــروا لرؤيتـــه". و كان أيضاً تقدم كـــلام في شيء من أعمال الحج و هو الطـــواف و الحج أحد الأركان التي بني الإســـلام عليها. و كان قد

[1] الزمن في القرآن الكريم، د. بكري عبد الكـــريم، ص 97.

مضى الكـــلام في توحيد الله تعـــالى و في الصلاة و الزكاة و الصيـــام، فأتى الكلام على الركن الخامس ليكون قد كملت الأركان التي بني الإســـلام عليها"[1].

المستفـــاد من كلام أبي حيـــان، أنـــه نظر أولا إلى سيـــاق النص و قبل أن يدلـــو بدلـــوه في معانيـــه ذكر سبب نزول الآيـــة، فالمعـــرفة السياقيـــة تعتبـــر خطوة هـــامة في كل عمل تأويلي؛ فبقـــدر ما يعـــرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمـــل أن يكون قادراً على التنبـــؤ بما يحتمـــل أن يقال"[2]، ثم انتقـــل إلى الحديث عن ما قبـــل الآية، و قد نزل في الصيـــام، و صيام رمضان مرتبـــط برؤيـــة الهلال، و كذلك الأمر بالنسبـــة للإفطـــار في شوال؛ كما أن الحديث عن الحج تتمـــيم لما ذكر سابقا من حديـــث عن الطواف، إذن فالترتيـــب الموضوعي للخطاب من شـــأنه أن يوضح أكثر المعنى الذي جـــاء عليه سيـــاق الآيـــة، مما يحيلنـــا إلى المناسبـــة و هي علاقة الآيـــة بالسابق و اللاحـــق من الخطاب القرآنـــي و كثيـــرا ما تتكـــرر في البحر عبارة "...و مناسبـــة الآية لما قبلهـــا" أسلوب اعتمد عليه أبو حيان ليحقق الرابطـــة الدلاليـــة بين الآيات القرآنية، و تسلسل الوقائـــع و الأحداث؛ كأن يجد المنـــاسبة بين آخر آية في سورة ما و أول آيـــة في السورة التي تليهـــا كقوله في أول آيـــة من سورة القيـــامة، قوله تعـــالى: ﴿**لا أقســـم بيوم القيـــامة**(01)، **و لا أقسم بالنفـــس اللوّامـــة**(02)﴾ يقول "...و مناسبتهـــا لما قبلهـــا: أن في آخر ما قبلها قولـــه ﴿**كلا بل لا يخـــافون الآخـــرة كلاّ إنـــه**

[1] البحر المحيـــط، ج2، ص 69.

[2] التناسب القرآنـــي و آليـــات اشتغـــالـــه من خـــلال البحـــر المحـــيط، لعبد العزيز فارس، ص 244، نقـــلا عن
G. Brown and G.Yule, discourse Analysis. P40.

تذكرة﴾ المدثر/53-54، و فيها كثير من أحوال القيامة فذكر هنا يوم القيامة و جملاً من أحوالها".

الأمر ذاته يتكرر في كامل القرآن الكريم ممّا يجعل كتاب الله كالكلمة الواحدة، فترتيب الموضوعات في الخطاب القرآني يحقق تلك المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة و بين السور أيضاً، بالإضافة للإجمال و التفصيل و الإبهام و التوضيح، يقول أبو حيان في قوله تعالى الآيتين 58-62 سورة الحج ﴿و الذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتِلُوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رزقاً حسناً و إنَّ الله لهو خير الرازقين(58) لَيُدْخِلَنَّهُم مدخلاً يرضونه و إنّ الله لعليمٌ حليمٌ(59) ذلك و من عاقب بِمِثْل ما عُوقِبَ بِهِ ثمَّ بُغِيَ عليه لَيَنْصُرَنَّهُ الله إنّ الله لَعَفُوٌ غفور(60) ذلك بانّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ في النهارِ و يُولِجُ النهَّار في اللَّيْل و أنّ الله سميعٌ بصيرٌ(61) ذلك بأنّ الله هو الحق و أنّ ما يدْعُون من دُونِهِ هو الباطِلُ و أن الله هو العليُّ الكبيرُ(62)﴾ "(ذلك و من عاقب) الآية قيل نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الأشهر الحرم، فأبى المؤمنون من قتالهم و أبى المشركون إلاّ القتال، فلمّا اقتتلوا حد المؤمنون و نصرهم الله، و مناسبتها لما قبلها واضحة و هو أنه تعالى لما ذكر تواب من هاجر و قتل أو مات في سبيلح

الله أخبر أنـــه لا يدع نصرتهـــم في الدنيا على من بغـــي عليهـــم، و قال ابن جريج، الآية في المشركين بغـــوا على رســـول الله صلى الله عليـــه و سلـــم و أخرجـــوه و التقـــدير الأمر ذلك"[1].

إن عبـــارة "الأمر ذلك" تفيـــد أن الإحـــالة الإشاريـــة تتعـــلق بترابـــط بين خطابين لاحق و سابـــق، مؤدي الخطاب السابق أن الهجـــرة في سبيـــل الله و الشهادة تعنيـــان الوصـــول إلى المبتغـــى و مفـــاد الخطاب اللاحق نصر من الله يطـــول كل من عـــاقب بمثل ما عوقب به ثم بغـــي عليه. فيكـــون بذلك موضوع النصر رابـــط بين خطابيـــن، يلاحظ المفسر أنّ المناسبـــة بينهما واضحـــة[2].

و في ترتيب الخطـــاب المنـــافي ظاهره للمعاني المستوحـــاة من السياق ما جاء في كلام الله في سورة البقـــرة الآيتين 72/71 قوله تعالى ﴿**قال إنـــه يقول إنهّا بقـــرة لا ذلول تثيـــر الأرضَ و لا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَـــةٌ لاشيـــة فيها قالُوا الآن جِئْـــتَ بالحَـــق فَذَبَحُـــوهَـــا و ما كادُوا يفْعَـــلُون(71) و إذ قَتَلتْم نَفْسًا فادَّارأتُـــم فيها و الله مُخْـــرِجُ ما كنتـــم تكتمـــون(72)**﴾.

إن المتـــأمل في الآيتيـــن و الآيات التي سبقتهـــا يخلص إلى أنهم بسبب قتلهـــم للغلام أمرهم الله بذبح البقـــرة و ضرب القتيل ببعضهـــا حتى يكشف

[1] البحر المحيـــط، ج6، ص 354.

[2] التناسب القرآني و آليـــات اشتغـــاله من خـــلال البحر المحيـــط، ص 210.

أمرهـــم و يُعْلَم القاتـــل، و كان أن سألوا عن أوصاف البقرة فأجابهـــم الله و تم بعد ذلك الذبح بدليل قولـــه "فذبحوها"، غير أن الجملـــة المعطوفـــة بعدهـــا تؤكد أنّهـــم قاربوا فعل الذبح و لم يذبحوهـــا، و لنا أن نتساءل عن سبب هذا الترتيب الذي يخـــالف المعنـــى المراد من السيـــاق: يجيبنـــا أبو حيـــان بقوله: "...و أمّا الآية فقد اختلف زمـــان نفي المقاربـــة و الذبح إذ المعنى و ما قاربوا ذبحها قبل ذلك: أي وقع الذبح بعد أن نفى مقاربتـــه، فالمعنـــى أنهم تعسروا في ذبحهـــا، ثم ذبحوهـــا بعد ذلك، قيل و السبب الذي لأجله ما كادوا يذبحـــون هو إمّا غـــلاء ثمنها، و إمّا خوف فضيحـــة القاتل، و إمّا قلة انقيـــاد و تعنـــت على الأنبيـــاء على ما عهد منهم..."[1].

و يـــأتي بعد ذلك ذكر فعل القتـــل، و مقتضى الحال يتطلب ذكر القتـــل ثم مقاربـــة فعل الذبح ثم الذبح و كشف أمر القـــاتل أو ذكر مقاربـــة الذبح ثم بعدهـــا يأتي ذكر القتيـــل و كشف القـــاتل لأنه تارة يقدم ذكر السبب على ذكر الحكم و أخرى على العكس من ذلك[2]، غير أن الآيات في الترتيب سارت على عكس ما يقتضيـــه السياق يقول أبو حيان: "﴿**و إذ قتلتم نفساً**﴾ معطـــوف على قوله تعالى ﴿**و إذ قال موسى لقومـــه**﴾ و يجوز أن يكـــون ترتيب وجودهما و نزولهما على حسب تلاوتهما، فيكون الله تعـــالى قد أمرهم بذبح البقـــرة فذبحوها و هم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السر، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيـــل؛ فأظهر لهم ما كان أخفـــاه عنهم من الحكمة بقوله اضربـــوه

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص 423.
[2] المصدر نفســـه.

ببعضها و لا شيء يضطرنا إلى اعتقـــاد تقدم قتل القتيـــل، ثم سألوا عن تعييـــن قاتله إذ كـــانوا قد اختلفوا في ذلك، فأمرهـــم الله تعـــالى بذبح البقـــرة"[1].

و هكذا يكون الأمر بالذبح متقدمـــاً في النزول و التـــلاوة متأخراً في الوجود، و يكون قتل القتيل متأخـــراً في النزول و التـــلاوة متقدما في الوجـــود، و لا إلى اعتقـــاد كون الأمر بالذبح و ما بعـــده مؤخـــراً في النزول متقدّماً في التلاوة، و الإخبـــار عن قتلهم مقدماً في النزول متأخراً في التـــلاوة دون تعرض لزمان وجود القصتين[2].

فهو بذلك ينفـــي وجود العدول عن الظـــاهر بغيره في هذا السياق القرآني، و لو كـــان الترتيب موافقا للسيـــاق لما لمسنـــا ذلك الترقب و الترغيب في معرفـــة ما آل إليه أمرهـــم بعد أن كلفوا بأمر لا تظهـــر فيه حكمـــة الله إلاّ بعد استســـلامهم و خضوعهم لأمره، و لو عرفـــوا السبب لكان ذلك امتثـــال للأمر و العمل به.

و إذا نظرنـــا إلى السياق من الناحيـــة التداولية فإن المتلقي نخـــاله أمام هذه الآيات مندهشا مترقبـــا محاولا كشف الحكمة الإلهيـــة من وراء أمرهم بذبح البقـــرة، مما يجعل هذا النسيج الأسلوبـــي المتكـــرر في كتاب الله، قائما على شد انتبـــاه المتلقـــي و التـــأثير فيه مع الحجـــة في الإقنـــاع و تعجيـــزه الذي

[1] البحر المحيـــط، ج1، ص 423.
[2] المصدر نفســـه.

يدفعـــه إلى تـــدارس هذا الأسلـــوب و كشف الغموض الذي قد يعتـــري قراءاتـــه القصديـــة للآيـــات القرآنيـــة.

و قد استـــأنسنا إلى تحليل أبي حيـــان لهذه الآيـــات و غيرها لما فيه من رجاحـــة عقـــل و فطنـــة في التعـــامل مع الخطاب انطلاقا من ظاهر السيـــاق، و لا يعـــدل عن الظاهر إلاّ إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

و عليـــه، فإن تعامل أبي حيـــان مع الخطاب القرآنـــي تقوم أساســـاً على افتراضـــات سياقيـــة تتنـــاسب مع دلالة الآيـــة و القضايـــا المتعلقـــة بموضوع الخطاب الذي يعد السيّـــد الموجه للمنهـــج التـــأويلي عند أبي حيـــان، فلم نلمس قط في الكم القليل من تفسيـــر الآيـــات التي سقنـــاها من البحـــر المحيط تعصب صاحبـــه لأي مذهب أو مدرســـة سوى السيـــاق اللغـــوي للنص القرآنـــي.

و غالبـــاً ما كان يحتكم إلى الظاهر في تأويلـــه للخطاب و إلى تحليل التركيـــب خاصة ما كان منـــه مخالفاً للبنيـــة التركيبيـــة للغـــة العربيـــة.

خاتمة

خـــاتـــمـــة:

لم يكـــن تحديدنـــا للمقاربـــة المنهجيـــة بين أبي حيـــان و الألسنيين سهلة، و لم تكن حوصلتنـــا للآليـــات الإجرائيـــة التي اعتمدهـــا أبو حيـــان في تفسير القرآن الكريم أمراً بسيطـــاً؛ و خاصة فيما يتعـــلق بتعاملـــه مع الخطاب القرآني، و الأمر كله يرجـــع إلى النسيج الأسلوبـــي الذي تميز به الخطاب التفسيـــري عند أبي حيـــان، و الذي يعكس نظرته الثاقبـــة و فكره الخصـــب، و ذكـــاءه في توظيف ثقافتـــه الواسعـــة في علوم اللغـــة و الفقـــه و التاريـــخ، و غيرهـــا من العلـــوم. من أجل تأويل الخطاب القرآني. لذلك فالإبحـــار في تفسير أبي حيـــان محفوف بالمخـــاطر لمن لا يجيد الغـــوص و يجهـــل فنون السباحـــة.

و لقد حـــاولنا، بتوفيق من الله و باستعـــانتنا بذلك العـــدد الكبير من المصادر و المراجـــع، أن نتفهـــم أسلوب أبي حيـــان و نغوص في الخطـــاب التفسيري الذي تبنـــاه في تحليلـــه لآي الذكر الحكيـــم لنتوصـــل في النهاية إلى حوصلة مجموعـــة من النتائـــج نوجزهـــا فيما يلي:

- ❖ تنحصر المرجعيـــة اللسانيـــة في تفسير أبي حيـــان في البنيـــة النصية للخطاب القرآني، و التي تفرض على كل محلل لســـاني أن يستحضـــر ثقافتـــه ومعارفـــه في مختلف علوم اللغـــة و غيرها.
- ❖ إن الوظيفـــة التبليغيـــة و التوصيليـــة، بالتحديد في اللسان الغربي، تختـــلف عن الوظيفـــة التبليغيـــة الموجودة في اللغـــات الهندوأوروبية،

و بالتالي فتحليل اللغـــويين العرب للخطـــاب اللغوي العربي يختلف تمـــام الاختـــلاف عن تحليل الألسنيين الغربيين للخطـــاب.

- ❖ إن المنهج اللغوي الذي تبناه أبو حيـــان في تعامله مع الخطاب القرآني؛ يعد أنجع الطرق و أفضلها في استظهار مواطن الاعجاز القرأني, حيث نـــراه ينتقـــل من النص ليعـــود إليه؛ فلا يفســـر صوتا، و لا مفردة في تحـــليل مبناهـــا و معناها ولا وظيفة لفظة في تركيب معين خارج إطار النسيـــج النصّي للخطاب القرآني.
- ❖ اعتمـــاد أبي حيـــان الكلّي على وظيفـــة اللفظة داخل السياق، سعيا منه على إقامـــة العلاقة بين الأساليب العربية و الأسلوب القرآني الذي لا يخـــرج عن إطار الاستعمـــال اللغوي الذي ألفـــه العرب.
- ❖ إن التحليل اللغـــوي الذي اتبعـــه أبو حيان لا يختلف كثيـــراً عن التحليل اللساني الذي دعـــا إليه الألسنيـــون الغرب باختـــلاف توجهاتهـــم، إلاّ ما كان منه مخالفـــاً للنظام اللساني العربي.
- ❖ إن القيمـــة العلمية التي لمسناهـــا في الخطاب التفسيري في البحر المحيـــط و المعتمدة أساساً على التحليل اللغـــوي، من شـــأنه أن يساهم في تطوير البحث العلمي و بالتالي التـــأسيس لمدرسة لسانية عربية. خاصة ما يتعـــلق بلسانيـــات الخطاب. فقد تفطـــن علماؤنا منذ رهط بعيد إلى ضرورة الاهتمـــام بالدرجة الأولى بالخطاب القرآني.
- ❖ إن استعانـــة أبي حيـــان بالأدوات الإجرائيـــة التي توفرهـــا له علوم اللغـــة في تحليل كل مستوى من مستويـــات الدرس اللساني، مكنـــه من البرهنـــة على ترابط أجزاء الخطاب القرآني و على وحدة نصه بأسلـــوب مميز فريد و معجـــز.

❖ إن الثـــروة العلميـــة و اللغوية التي حوتهـــا صفحـــات البحر المحيـــط و التي ساعدت أبا حيـــان في العديد من المواضع إلى تبني منهج تأويلـــي يخرج التركيـــب القرآني من دلالتـــه الظاهرة إلى جملـــة من المقاصد مسكـــوت عنها لا يمكن أن يستوعبهـــا المتلقي إلاّ عن طريق الأسلوب المجازي، من شأنهـــا أن تحقق التوأمـــة العلمية و تمد جسور التواصل بين القديم و الجديد في البحث اللساني، أو بين ثراتنـــا و جهود الباحثيـــن في الدرس اللساني الحديث.

لقد حاولنـــا في رحلتنـــا مع أبي حيـــان من خلال كتـــابه تفسير البحر المحيـــط أن نضع بين يدي المتلقـــي كتراً من الكنـــوز المعرفيـــة لتراثنا العلمي سعيـــا منا في تحقيق القراءة العلميـــة لهذا التراث، التي تتجـــاوز مجرد الوصف إلى التحليل و المناقشـــة، حتى تكون دراستنـــا مؤسســـة تستمد من مرجعيـــة علمية توفرهـــا لنا مساعي علمائنـــا الذين لم يدخـــروا جهداً في إبراز القيمـــة العلمية للخطاب القرآني.

و لسنـــا ندعي الإحاطـــة بكل جوانب هذا الموضـــوع و خبايـــاه وذلك لشساعـــة الموضوع و صعوبتـــه غير أننا –بفضل من الله- بذلنا جهداً في محاولة إبراز معالم التفسيـــر اللغوي عند أبي حيـــان و مقاربتهـــا بالدراسات اللسانيـــة الحديثـــة، و حسبنا أننا فتحنـــا باباً واسعا أمام الباحثين للإهتمام بالثرات اللغوي الذي تختزنـــه كتب التفسير و اللغة عامة؛ من شأنه –كما ذكرنا سابقًا- أن يوطد الصلة بين الجهود اللغوية عند القدماء و جهود اللغويين المحدثين. و لا نرجو من وراء ذلك سوى التوفيـــق من الله، و ما ذلـــك على الله بعـــزيـــز.

الفهارس العامة

فهرس المصادر و المراجع

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الموضوعات

قـــائمـــة المصادر

❖ المصحف الشريـــف بروايـــة ورش.

➢ الاتقـــان في علوم القرآن لجـــلال الدين السيـــوطي، دار المعرفـــة، بيروت، لبنـــان.

➢ إعجـــاز القرآن للباقـــلاني تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدار، ط4. مؤسســـة الكتب الثقافيـــة، بيروت، لبنـــانـــ د.ت.

➢ البرهـــان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي تحقيق محمد أبو الفضـــل إبراهيـــم، ط1957. دار إحيـــاء الكتب العربيـــة، عيسى البابي الحلبـــي و شركـــاؤه.

➢ بغيـــة الوعـــاة في طبقة اللغـــويين و النحـــاة لجلال الدين السيـــوطي، ط10، مطبعة السعـــادة، مصر 1225 هـــ.

➢ تـــأويل مشكل القرآن لابن قتيبـــة، شرحه السيـــد أحمد صقـــر، ط3، 1981، المكتبـــة العلميـــة.

➢ تفسيـــر البحر المحيط لأبي حيـــان الأندلسي، دار الفكر للطباعة و النشـــر و التوزيع، بيروت لبنـــان، 1978، ط2، دون تحقيق.

- تفسير البحر المحيط لأبي حيـــان الأندلسي تحقيق و تعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجـــود و الشيخ علـــي محمد معـــوض و الدكتور زكريـــا عبد المجيد النـــوتي و الدكتور أحمد النجـــولي الجمل، ط2، 1422-2001، دار الكتب العلميـــة، بيروت، لبنـــان.

➢ تفسير التحرير و التنوير للإمام الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
➢ جامع البيان في تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ط2، 1954.
➢ تفسير القرآن الكريم لعماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القريشي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1969.
➢ التفسير الكبير للفخر الرازي، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
➢ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الفكر، ط1، 1982.
➢ تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن لأبي الفضل بن الحسن الطبرسي، بيروت، منشورات دار الحياة.
➢ تفسير المحرر الوجيز لأبي محمد بن عطية تحقيق عبد الله ابراهيم الأنصاري، و السيد عبد العال السيد ابراهيم، دار الفكر العربي، دار الكتاب الإسلامي، ط2.
➢ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط 1985.
➢ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب لبنان، ط3، 1983.
➢ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني شرحه و علق عليه، د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999.
➢ روح المعاني للعلامة الشيخ أبي الفضل شهاب الدين الألوسي، تحقيق محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

- سـنن أبـو داوود.
- سـنن التـرميذي.
- شرح ابن عقيـل العقيـلي الهمدانـي حققه حنـا الفاخـوري، ط1/1989، دار الجيل، بيروت، لبنـان.
- شرح المفصـل لابن يعيـش صححه و علق على حواشيـه و مراجعة مشيخـة الأزهر، دار الطباعـة المنيرة، مصر.
- كتـاب الجامع الصحيح للبخـاري.
- الكتاب لسيبويـه شرح و تحقيق عبد السـلام هارون، ط1، دار الفلم 1969، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- معـاني القرآن للقراء تحقيق أحمد يوسـف نجاتـي محمد على النجار، دار بيروت، لبنـان، 1955.
- مغني اللبيـب عن كتب الأعاريب لأبي هشـام الأنصاري، ط1، حققه مازن المبارك، د. محمد علي حمد الله.
- المقدمـة لعبد الرحمن بن خلدون، الدار التونسيـة للنشر و التوزيع، تونس/1984.
- مناهـل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، الجامعة الأزهرية، كلية أصول الدين، ط3، دار إحياء الكتب العربيـة.
- المـؤطأ الإمـام مالك.
- النشر في القراءات العشر لابن الجـوزي تحقيق محمد أحمد الدهمـان، ط1، مطبعـة التوفيق، دمشق سوريـا.
- النهـر الماد، مختصر البحر المحيـط لأبي حيـان النحوي على هامش النسخـة غير المحققـة.

قـــائمـــة المراجـــع

- أبنيـــة الفعل في شافيـــة ابن الحاجب، دراسة لسانيـــة و لغوية لعصام نور الدين، المؤسسة الجامعيـــة، لبنـــان، ط1، 1982.
- أبو حيـــان النحوي، د. خديجـــة الحديثي، مكتبـــة النهضة، بغـــداد، ط1/1966م.
- أسرار التقديـــم و التأخير في لغة القرآن للدكتور محمد السيد شيخـــون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1/1983.
- إعجـــاز القرآن و البلاغة النبويـــة، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت. د.ط.
- الألسنيـــة علم اللغة الحديث لميشـــال زكريا، ط1، المؤسسة الجامعيـــة للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت 1980.
- أمبرتو إيكو التأويل بين السيميئات و التفكيكيـــة، ترجمة و تقديم سعيد بنكراد، المركز الثقافـــي العربي، ط1.
- بلاغة الخطاب و علم النص للدكتور صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1996، ط1، دار نوبار للطباعة القاهـــرة.
- بول ريكـــور، نظرية التأويل الخطاب و فائض المعنـــى ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغـــرب، ط1، 2003.
- التفسير و المفسرون لمحمد حسين الذهبي، مكتبة وهبـــة، ط4، 1988.
- التلقي و التأويل لمحمد عـــزام، دار الينابيـــع للطباعة و النشر، دمشـــق، ط1، 2007.

➢ تلوين الخطاب في القرآن الكريم، دراسة في علم الأسلوب و تحليل النص، د. طه رضوان طه رضوان، دار الصحافة للتراث، طنطا، مصر، ط1، 2007.
➢ دراسة لأسلوب القرآن الكريم د. محمد عبد الخالق عظيمة، دار الحديث، القاهرة.
➢ دراسات في علوم القرآن للدكتور أمير عبد العزيز، دار الشهاب للطباعة و النشر، الجزائر، ط2، 1988.
➢ دليل الباحث في المنهجية و كتابة الرسائل الجامعية عمّار بوحوش، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1990.
➢ علم لغة النص المفاهيم و الاتجاهات د.سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان، ط1، 1997، دار نوبار للطباعة القاهرة.
➢ "فهم الفهم" مدخل إلى الهرمينوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامير د. عادل مصطفى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
➢ قضايا اللغة في كتب التفسير د. الهادي الجطلاوي، ط1، 1998، دار محمد على الحامي، تونس.
➢ لسانيات النشأة و التطوير لأحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 2002.
➢ اللسانيات لجان بيرو ترجمة الحواس مسعودي، مفتاح بن عروس سلسلة العلم و المعرفة، دار الآفاق الجزائر، 2001.
➢ لسانيات النص مدخل إلى إنسجام الخطاب لمحمد الخطابي المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.

➢ اللهجـــات العربية و القراءات القرآنية –دراسة في البحر المحيط، د. محمد خـــان، ط1، 2002، دار الفجر للنشر و التوزيع، الجزائر.
➢ مباحث في علوم القرآن لمناع قطان، مكتبة المعـــارف للنشر و التوزيع، الرياض، ط3، 2000.
➢ مباحث في اللسانيات للدكتور أحمد حساني، ديوان المطبوعـــات الجامعية، الجزائر، 1994.
➢ محاضرات في علم التفسير و مناهج المفسريـــن د. محمد دراجي دار غبرينـــي للطباعة و النشر، الجزائر، ط1، 2005.
➢ من مناهج التفسير الشحات السيد زغـــلول، دار المعرفة الجامعيـــة، مصر 1996.
➢ مبـــادئ اللسانيات البنيوية دراسة تحليلية استيمولوجيـــة للطيب دبة، دار القصبة للنشر، الجزائر، ط2001.
➢ منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم الدكتور صبري متولي.
➢ منهجيـــة البحث العلمي في العلوم الإنسانيـــة لموريس أنجريس، ترجمة بوزيد صحراوي كمال بوشـــرف، سعيدسيعون، دار القصبة للنشر الجزائر، 2004.
➢ منهجيـــة البحث العلمي لخالد حـــامد، دار ريحانـــة للنشر و التوزيع، ط1، 2003.
➢ نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمـــن د. عبد المالك مرتاض، دار هومـــة للطباعة و النشر، الجزائر.
➢ نظرية لسانيـــة عربية حديثة لتحيل التراكيـــب الأساسية في اللغـــة العربية د. مازن الوعد، ط1، دمشق 1987.

قـــائمـــة الرسائل الجامعية

(ماجيستير و دكتوراه)

- أبو حيـــان الأندلسي موقفه من القراءات القرآنية و منهجـــه في تخريجهـــا و توظيفهـــا منخـــلال تفسيره البحر المحيـــط، أ. ربيعة باقلاني، بحث مقدم لنيل ديبلـــوم دراسات عليا جامعة شعيب الدكـــالي، كليـــة الآداب و العلوم الإنسانية الجديدة، المغـــرب، 1998-1999، مخطوط.
- التناسب القرآني و آليـــات اشتغـــاله من خلال البحر المحيط للدكتور عبد العزيز فارس، رسالة لنيل دكتوراه دولة في الآداب، الدار البيضاء، المغرب، 2002-2003، مخطوط.
- الزمن في القرآن الكريم، د. بكري عبد الكريم، رسالة مقدمة لنيل شهـــادة دكتوراه، مخطوط.
- العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني، مقاربة أسلوبيـــة، د. عبد الخالق رشيد، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتـــوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2006-2007، مخطوط.
- الفعل و دلالتـــه في تفسير البحر المحيط لأبي حيـــان النحوي، للأستـــاذة زهرة سعد الله، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير، جامعة وهـــران، 2000، الجزائر، مخطوط.
- لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتســـاق و الانسجـــام لد. خديجة ايكر، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة شعيب الدكـــالي الجديدة المغرب، 2006-2007، مخطوط.

➢ المحاكمات بين أبي حيـــان و ابن عطية و الزمخشـــري ليحي الشاوي تحقيق د. عبد القادر مغدير، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتـــوراه، جامعة وهران 2006.

➢ النص الإشهاري، دراسة لسانية تطبيقيـــة لخاين محمد، رسالة مقدمـــة لنيل شهادة ماجستير، وهران، السانيـــة 2004-2005.

قـــائمـــة المعـــاجـــم

- معجـــم تـــاج العروس من جواهـــر القاموس لمحمد مرتـــضى الزبيدي، منشورات دار مكتبة الحيـــاة، بيروت، لبنـــان.
- القاموس المحيط للفيروز أبـــادي، دار الفكر بيـــروت، 1983.
- معجـــم لســـان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظـــور الإفريقي المصري، دار صادر، بيـــروت، لبنـــان.
- معجـــم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحديث لعـــادل نويهض مؤسسة نويهض الثقافيـــة للتـــأليف و الترجمة و النشر.
- المعجـــم المفهرس لألفـــاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد البـــاقي، دار الجيل، بيروت.
- مقـــاييس اللغة لأحمد بن فـــارس بن زكريـــاء تحقيق عبد الســـلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهـــرة، ط2، 1969.

قـــائمـــة المـــجـــلات

- مجلـــة الآداب و العلوم الثقافيـــة "المنهـــل" المتحف الوطني السعودي، العـــدد 600، المجلد 68.
- مجلـــة رابطة أدباء الشـــام تعنى بقضايا الآداب و الإنســـان، تصدر في لندن و بريطـــانيا.
- مجـــلة عالم الفكر، المجلـــد 26، العدد 2، أكتوبر-ديسمبر 1997.
- مجـــلة كلية الشريعـــة، المملكة المغربية، جامعة القروييين، العدد 22، 1998-1997.
- مجـــلة المترجـــم، العدد 1 جـــوان 2001.
  العدد 4 جـــوان 2002.

فهـــرس الآيـــات القرآنيـــة

السـورة	الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
الفاتحـــة	﴿الرحمن الرحيم﴾	03	116
//	﴿إيّـاك نَعْـبُـدُ و إيّـاك نستعيـن﴾	05	168
//	﴿اهدنـا الصراط المستقيم﴾	06	117
البقـــرة	﴿أولئك على هـدى من ربّهـم و أولئك هم المفلحـون﴾	05	156
//	﴿خَتَـمَ الله على قـلوبهـم و علـى سمـعهـم و على أبصارهـم غشـوة و لهم عـذاب عظيـم﴾	07	173
//	﴿و من النـاس من يقـول آمنـا بالله و اليوم الآخـر و ما هم بمؤمنيـن﴾	08	55
//	﴿يخادعـون الله و الذين آمنـوا و ما يخدعون إلاّ أنفسهـم و ما يشعـرون﴾	09	130
//	﴿أو كصيّب من السّماء فيه ظُـلُمَاتٌ و رعْـدٌ و برْقٌ يجْعَـلُون أصَابعَهُـم في ءاذانِهِـم من الصواعِـقِ حَذَرَ المـوت و اللهُ محيطٌ بالكافريـن﴾	19	150
//	﴿يأيهـا الناس اعبُـدُوا ربّكُم الذي خلقكـم و الذين من قبلكم لعلّكُم تتقـون﴾	21	204

البقـــرة	﴿الذي جَعَل لكم الأرض فِراشـاً و السمّاء بنـاءً و أنْـزَلَ من السّماءَ مـاءً فأخـرج به من الثمرات رزقـاً لكُم فلاَ تجْعَلُوا لله أنْـدادَاً و أنتم تعلمـون﴾	22	204
//	﴿و إن كنتم في ريبٍ ممَّـا نَزَّلْنَـا على عبْـدِنَا فَـأتُوا بسـورةٍ مِـنْ مثـلِهِ، و ادعوا شُهداءكم من دون الله إن كُنتـم صادقين﴾	23	84 101
//	﴿و إذا قلنـا للملائكة اسجـدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين﴾	34	62
//	﴿فـتلقـى آدم من ربِّـه كلمـات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾	37	20
//	﴿يا بَني إسرائيـل اذْكُـرُوا نِعْمَتِي التي أنْعَـمتُ عَليكُمْ و أوْفُـوا بعَهْـدِي أوفِ بِعَهْدِكُم و إيَّـايَ فارهَبُـون﴾	40	169
//	﴿و أقـيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الراكعين﴾	43	13
//	﴿أتأمرون النـاس بالبرّ و تنسـون أنفسكـم و أنتم تتلـون الكتـاب أفـلا تعـقـلون﴾	44	65
//	﴿و إذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بـارئكُم فاقْتُـلُوا أنْـفُسكُم ذلِكُـم خيرٌ لكُـم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾	54	98 125

البقـــرة	﴿و لقد عَلِمتُـــم الذين اعْتَـــدوا مِنْكم في السبـــت فَـــقُلنا لَـــهُمْ كُـــونوا قِـــرَدَةً خاسئـــين﴾	65	94
//	﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إنّ البَقَر تَشَابَهَ علينا و إنا إن شاء الله لمهتدون﴾	70	140
//	﴿قال إنـــه يقول إنهّا بقـــرة لا ذلول تثيـــر الأرضَ و لا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَـــةٌ لاشيـــة فيها قالُوا الآن جِئْـــتَ بالحَـــق فَذَبَحُـــوهَـــا و ما كادُوا يفْعَـــلُون﴾	71	214
//	﴿و إذ قَتَلتُم نَفْسًا فادَّارأتُـــم فيها و الله مُخْـــرِجُ ما كنتـــم تكتمـــون﴾.	72	63 214
//	﴿و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا أمنا و إذا خلا بعضهم إلا بعض قالوا أتحدثوتهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفـــلا تعقلون﴾	76	65
//	﴿و اتبعُوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان و ما كفر سليمان و لكن الشياطين كفروا﴾	102	128
//	﴿و قـــالوا لن يدخـــل الجنّة إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نصـــارى﴾	111	67
//	﴿الذين آتينـــاهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوتـــه﴾	121	129
//	﴿ و مَنْ يَرْغبْ عن مِلّةِ ابراهيـــم إلاّ من سَفِهَ نفسه﴾	130	134

البقـــرة	﴿إنّ في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهّـار و الفلك التي تجـري في البحر بما ينفـعُ النـاسَ و ما أنزلَ الله من السّماء من ماءٍ فأحيـا به الأرضَ بعد موتهـا و بث فيهـا من كل دابّةٍ و تصريف الرّيـاح و السّحاب المسخّر بين السّماء و الأرض لآيـاتٍ لقوم يعقلـون﴾	164	177
//	﴿إذ تبرأ الذيـن اتُبِعُـوا من الذين اتَبَعُـوا و رأوا العذاب و تقطعـت بهم الأسبـاب﴾	166	99
//	﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له و أن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾	184	138
//	﴿يسـألونك عن الأهلّـة قُل هي مواقيت للنـاس و الحج و ليس البـرُّ بأن تأتوا البيُـوت من ظهورهـا و لكنّ البرّ من اتقـى و أتوا البيوت من أبوابها و اتقوا الله لعلكم تفلحون﴾		14 69 211
//	﴿و أنفقـوا في سبيـل الله و لا تُلقُـوا بأيْديكـم إلى التهلكـة و احسنـوا إنّ الله يحبُّ المحسنيـن﴾	195	148
//	﴿ففـديـةٌ من صيـامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُـسُكٍ ﴾	196	71

البقـــرة	﴿و من النـاس من يشتري نفسـه ابتغاء مرضات الله و الله رؤوف بالعباد﴾	207	158
//	﴿كَانَ النّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً فبَعَـثَ اللهُ النبيـنَ مُبَشّريـن و مُنْذرينَ و أنْزَلَ مَعَهُـم الكِتَـابَ بالحَـقِّ ليَـحْـكُـم بَيْـن النَّـاس فيما اخْتَلَـفُوا فيـه و ما اختـلف فيـه إلاّ الذين أُوتُـوهُ من بَعْدِ ما جَاءتْهم البَيِّنَـاتُ بَغْياً بينَهُـم فَهَـدَى الله الذين ءامَنُـوا لما اخْتَلَفُـوا فيه من الحَـقِ بإذنـه، و اللهُ يهـدي من يَشَـاءُ إلى صِرَاطٍ مُستقيـم﴾	213	98 203
//	﴿كُتـب عليكم القتال و هو كره لكم و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خيـر لكـم و عسى أن تحبـوا شيئـا و هو شـر لكـم و الله يعلـمُ و أنتـم لا تعلمون﴾	216	187
//	﴿و يسـألونـك عن اليتـامى قل إصـلاح لهم خيـرٌ و إن تخـالطوهـم فإخـوانكـم و الله يعلـمُ المفسـدَ من المصلح و لو شاءَ الله لأعْنَتَـكُم إنّ الله عزيز حكيـم﴾	220	208
//	﴿و المطـلّقاتُ يتربَّصْنَ بأنْفُسِهِنَّ ثلاثة قُروء﴾	228	90
//	﴿وَسِـعَ كُـرْسـيُّـه السـمـوات و الأرض﴾	255	133
//	﴿فـإن لـم تَـفْـعَـلُوا و لَـنْ تـفْـعَـلُوا فـاذَنُـوا بـحَـرْب مـن الله و رسُـولـه﴾	279	135

البقـــرة	﴿آمـــن الرســـول بما أنـــزل إليـــه من ربّـــه و المؤمنون كلّ آمن بالله و ملائكته و كتبـــه و رسلـــه لا نفـــرّق بين أحـــدٍ من رسلـــه، و قالوا سمعنا و أطعـــنا غفرانك ربّنـــا و إليك المصير﴾	285	117
//	﴿لا يكلف الله نفـــساً إلاّ وسعهـــا لها ما كسبـــت و عليها ما اكتسبـــت، ربّنا لا تؤاخذنـــا إن نسينـــا أو أخطأنـــا ربّنـــا و لا تحمـــل علينـــا إصـــرًا كما حملتـــه على الذيـــن من قبلنـــا ربنـــا و لا تحملنـــا ما لا طاقـــة لنـــا به و اعـــف عنّـــا و اغفـــر لنـــا و ارحمنا أنت مولانـــا فانصرنـــا على القـــوم الكافريـــن﴾	286	117
آل عمران	﴿فـــأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبـــعـــون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلاّ الله و الرّاسخون في العـــلم يقـــولون آمنـــا به﴾	07	07
//	﴿زُيِّـــن للنّـــاس حبُّ الشهـــواتِ من النســـاءِ و البنين و القناطيـــر المقنطرة من الذهـــبِ و الفضة و الخيْل المسوّمَةِ و الأنعامِ و الحرثِ ذلك مَتاعُ الحيـــواة الدنيـــا و اللهُ عنده حُسْـــنُ المَئاب﴾	14	146

آل عمران	﴿إذ قالَ اللهُ يا عيسى إنّي مُتَوَفّيك و رَافِعُكَ إليَّ ومُطَهّرُك من الذين كَفَرُواوجاعلُ الذين اتّبَعُوكَ فوقَ الذين كَفَرُوا إلى يوم القِيَامَةِ ثمّ إليَّ مَرْجِعُكُم فَاَحْكُم بَيْنكُم فيمَا كنتُم فيه تختلفون﴾	55	208
//	﴿من إن تأمنه بقنطار﴾	75	150
//	﴿ليسُوا سَواءً منْ أهْلِ الكتابِ أمّةٌ قائمةٌ يَتْلونَ ءَايَاتِ الله ءَانَاءَ اللّيْل و هم يسجدون﴾	113	93
//	﴿ليسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ أو يتُوبَ عليْهِم أو يُعَذّبَهُم فإنهّم ظالمون﴾	128	93
//	﴿ربّنا ما خَلقت هذا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عذاب النار﴾	191	11
//	﴿فاستجاب لهم ربُّهم أنّي لا أضيع عَمَلَ عَاملٍ منكُم﴾	195	63
النساء	﴿و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام﴾	01	56
//	﴿ فإن تنازَعْتُم في شيء فردوه إلى الله و الرسول، و إن كُنْتُم تُؤْمِنُون بالله و اليوم الآخر ذلك خيرٌ و أحسنُ تأويلاً﴾	09	07
//	﴿و أحلَّ لكُم ما وَرَاء ذالكُم﴾	24	71 90
//	﴿أفلا يتدبَّرُون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾	82	185

النســـاء	﴿فبظلـــم من الذين هادوا حرّمنـــا عليهم﴾	160	149
المـــائدة	﴿يا أهل الكتـــاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتب و يعفو عن كثير قد جاءكم الله نورٌ و كتابٌ مبين﴾.	15	أ
//	﴿يهدي به الله من اتبّـــع رضوانـــه سُبُلَ السّلام و يخرجهـــم من الظلمات إلى النور بإذنـــه، و يهديهم إلى صراط مستقيـــم﴾.	16	أ
//	﴿و اتـــلُ عليهم نبـــأ ابني آدم بالحقّ إذ قرّبـــا قُربَانـــاً فتُقُبّـــل من أحدهما و لم يُتَقَبّـــل من الآخر قال لأقْتُلَنّـــك قال إنّمَا يتقَبّـــل اللهُ من المتّقيـــن﴾	27	159
//	﴿لَئِنَ بَسَطْتَ إليّ لتقْتُلني ما أنا بِبَاسطٍ يدي إليك لأقتُلكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العالمين﴾	28	159
//	﴿و إذا سمعوا ما أنـــزل إلى الرسول تـــرى أعينهم تفيضُ من الدّمع ممّا عرفوا من الحق يقولون ربّنـــا آمنا فاكتبنـــا مع الشاهـــدين﴾	83	113
الأنعـــام	﴿ قـــد خَـــسِـــرَ الذيـــن كذبـــوا بلقـــاء الله﴾	31	133
//	﴿...لـــقَدْ تقَطّـــع بينكـــم و ضَـــلّ عَنكُـــم ما كُنْتُـــم تَـــزْعَـــمُـــون﴾	94	99
//	﴿إن الله فالق الحب و النّـــوَى يُخْرِجُ الحيّ مِن الميّـــت و مُخْـــرِجُ الميّـــت مِنَ الحيّ ذلكم الله فأنّـــى تؤفكـــون﴾	95	160

الأنعـــام	﴿و لو أننا نزلنـا إليهم الملائكـة و كلمهم الموتى و حشرنا عليهـم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنـوا﴾	111	166
الأعـــراف	﴿فمن ثَقُلت موازينـه، فأولئك هم المُفْلِحُـون﴾	8	137
//	﴿قـالا ربّنـا ظلمنـا أنفسنـا و إن لم تغفـر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾	23	20
//	﴿و لَقَـدْ جئـنَاهُـم بكـتـابٍ فَصَّـلنَـاهُ على علـمٍ، هُـدًى و رحْـمةً لـقـومٍ يـؤمـنـون﴾	52	09
//	﴿هـل ينظرُون إلاّ تَـأويلَـه، يوم يأتـي تأويلـهُ، يقول الذين نَـسَوْهُ من قبْل قـدْ جَـاءَتْ رُسُـلُ ربِّـنَـا بالحق فهل لَنَـا من شفعـاء، فيَـشْـفَعُـوا لنا، أو نُرَدَّ فَـنَعْمَـلَ غَيرَ الذي كُنَّا نعمَـلُ قد خَسـرُوا أنْفُسَهُـم و ضَلَّ عنهم ما كـانوا يَـفْـتَرُون﴾	53	07 09
//	﴿و اتخـذ قـومُ موسى من بعده من حَـليّهـم عجـلاً جسداً له خُـوار﴾	148	10
//	﴿أو لـمْ ينظـروا في مَـلكـوتِ السمـوات و الأرض و ما خَـلقَ اللهُ من شيءٍ و أن عَـسَى أن يكـون قد اقتَـربَ أجَـلُهُـم فـبِـأيِّ حديثٍ بعـدَهُ يؤمنـون﴾	185	87

الأعـــراف	﴿يسئلونك عن الساعة أيّان مرساها قُل إنَّمَا علمها عند ربّي لا يُجَلّيها لوقتها إلاّ هو ثقُلت في السموات و الأرض لا تأتيكم إلاّ بغتَةً يسئلونك كأنّكَ حَفِيٌّ عنها قل إنّما علمُهَا عند الله و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾	187	88
//	﴿و إن تدعُوهُم إلى الهدى لا يتبعُوكُم سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾	193	159
الأنفـــال	﴿و يريدُ الله أن يحق الحقّ بكلماته﴾	07	118 242
التـــوبة	﴿إنمّا النسيء زيادة في الكفر﴾	37	13
//	﴿ ليس على الضعفَاء و لا على المرضى و لا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ إذا نصحوا لله و رسوله ما على المحسنين من سبيل و الله غفورٌ رحيم﴾	91	10
يـــونـــس	﴿و إذا أذقْنَا النَّاس رحْمَةً من بعدِ ضرّاء مَسَّتْهُم إذا لهم مَكْرٌ في ءاياتِنَا قُلِ اللهُ اَسْرَعُ مَكْراً إنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُون﴾	21	206
//	﴿هنالك تتلو كلُّ نفس ما أسلَفَت﴾	30	129
//	﴿بل كذّبُوا بما لَمْ يُحِيطُوا بعلمه و لما يأتِهِم تأويله﴾	39	07

يونس	﴿قُلْ انظروا ماذا في السموات و الأرض و ما تُغني الآياتُ و النُّذُر عن قومٍ لا يؤمنون﴾	101	82 83
يوسف	﴿أفلم يسيروا﴾	109	65
الرعد	﴿و نخيلٌ صنوانٌ و غير صِنوانٍ﴾	04	118
إبراهيم	﴿إن أنتم إلاّ بشَرٌ مِثْلَنا تُريدُون أن تَصُدُّونَا﴾،	10	172
الحجر	﴿كما أنزلنا على المقتَسمين﴾	90	20
//	﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾	91	20
//	﴿ و لقد ءاتيناك سبعاً من المثاني و القرآن العظيم﴾	87	89
النحل	﴿أتى أمْرُ اللهِ فلا تستعجلوه﴾	01	210
//	﴿و لو يؤاخذُ اللهُ النّاسَ بِظُلمهم ما ترك عليها من دابّةٍ و لكن يُؤَخِرُهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى فإذا جاء أجَلُهم لا يستأخِرُون ساعة و لا يستقدمون﴾	61	202
//	﴿و الله أخرجكم من بُطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً و جَعَل لكُم السَّمعَ و الأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون﴾	78	82
الإسراء	﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم و و يُبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً﴾	09	أ

الإســـراء	﴿و قَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تعْبُـدُوا إلاّ إيّـاه و بالوالدين إحساناً إمّا يَبْلُغَـنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاهُمَا فَلاَ تَقُـلْ لهما أُفٍ و لا تَنْهَرهُما و قُلْ لهُمَا قَوْلاً كريمـا﴾	23	106
//	﴿و لا تَقْـفُ ما ليْسَ لك به علـمٌ إنَّ السَّمْـع و البَصَر و الفـؤاد كـلُّ أولئك كان عنه مسئـولاً ﴾.	36	22 82
//	﴿و قرآنـا فرقنـاه لتقـرأه على الناس على مكـث و نزلنـاه تنزيـلا﴾	106	113
الكهـــف	﴿سأنبـئك بتـأويل ما لَمْ تستطِعْ عَـليه صبـراً﴾	78	07
//	﴿ذلك تـأويل ما لَمْ تستطِـعْ عَـليه صبـراً﴾	82	07
طـــه	﴿الرحـمن على العـرش استوى﴾	06	25
//	﴿قَـال فمنْ ربُّكُمـا يا موسـى﴾	49	89
//	﴿قال ربُّـنا الذي أعطى كلّ شيء خَـلقه ثم هـدى ﴾	50	89
//	﴿قال فما بـالُ القُـرون الأولـى﴾	51	89
//	﴿قال عِلْـمُها عند ربّي في كتـاب لا يَضِـلُّ ربّي و لا ينسـى﴾	52	89
//	﴿الذي جعـلَ لكـم الأرضَ مهداً و سَلكَ لكم فيهـا سُبُـلاً و انْـزَلَ من السّمَاء ِ مـاءً فـأخرجْنا به أزواجاً من نباتٍ شتّـى﴾	53	89 165

طـــه	﴿كُـلُوا و ارعوا أنعـامَكُم إنّ في ذلك لآيـاتٍ لأُولـي النُّهـى﴾	54	89
الأنبيـــاء	﴿فَقُـلْ آذَنْـتُكُـم على سـواء﴾	109	136
الحـــج	﴿و الذين هـاجروا في سبيل الله ثم قُـتِلُـوا أو ماتوا ليَرْزُقَـنَّهُمُ الله رزقاً حسناً و إنّ الله لهو خير الرازقين﴾	58	213
//	﴿ليُدْخِلَـنَّهُم مدخـلاً يرضونـه و إنّ الله لعليمٌ حليـمٌ﴾	59	213
//	﴿ذلـك و من عـاقب بِمثْل ما عـوقِبَ بِهِ ثمّ بغِـيَ عليـه لِيَنْصُـرَنَّـهُ الله إنّ الله لعَفُـوٌ غفـور﴾	60	213
//	﴿ ذلك بـانّ الله يُولـجُ الليْـلَ في النـهـارِ و يُولِـجُ النهّـار في اللّيْـل و أنّ الله سميـعٌ بصيـرٌ﴾	61	213 173
//	﴿ذلـك بأنّ الله هو الحـق و أنّ ما يدْعُـون من دُونِـهِ هو الباطِلُ و أن الله هو العليُّ الكبيـرُ﴾	62	213
//	﴿ألـم تر أن الله أنـزل من السّمـاء ماءً فتصبـح الأرض مخضرّةً﴾	63	209
المؤمنـــون	﴿ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُـم يُـريدُ أنْ يَتَفَضَّـل عليكم و لو شـاء الله لأنـزلَ ملائكـةً﴾	24	172

النـــور	﴿و لولا فَضْلُ الله عليكـــم و رحمتهُ و أنّ الله رءوف رحيـــم﴾	20	167
//	﴿المصبـــاح في زجاجـــة، الزجـــاجة كأنهّـــا كوكـــب دُري يوقـــد من شجرةٍ مباركـــةٍ زيتـــونةٍ لا شرقـــية و لا غربية، يكاد زيتُها يضيء و لو لم تمسسه نارٌ نورٌ على نورٍ يهـــدي الله لنـــوره من يشـــاءُ و يضربُ الله الأمثـــال للنـــاس، و الله بكل شيء عـــليم﴾	35	24
الفرقـــان	﴿تشقق السماء بالغمام﴾	25	149
//	﴿و لا يَـــأتُونَـــكَ بِمـــثلٍ إلاّ جِـــئنَـــاك بالحـــقّ و أحسنَ تفـــسيراً﴾	33	03
الشعـــراء	﴿ و إذا مرضـــت فهو يشفيـــن ﴾	80	133
القـــصص	﴿فبَصُرَت به، عن جُـــنُبٍ و هم لا يشْعُرُون﴾	11	137
//	﴿كل شـــيء هـــالك إلاّ وجـــهه﴾	88	25
العنكبوت	﴿قُـــلْ سيـــروا في الأرض فانظـــروا كيف بـــدأ الخلق ثم الله ينشـــئ النشـــأة الآخـــرة إنّ الله على كل شـــيء قـــديرٍ﴾	20	80 177
الـــروم	﴿أولـــم يســـيروا﴾	09	65
سبـــأ	﴿ و لو ترى إذ فَزِعُـــوا فلا فوت و أخذوا من مكان قريب﴾	51	133

ص	﴿و شَدَدْنا مُلْكَهُ و ءاتيناه الحكمة و فَصْلَ الخطاب﴾	20	186
//	إنَّ هذا أخي لَهُ تِسْعٌ و تسعُون نعجةً و لي نعجةٌ واحدةٌ فقَالَ أكْفِلْنِيهَا و عَزَّنِي في الخطاب﴾.	23	186
//	﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب﴾	29	26
الشورى	﴿كُبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه﴾	13	137
الزخرف	﴿أفنضْرب عنكُم الذّكْرَ صفْحاً إن كنتم قوماً مسرفين﴾	05	65
//	﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين و لا يكاد يبين﴾	52	165
الدخان	﴿ذُق إنَّك أنت العَزيز الحكيم﴾	49	205
الجاثية	﴿ويل لكلّ أفّاك أثيم﴾	07	174
//	﴿يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم﴾	08	174
//	﴿و خَتَمَ على سمعه و قلبه﴾	23	173
//	﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾	29	203
محمد	﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾	24	26

النجـــم	﴿ما كَـــذَبَ الفـــؤاد ما رأي و لقد رآه نَـــزْلَـــة أخرى عند ســـدرةِ المنتهـــى﴾	14	21
القمـــر	﴿فقـــالوا أبشراً منّـــا واحداً نتبعـــه إنا إذاً لفي ضـــلالٍ و سعر﴾	24	171
الرحمـــن	﴿و السمّـــاء رفعهـــا و وضع الميـــزان﴾	07	118
//	﴿ألاّ تطغـــوا في الميـــزان﴾	08	118
//	﴿فبأيّ ءالاءِ ربكُمَا تكذبـــان﴾	13، 16، 18، 21، 23، 25، 28، 30، 32، 34، 36، 38، 40، 42، 45، 47، 49، 51، 53، 55، 57، 59، 61، 63، 65، 67، 69، 71، 73، 75، 77	118
التغـــابن	﴿إنّما أموالكم و أولادكم فتنـــة﴾	15	172

الطـــلاق	﴿و اللّائي يئسْنَ مِنَ المحيــض من نسائكم إن ارتبتُــم فعِدَّتُهُــنَّ ثلاثــة أشهُــرٍ و اللّائي لم يَحِضنَ و أولات الأَحْمَــالِ أجَلُهُــنَّ أن يضَعْنَ حَمْلَهُــنَّ و منْ يَتَّــقِ الله يَجْعَــلْ له من أمْــرِهِ يُسْــراً﴾	04	166
الحــاقــة	﴿خُــذُوه فَغُلُّــوه﴾	30	174
//	﴿ثم الجحيــم صَلّــوه﴾	31	174
//	﴿ثم في سِلْسِلَــةٍ ذَرْعُــهَا سَبْعُــون ذِراعــاً فاسْلُكُــوهُ)﴾	32	174
المزمل	﴿أو زد عليه و رتل القرآن ترتيلا﴾	04	113
القيامة	﴿لا أقســم بيوم القيــامة﴾	01	212
//	﴿و لا أقسم بالنفــس اللوّامــة﴾	02	212
//	﴿فــإذا قرآنــاه فاتبــع قرآنــه﴾	18	113
//	﴿أولى لك فأولى﴾	34	118
//	﴿ثم أولى لم فأولى﴾	35	118
المرسلات	﴿ويلٌ يومئــذ للمكذبين﴾	15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49.	118
النبــأ	﴿لا يتكلّمــون إلاّ مَنْ أذِنَ له الرحمن﴾	38	136

الضحـــى	﴿ما ودَّعَـــكَ ربُّكَ و ما قَلَـــى(03) و لَلآخِـــرَةُ خيرٌ لَكَ من الأُولَى(04) و لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّـــكَ فتَـــرْضَى(05) ألَمْ يَجِـــدْكَ يَتِيمـــاً فَئَـــاوَى(06) و وَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَـــدَى(07) و وَجَـــدَكَ عَائِـــلاً فَأَغْـــنَى(08) فأمَّا اليَتِيـــم فلا تَقْهَـــر(09) و أمَّا السَائِلَ فلا تَنْـــهَـــر(10) و أمَّا بِنِعْـــمَةِ رَبِّكَ فحَدِّث(11)﴾	11-01	163
الشرح	﴿فإنّ مع العسر يُسراً﴾	05	118
//	﴿إنّ مع العُسر يُسراً﴾	06	118
العاديـــات	﴿فأثـــرن به نقعـــاً﴾	04	202
التكـــاثر	﴿كلاّ سوف تعلمون﴾	03	118
//	﴿ثم كلاّ سوف تعلمون﴾	04	118
المـــاعون	﴿ فويلٌ للمصلّيـــن﴾	04	187
النصـــر	﴿فـــسبّح بحمـــد ربِّكَ و استغْـــفِرْهُ إنَّـــهُ كان تَـــوّاباً﴾	04	08

فهـــرس الأحاديث النبـــويـــة

الحـــديـــــــــــث	الصفحـــة
عن عائشة رضي الله عنهـــا أنّها قالت (كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في ركوعه و سجوده سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغـــفر لي يتأوّل القرآن).	08
قول الرسول صلى الله عليه و سلم «من عَـــمِلَ بما عَلِم ورَّثَـــهُ الله علم ما لا يعـــلم»	16
قول رسول الله عليه الســـلام «اتقـــوا الحـــديث عـــليّ إلاّ ما عـــلمتم، و من كـــذب عَـــلَيَّ متعـــمّداً فليتبـــوأ مقعـــده من النار»	23
قول رسول الله عليه الســـلام «من قـــال في القـــرآن برأيه فـــأصاب فقط أخطـــأ».	23
«من أحبّ أن يقـــرأ القرآن غَـــضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد يعني ابن مسعود، و كان رضي الله عنه قد أعطي حَظّاً عظيمـــاً في تجويـــد القرآن».	113

فهـــرس الأبيـــات الشعـــرية

(أ)

و لكنه فيـــه مـــجال لنـــاقـــد ... و زلات سوء قد أخذن المخـــانقـــا

فيُثْبِتُ موضوع الأحاديث جاهلا ... و يعـــزو إلى المعصوم ما ليس لائقـــاً

و يشتُم أعـــلامه الأئمة ضلـــة ... و لا سيما إن أولجـــوه المضَـــايقـــا

و يسهب في المعنى الوجيز دلالة ... بتكثيـــر ألفاظ تسمى الشقـــاشقـــا

يقـــوِّل فيها الله ما ليس قـــائلا ... و كان مـــحبًّا في الخطـــابة وامقـــاً

و يخـــطئ في تركيبـــه لكلامـــه ... فليـــس لما قد ركبـــوه مـــوافـــقـــاً

و ينسب إبداء المعـــاني لنفســـه ... ليوهـــم أغماراً و إن كـــان سارقـــاً

و يخـــطئ في فهم القـــرآن لأنّه ... يجـــوز إعرابـــاً أبى أن يـــطـــابقـــا

و كم بين من يؤتى البيان سليقة ... و آخر عـــانـــاه فما هـــو لاحقـــاً

و يحتـــال للألفاظ حتى يديرها ... لمـــذهب سوء فيه أصبـــح مـــارقـــاً

فيا خسره شيـــخ تخرَّق صيتـــه ... مغارب تخريق الصبا و مشـــارقـــا

لئن لم تداركـــه من الله رحـــمة ... لسوف يرى للكافـــرين مـــرافقـــا"

فَقُلْتُ لَهُ احْمِلْ فَوْقَ طَوْقِكَ إِنَّها ... مَطْبَعَةٌ مَنْ يَأْتِهَا لا يُضِيرُهَا

(ر)

سواءٌ عليك النَّفر أمْ بِـــتَّ لَيلَـــةً بأَهْل القِبَـــابِ من نُميْر بن عامر

(ع)

أَبْيَـــضُ اللَونِ لذِيـــذٌ طَعْمُـــهُ طَيـــِّبُ الريق إذا الريّقُ خَـــدَعْ

(ن)

أَلَـــمْ تَكُنْ في رسوم قد رسَمْتَ بها مَنْ كان مَوْعِظَة يا زهرة اليمـــن

أَبْلِغْ كُـــلَيْبًا و أَبْلِـــغْ عنك شاعِرهَا أنِّي الأعَـــزُّ و أنِّي زَهْرَةَ اليَمَـــن.

(ي)

لسْـــتُ مِمَّن يَكِـــعُّ أو يستكينو نَ إذا كافَحَتْـــة خيْـــلُ الأعَادِي

إنّ التفـــاسيـــر في الدنـــيا بلا عدد و ليس فيها لعمري مثل كشـــافي
إن كنت تبغـــي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء و الكشاف كالشافي

فهـــرس الموضـــوعـــات

العنـــــــوان	الصفحـــة
مـــقـــدمـــة	أ
مـــــدخـــل	01
التفسيـــر لغة و اصطلاحا	03
التأويل لغة و اصطلاحا	06
علاقة التفسير بالتأويل	13
أنواع التفسير	15
مدرسة التفسير بالمأثور	17
تفسير القرآن بالقرآن	19
تفسير القرآن بالسنة	20
تفسير القرآن بأقوال الصحابة و التابعين	20
مدرسة التفسير بالرأي	21
تفسير الشيعة	23
تفسير المعتزلة	24
حياة أبي حيان النحوي	26
عقيـــدته	28
وجهتـــه النحوية	29

مصنفـــاتـــه 30
مؤلفاتـــه في التفسير 31
مؤلفاتـــه في القراءات 31
مؤلفاتـــه في الفقـــه 32
مؤلفاتـــه في اللغـــة 32
مؤلفاتـــه في النحـــو 33

البـــاب الأول: منهـــج أبي حيـــان 34
الفصل الأول: مصادر البحر المحيـــط 39
شيوخ أبي حيان الذين روى عنهم بالسمع و القراءة 40
شيوخه الذين أخذ عنهم النحو 40
مصادر في التفسير 43
تفسير الكشاف للزمخشري 46
تفسير المحرر الوجيز لابن عطية 52
مصادر في القراءات 58
مصادر أبي حيان في اللغة 64
كتب النحو و الصرف 64
الكتب البلاغية 69
مصادر في الحديث 70
مصادره في الفقه 71
مصادره أصول الفقه 72
مصادره في التاريخ 73

الفصل الثاني: رؤى منهجية في تفسير البحر المحيـــط 75
تعريف المنهج 78
المنهج الوصفي 80
المنهج الاستقرائي 86
المنهج الاستنباطي 88
المنهج التاريخي 90
المنهج المقارن 95
المنهج التحليلي 99

الباب الثاني: المقاربة المنهجية بين أبي حيان و الألسنيين 103
الفصل الأول: مستويات التحليل اللغوي 108
المستوى الصوتي 109
المستوى الإفرادي 120
تفسير الأفعال 125
المجرد المفتوح العين 125
الفعل المجرد المكسور العين 132
الفعل المجرد المضموم العين 137
الأفعال المزيدة 138
مناقشة و تحليل 142
تفسيره للأسماء 143
تفسيره للحروف 149
المستوى التركيبي 151

العطف 155
الحذف 162
التقديم و التأخير 168
الفصل الثاني: مظاهر تماسك و انسجام الخطاب القرآني 176
مفهوم النص 178
مفهوم الخطاب 186
موقف أبي حيان من التأويل 195
مفهوم التأويل عند الغربيين 195
مفهوم التأويل عند العرب 199
غياب العائد في الضمير 202
تأويل اللفظ بغير الظاهر 204
الإلتفـــات 206
تغير الدلالة الزمنية للأفعال 209
ترتيب الخطاب 211
خـــاتمة 218
الفهارس العامة
قائمة المصادر 221
قائمة المراجع 224
قائمة الرسائل الجامعية 227
قائمة المعاجم 229
قائمة المجلات 230
فهرس الآيات القرآنية 231

فهرس الأحاديث النبوية 249
فهرس الأبيات الشعرية 250
فهرس الموضوعات 252